



مجلة

مجمع اللغة العربية بدمشق

« مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً »

مجلة محكمة فصلية

شعبان ١٤٣٣ هـ

تموز ٢٠١٢ م

مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق

« مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً »

أُنشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١ م

المدير المسؤول: الدكتور مروان المحاسني، رئيس المجمع

بجنت المجلة

الدكتور محمود السيد «رئيس التحرير»

الدكتور عبد الله واثق شهيد	الدكتور مكي الحسني الجزائري
الدكتور مازن المبارك	الدكتور ممدوح خسارة
الدكتور محمد محفل	الدكتور عيسى العاكوب
الدكتور عبد الإله نبهان	الدكتور هاني رزق
الدكتور أحمد قدور	الدكتور محمد سعيد الصفدي

أمين المجلة: الدكتور محمود الحسن

أغراض المجلة:

إن أغراض المجلة مستمدة من أغراض المجمع الواردة في قانونه ولائحته الداخلية، وأبرزها: المحافظة على سلامة اللغة العربية، وجعلها وافية بمطالب الآداب والعلوم والفنون، وملائمةً لحاجات الحياة المتطورة، ووضع المصطلحات العلمية والتقنية والأدبية والحضارية، ودراستها وفق منهج محدد، والسعي لتوحيدها في الأقطار العربية كافة.

خطة المجلة وشروط النشر فيها:

- أن يُرفق الكاتب بحثه بالسيرة الذاتية والعنوان البريدي والإلكتروني، مع تعهد بأن البحث غير مستل من أطروحة جامعية، وغير منشور من قبل، ولم يُرسل إلى جهة أخرى.
- ألا يقلّ البحث عن عشر صفحات وألا يزيد على ثلاثين صفحة من صفحات المجلة، وعدد الكلمات في الصفحة الواحدة لا يزيد عن (٢٠٠) كلمة. أما المقالات فيُقبل منها ما يقلّ عن عشر صفحات.
- أن يخلو البحث من أي إساءة إلى الكتاب والباحثين أو غيرهم، وأن يحترم المعتقدات الدينية والفكرية للشعوب.
- أن تكون البحوث والمقالات المرسلة إلى المجلة منضدة، وأن تشفع بقرص حاسوبي ليزري مسجلة عليه، أو مرسلة بالبريد الإلكتروني.
- أن يلتزم الباحث المنهج العلمي في كتابة المراجع في متن البحث وحواشيه، وأن يضع في آخر البحث قائمة بالمصادر والمراجع، مع ذكر اسم المؤلف ودار النشر وسنة الطبع.
- تنشر المجلة البحوث والمقالات التي ترد إليها بعد أن تخضع للتقويم السري.
- ترتّب البحوث والمقالات وفق اعتبارات فنية.
- البحوث والمقالات التي لا تُنشر لا تردّ إلى أصحابها.
- تُعطى الحواشي أرقامًا متسلسلة من بداية البحث حتى نهايته. وتذكر حواشي كل صفحة في أسفلها.
- توضع الكلمات العربية (أو المعربة) قبل مقابلها الأجنبي عند ورودها أول مرة، نحو: تقانة (Technology)، حاسوب (Computer)، نفسية (Psychologic).
- من الضروري أن يُعنى الكاتب بعلامات الترقيم: النقطة، الفاصلة، إلخ....
- ترسل البحوث والمقالات إلى المجلة على العنوان:

العنوان البريدي: دمشق ص.ب ٣٢٧. البريد الإلكتروني: mla@net.sy

تُنشر المجلة في موقع المجمع على الشبكة (الإنترنت): www.arabacademy.gov.sy

فهرس البجزء الثالث

من المجلد السّابع والثّمانين

البُحوث والدراسات

- ٦٣٧ د. محمود السيد اللغة العربية واللغات الأجنبية
وموقعها في التعليم العام في الوطن العربي
- ٦٦١ د. ممدوح خسارة المكتبة العربية الإلكترونية الجامعة
عصر التدوين الثاني
- ٦٨٩ د. محمد رضوان الداية المظاهر اللغوية والأسلوبية
في شعر محمد البزم
- ٧٢٧ د. أحمد علي محمد الشُّعراء المُوسوسُون في التراث العربي
- ٧٥٥ د. عادل الفريجات العولمة والعربية... علاقة تفاعلية
- ٧٧٩ د. خليل محمد أيوب من مظاهر الافتراق الأسلوبي
بين القرآن والحديث
- ٨٠٧ د. عبدالحليم عبدالله الجملة بين الإسناد والاستقلال الدلالي
- ٨٣٩ أ. آيات إسماعيل الصالح الوقف وأثره في التأويل النحويّ
عند أبي حيّان

المقالات والآراء

- ٨٦١ د. مكي الحسني صفحة لغة: ((عَبْر))
- ٨٦٧ أ. بشار بكور مقدمات الكُتُب:
- من خَبِيء فَوَائِدِهَا وَمَكُون نَفَائِسِهَا

التعريف والتقد

- ٨٩٣ د. مازن المبارك سليم الجندي وخدمة اللغة العربية
- ٨٩٩ د. محمود الحسن تعريف بكتاب:
- النُّكْت في القرآن للمجاشعي (ت ٤٧٩ هـ)

أبناءً مَجْمَعِيَّة وثقافية

- ٩٠٩ من قرارات مجمع اللغة العربية في الألفاظ والأساليب عامي ٢٠٠٩-٢٠١٠ م
- ٩٣٣ الكتب والمجلات المهداة إلى مكتبة المجمع
في الربع الثاني من عام ٢٠١٢ م
- ٩٣٧ تصحيحات المجلد ٨٧ / ٢

البحوثُ والدراساتُ

اللغة العربية واللغات الأجنبية وموقعها في التعليم العام في الوطن العربي

د. محمود أحمد السيد(*)

نحاول في هذا البحث الموجز أن نتعرف أهمية تعلم اللغة العربية واللغات الأجنبية في الوقت نفسه، وأن نبين واقع تعليم اللغة العربية في التعليم العام، وواقع تعليم اللغات الأجنبية، ثم نوضح الواقع التعليمي في الممارسات داخل الصفوف، والكفايات اللغوية للمتعلمين وميولهم واتجاهاتهم، ثم نقف على بعض القضايا المثارة في مجال تعليم اللغات الأجنبية في التعليم العام، لنرسم بعض الصوى على درب النهوض بهذا الواقع.

أولاً- أهمية تعلم اللغة العربية واللغات الأجنبية

من البدهي أن تعلم اللغات ضرورة ماسة تملئها المتطلبات الوطنية والقومية وطبيعة العصر الذي نحيا تحت ظلاله، ذلك لأن أي لغة هي أداة التفكير، وهي وسيلة الفرد للتعبير عن مشاعره وعواطفه وأفكاره، ووسيلته لقضاء حاجاته وتنفيذ مطالبه في المجتمع الذي يحيا فيه، وبها يناقش شؤون حياته مستفسراً وباحثاً

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق، ونائب رئيسه.

ومستوضحًا، ومطلعًا على تجارب الآخرين ماضيًا وحاضرًا، وتوجهًا نحو المستقبل، وموظفًا تلك التجارب في حياته، ومؤثرًا في وجدانات الآخرين وعقولهم.

ويرى الدكتور طه حسين أننا نفكر باللغة إذ يقول: «نحن نشعر بوجودنا وبحاجتنا المختلفة، وعواطفنا المتباينة وميولنا المتناقضة حين نفكر، ومعنى ذلك أننا لا نفهم أنفسنا إلا بالتفكير، ونحن لا نفكر في الهواء، ولا نستطيع أن نفرض الأشياء على أنفسنا إلا مصورة في هذه الألفاظ التي نقدرها ونديرها في رؤوسنا، ونُظهر منها للناس ما نريد، ونحتفظ منها لأنفسنا بما نريد، فنحن نفكر باللغة، ونحن لا نغلو إذا قلنا إنها ليست أداة للتعامل والتعاون الاجتماعيين فحسب، وإنما هي أداة التفكير والحس والشعور»^(١).

واللغة مؤسسة اجتماعية إنسانية، فهي مستودع تراث الأمة، والرباط الذي يربط بين أبناء المجتمع، فتوحد كلمتهم، وتجمع بينهم فكريًا، وهي الجسر الذي تعبر عليه الأجيال من الماضي إلى الحاضر، ومن الحاضر إلى المستقبل.

واللغة هي هويّة المرء، وهوية مجتمعه وأمته في الوقت نفسه، ذلك لأن اللغة والهوية وجهان لعملة واحدة، إذ ليس الإنسان في جوهره إلا لغةً وهوية: اللغة فكره ولسانه، وفي الوقت نفسه انتماؤه، وهذه كلها تكون هويته.

وليست ثقافة أي مجتمع إلا منظومة تشمل الجوانب المعنوية فيه لغةً ومعرفةً وعاداتٍ وتقاليدهً وميولاً واتجاهاتٍ وقيماً وأنظمةً وديساتير وقوانين، كما تشمل جميع الجوانب العملية والأدائية والتطبيقية والتقانية في حياته.

(١) الدكتور طه حسين - مستقبل الثقافة في مصر - مطبعة المعارف ومكبتها - القاهرة - ١٩٦٨.

ولكل مجتمع من المجتمعات البشرية هوية ثقافية تميزه، ولا يمكننا أن نتصور مجتمعاً دون هوية، واللغة هي محور الثقافة وحاملتها والحاضن لها، والمعبر عنها، وهي الأساس الصلب الذي تقوم عليه الأمة والوطن الروحي لها، وما الهوية إلا الطابع المعبر عن الشخصية لغة وثقافة، أي لساناً وعقلاً ووجداناً وأداءً، ولا هوية دون لغة، ولا وطن من دون هوية.

وإذا كانت اللغة هي وسيلة المرء للتحكم في بيئته لأنها أداة التفكير وثمرته، وبها تسهل عمليات التفاعل الاجتماعي والانصهار الفكري بين أفراد المجتمع والأمة، فإن لغتنا العربية هي هويتنا، وذاكرة أمتنا، ومستودع تراثها، وجسرها للعبور من الماضي إلى الحاضر، ومن الحاضر إلى المستقبل، فهويتنا العربية هي انتقاء إلى لغتنا العربية، وتاريخنا العربي، وأرضنا العربية، وقرآنا العربي.

ولغتنا العربية هي التي عاشت تاريخنا، وطبعت بالعروبة حضارتنا، وحوت ثقافتنا، ووحدت ألسنتنا وأقلامنا، وهي قلعتنا الحصينة للذود عن هويتنا وذاتيتنا الثقافية ووحدتنا القومية، وهي ذات أبعاد متعددة، فهي من الناحية القومية تجمع بين أبناء الأمة العربية أفقياً وعمودياً مادامت هي الرباط القومي الموحد والموحد، وهي من الناحية الدينية وسيلة العربي لفهم دينه وعقيدته ما دامت هي لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. والقرآن الكريم هو الذي صان هذه اللغة وحفظها من الضياع، وصانها من الاضمحلال والزوال مع كثرة الكوارث التي اجتاحت الأمة والأرزاء والنكبات التي ابتليت بها على مرّ العصور، وما الفضل في صمود اللغة العربية أمام الهجمات الشرسة التي تعرضت لها الأمة، والتحديات

القاسية التي واجهتها في مسيرتها إلا للقرآن الكريم، ذلك الكتاب العربي المبين الذي نزل به الروح الأمين على قلب الرسول العربي الكريم ﷺ آيةً لنبوته، وتأييداً لدعوته، ودستوراً لأمته.

لهذه الأسباب كافةً كان تعلم اللغة العربية وتعليمها واجباً مقدساً، كما أن معرفة اللغات الأجنبية من متطلبات العصر، عصر العلم والتقانة (التكنولوجيا)، وعصر الانتشار الثقافي الخاطف، والانفتاح بين الحضارات والثقافات، ولا يعد المرء مثقفاً في حياتنا المعاصرة إلا إذا كان متمكناً من لغته الأم واللغات الأجنبية، وعلى الأقل واحدة منها، ذلك لأن معرفة اللغات الأجنبية تسمح لصاحبها فهم حضارات الشعوب الأخرى، كما تتيح له أن يعرف الآخرين بحضارة أمته، ورحم الله شاعرنا العربي عندما يقول:

بقدر لغات المرء يكثر نفعُهُ وتلك له عند الشدائد أعوانُ
فبادرُ إلى حفظِ اللغاتِ مسارعاً فكلُّ لسانٍ بالحقيقةِ إنسانُ

وما دامت اللغة العربية هي هوية المرء وهوية أمته ووطنه الروحي، وما دامت اللغة الأجنبية هي وسيلته لفهم حضارات الشعوب من طرف وتعريف الآخرين بحضارة أمته من طرف آخر.

وما دامت اللغة الأم واللغات الأجنبية يجري اكتسابها وتعلمها في مراحل التعليم، ولا سيما مرحلة التعليم العام، فما حال واقع تعليم اللغة العربية واللغة الأجنبية في واقعنا العربي في التعليم ما قبل الجامعي؟

هذا ما سنعرض له في الصفحات التالية.

ثانياً- واقع تعليم اللغة العربية في التعليم العام

تنص دساتير الدول العربية على أن اللغة الرسمية في الدولة هي اللغة العربية، على أن تتجلى سيرورة وانتشاراً في جميع شؤون الحياة تعليمياً وإعلاماً وإدارة وتراسلاً... إلخ. وإذا ألقينا نظرة على واقع تعليم اللغة العربية في التعليم العام في الوطن العربي فإننا نلاحظ في الجدول ذي الرقم (١) أن تعليم اللغة العربية يبدأ من الصف الأول من مرحلة التعليم الأساسي، ويستمر بها حتى نهاية المرحلة الثانوية في المدارس الرسمية (الحكومية).

الجدول (١)

واقع تعليم اللغة العربية في التعليم العام بالوطن العربي

الدولة	واقع تعليم اللغة العربية
الكويت	يبدأ تعليم اللغة العربية وتعليم المواد بها من الصف الأول من مرحلة التعليم الأساسي، ويستمر حتى نهاية المرحلة الثانوية في المدارس الرسمية. أما المدارس الخاصة فتعلم باللغتين العربية وبعض المواد بالأجنبية معاً.
قطر	يبدأ تعليم اللغة العربية من الصف الأول من مرحلة التعليم الأساسي، وفي المدارس المستقلة التي تشرف عليها الدولة اعتمدت اللغة الإنجليزية لتدريس مواد العلوم والرياضيات والحاسوب.
ليبيا	يبدأ تعليم اللغة العربية من الصف الأول من مرحلة التعليم الأساسي، وتعلم جميع المواد في هذه المرحلة وفي المرحلة الثانوية باللغة العربية في المدارس الرسمية والخاصة.

الدولة	واقع تعليم اللغة العربية
لبنان	يبدأ تعليم اللغة العربية من الصف الأول في المدارس الرسمية و٣٠٪ من المدارس هي رسمية تدرّس بالعربية و٣٠٪ تدرّس مواد بالفرنسية و٣٠٪ تدرّس مواد بالإنجليزية، وذلك من الصف الأول حتى الخامس، ومن الصف السادس إلى نهاية المرحلة الثانوية يصبح ٦٠٪ للفرنسية و٤٠٪ للإنجليزية. والمواد التي تدرّس باللغة الأجنبية هي العلوم الفيزيائية والكيميائية وعلوم الحياة والتكنولوجيا والمعلوماتية. أما المواد الأدبية فتدرّس بالعربية في المدارس الرسمية والخاصة إلا في عدد قليل من المدارس الخاصة فتعلم الفلسفة والاقتصاد والاجتماع باللغة الأجنبية.
تونس	يبدأ التعليم من الصف الأول ويستمر في التعليم الأساسي والثانوي باللغة العربية في المدارس الرسمية، وباللغتين العربية والفرنسية في المدارس الخاصة.
سورية	يبدأ التعليم من الصف الأول، ويستمر تعليمها والتعلم بها حتى نهاية المرحلة الثانوية في المدارس الرسمية والخاصة، وثمة مناهج إثرائية باللغة الأجنبية في بعض المدارس الخاصة لمواد العلوم والرياضيات إلى جانب اللغة العربية.
السعودية	يبدأ التعليم من الصف الأول ويستمر حتى نهاية المرحلة الثانوية باللغة العربية، وصدر أخيراً عن وزارة التربية والتعليم نظام جديد يسمح للمدارس الأهلية (بنين وبنات) بتعليم جميع المواد بلغة غير عربية ما عدا العلوم الدينية والعربية.

الدولة	واقع تعليم اللغة العربية
الأردن	يبدأ التعليم بالعربية من الصف الأول ويستمر حتى نهاية المرحلة الثانوية في المدارس الرسمية والخاصة، ما عدا بعض المدارس الخاصة فتعلم المواد العلمية باللغتين العربية والإنجليزية.
المغرب	يبدأ التعليم بالعربية من الصف الأول ويستمر حتى نهاية المرحلة الثانوية في المدارس الرسمية والخاصة، ما عدا المدارس الخاصة فتعلم بعض مواد التعليم التقني والتجاري والصناعي والفنون باللغة الأجنبية.
سلطنة عمان	يبدأ التعليم بالعربية من الصف الأول، ويستمر حتى نهاية المرحلة الثانوية في المدارس الرسمية والخاصة. أما المدارس الخاصة فيكون التعليم فيها باللغتين العربية والأجنبية.
الجزائر	يبدأ التعليم بالعربية من الصف الأول ويستمر حتى نهاية المرحلة الثانوية في المدارس الرسمية. أما في المدارس الخاصة فتعلم بعض المواد باللغة الأجنبية.

أما المدارس الخاصة فإن بعضها يدرّس المواد باللغة العربية فقط كما هي عليه الحال في ليبيا وسورية، إلى جانب مناهج إثرائية لمواد العلوم والرياضيات باللغة الأجنبية إلى جانب العربية في سورية، وهي التي تعلّم بها جميع المواد في المدارس الخاصة والرسمية.

ونلاحظ أيضاً أن دولة قطر تنفرد في أن المدارس المستقلة التي تشرف عليها الدولة اعتمدت اللغة الإنجليزية لغة لتعليم مواد العلوم والرياضيات والحاسوب. أما المدارس الخاصة في كل من الكويت وتونس والأردن وسلطنة عمان فتعلم باللغتين العربية والأجنبية.

ويتبيّن من الجدول أن ثمة مواد تدرّس باللغة الأجنبية في التعليم العام في كل من لبنان والمغرب والجزائر، وأن المواد التي تدرس باللغة الأجنبية في لبنان هي العلوم الفيزيائية والكيميائية وعلوم الحياة والتقانة (التكنولوجيا) والمعلوماتية، وفي المغرب تعلّم مواد التعليم التقني والتجاري والصناعي والفنون باللغة الأجنبية.^(٢)

ويتضح من المعلومات السابقة عن واقع التعليم باللغة العربية في التعليم العام في الوطن العربي أن ثمة غياباً للسياسة اللغوية على نطاق الساحة القومية، إذ ليس ثمة تخطيط لغوي في ضوء سياسة لغوية واضحة ترسم الموقف من تعليم مواد المعرفة باللغة القومية وحدها في مرحلة التعليم الأساسي والمرحلة الثانوية، وذلك في المدارس الرسمية والخاصة. أما ما لاحظناه من اضطراب في المواقف وبوجه خاص في المدارس الخاصة فإنه يشكل ثغرة في النظام التعليمي العربي، إذ إن الاقتصار على تعليم بعض المواد باللغة الأجنبية دون العربية يعدّ عملاً سلبياً في صرح لغتنا العربية ونظامنا التربوي.

ثالثاً- واقع تعليم اللغات الأجنبية في التعليم العام

سبقت الإشارة إلى أن تعليم اللغات الأجنبية من الأهمية بمكان في عالمنا المعاصر بعد أن غدا العالم قرية صغيرة، ولكن لا بدّ لنا أن نفرّق بين تعلم اللغات الأجنبية وهو أمر هام، وبين تعلم مواد المعرفة باللغة الأجنبية بدلاً من العربية وفي المدارس العربية وعلى الأرض العربية، فهذا في غاية الخطورة.

(٢) الدكتور محمود السيد وآخرون- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- الخطة العامة

لتعريب التعليم- تونس ٢٠١١ ص ٢٤.

ولكي نتعرف واقع تعليم اللغات الأجنبية في التعليم العام في الوطن العربي ننظر إلى الجدول ذي الرقم (٢) الذي يشتمل على الصف الذي يبدأ فيه تعليم اللغة الأجنبية الأولى، والصف الذي يبدأ فيه تعليم اللغة الأجنبية الثانية إن وجد.

الجدول (٢)

واقع تعليم اللغات الأجنبية في التعليم العام في الوطن العربي

الدولة	اللغة الأجنبية الأولى	اللغة الأجنبية الثانية
الكويت	بدءاً من الصف الأول (الإنجليزية)	بدءاً من الصف الرابع
قطر	بدءاً من الروضة (الإنجليزية)	-
ليبيا	بدءاً من الصف الخامس (الإنجليزية)	بدءاً من الصف العاشر
لبنان	بدءاً من الصف الأول (الفرنسية)	بدءاً من الصف السابع (الإنجليزية)
تونس	بدءاً من الصف الثالث (الفرنسية)	بدءاً من الصف السادس (الإنجليزية)
سورية	بدءاً من الصف الأول (الإنجليزية)	بدءاً من الصف السابع (الفرنسية)
السعودية	بدءاً من الصف السادس (الإنجليزية)	لا يوجد
الأردن	بدءاً من الصف الأول (الإنجليزية)	لا يوجد

الدولة	اللغة الأجنبية الأولى	اللغة الأجنبية الثانية
المغرب	بدءاً من الصف الثالث (الفرنسية)	بدءاً من الصف التاسع (الإنجليزية)
سلطنة عمان	بدءاً من الصف الأول (الإنجليزية)	لا يوجد
الجزائر	بدءاً من الصف الثالث (الفرنسية)	بدءاً من الصف السادس (الإنجليزية)

ويتبين من هذا الجدول ما يلي:

- ١- إن اللغة الأجنبية الأولى هي اللغة الإنجليزية في كل من الكويت وقطر وليبيا وسورية والسعودية والأردن وسلطنة عمان، وهي الفرنسية في كل من لبنان وتونس والمغرب والجزائر.
- ٢- إن تعلم اللغة الأجنبية الأولى يبدأ من الصف الأول من مرحلة التعليم الأساسي في كل من الكويت وسورية ولبنان والأردن وسلطنة عمان، ويبدأ من الصف الثالث في كل من تونس والمغرب والجزائر، ومن الصف الخامس في ليبيا والسعودية، أما في دولة قطر فيبدأ من الروضة.
- ٣- ثمة دول عربية لم تشر إلى اللغة الأجنبية الثانية فيها، وهذه الدول هي: قطر والسعودية والأردن وسلطنة عمان. وثمة دول أشارت إلى اللغة الأجنبية الثانية، ولكن لم تعرف نوعية هذه اللغة، ومن هذه الدول الكويت وليبيا.
- ٤- يختلف البدء بتعلم اللغة الأجنبية الثانية من دولة إلى أخرى، فهو في الكويت يبدأ من الصف الرابع، وفي تونس والجزائر يبدأ من الصف السادس، واللغة

الثانية فيهما الإنجليزية، وفي لبنان وسورية يبدأ من الصف السابع حيث يتعلم التلاميذ الفرنسية في سورية لغة ثانية، وفي لبنان يتعلمون الإنجليزية لغة ثانية. وفي المغرب يبدأ التعليم من الصف التاسع، واللغة الثانية هي الإنجليزية، وفي ليبيا يبدأ تعلم اللغة الأجنبية الثانية في الصف العاشر.

٥- إن اللغتين الأجنبيتين المعتمدتين لغة أولى هما الإنجليزية والفرنسية، وكذلك الأمر في نوعية اللغة الأجنبية الثانية.

ويتضح مما سبق أن ثمة اضطراباً وغياباً للسياسة اللغوية في مجال تعليم

اللغات الأجنبية على صعيد النظام التربوي العربي في التعليم العام.^(٣)

رابعاً- الواقع التعليمي في الممارسات داخل الصفوف

إذا كانت الوثائق تدل على اللغة المقررة في العملية التعليمية التعليمية في

التعليم العام إن للعربية أو للأجنبية، فإن الممارسات داخل الصفوف هي المؤشر الأساسي على الواقع.

ولقد سبق لمؤسسة الفكر العربي أن وجهت استبانات إلى عينة من الطلاب

بنين وبنات في نهاية التعليم العام في الوطن العربي، وقد شمل التوزيع الجغرافي كلاً

من لبنان وسورية والأردن وفلسطين المحتلة والسعودية ومصر وتونس والمغرب

وقطر، وموريتانيا والسودان والصومال والعراق.^(٤)

وبعد استبعاد العينات غير الممثلة في بعض الدول المشار إليها، والإبقاء على

(٣) المرجع السابق ص ٢٧.

(٤) مؤسسة الفكر العربي- استطلاع رأي طلاب ما قبل التعليم الجامعي - بيروت ٢٠١١.

النسب الممثلة إحصائياً أمكن ترتيب هذه النسب ترتيباً تنازلياً على النحو المبين في الجدول ذي الرقم (٣).

الجدول (٣)

النسبة المئوية للعينة المستجوبة مرتبة ترتيباً تنازلياً

الدولة	عدد الطلاب في العينة	نسبتها المئوية
لبنان	٣٤٨٧	٧٣.٤٦
المغرب	٣٥٦	٧.٥٠
فلسطين	٣١٥	٦.٦٤
موريتانيا	٢٤٠	٥.٠٦
تونس	١٤٥	٣.٠٥
السعودية	١٣٤	٢.٨٢

ويلاحظ أن ما يقرب من ثلاثة أرباع حجم العينة إنما هو من لبنان، في حين أن الربع الباقي لها من خمس دول هي المغرب وفلسطين وموريتانيا وتونس والسعودية، كما يلاحظ أن ثمة ثلاث دول من المغرب العربي هي تونس والمغرب وموريتانيا، ودولتين من بلاد الشام هما لبنان وفلسطين، ودولة من دول الخليج العربي هي السعودية.

ولو ألقينا نظرة على واقع القطاع التعليمي من حيث نوعيته (حكومي أو خاص) فإننا نلاحظ أن النسبة المئوية للطلاب التابعين لكل قطاع على النحو المبين في الجدول (٤).

الجدول (٤)

النسبة المئوية للعيينة المستجوبة من حيث نوعية القطاع الذي تتبع له

النسبة المئوية	عدد الطلاب في العينة	القطاع التعليمي
٦٢.٦٣	٢٩٦٠	حكومي (رسمي)
٣٢.٦٣	١٥٤٩	خاص
٥.٠١	٠٢٣٨	لا جواب
١٠٠	٤٧٤٧	حجم العينة

ويلاحظ أن ما يقرب من ثلث العينة المستجوبة هو من القطاع الخاص، وتجدر الإشارة إلى أن الأنظمة المطبقة في المدارس الخاصة تختلف أحياناً عن الأنظمة المطبقة في المدارس الرسمية الحكومية، وهذا الاختلاف يؤثر في اتجاهات الطلبة وميولهم.

أ- اللغة المطبقة في العملية التعليمية التعليمية:

تبين أن اللغة المعتمدة في المدرسة في تدريس مواد العلوم والرياضيات هي اللغة الأجنبية، إذ أشار ٤١.٤٪ من الطلبة إلى أن اللغة الإنجليزية هي المعتمدة، وأشار ٣٣.٥٪ منهم إلى أن الفرنسية هي المعتمدة، في حين أن نسبة من أشاروا إلى ثنائية اللغة بلغت ٦.٨٪.

وتبين أن امتحانات مواد العلوم والرياضيات تجري باللغة الإنجليزية بنسبة قدرها ٤٣.٩٪ وبالفرنسية بنسبة قدرها ٣٣.٥٪ وبالعربية في المرتبة الثالثة بنسبة قدرها ١٩.٩٪.

وأبان ٩٣.٤٪ من الطلبة أنه لا يسمح لهم بالإجابة عن أسئلة مواد العلوم والرياضيات في الكتابي والشفهي باللغة العربية.

أما اللغة المعتمدة في شرح الدروس في العلوم والرياضيات فكانت مزيجاً من العامية والأجنبية بنسبة قدرها ٤٧.٥٪ وبالأجنبية بنسبة قدرها ١٥.٨٪ وبالعامية بنسبة قدرها ٨.٧٪ وجاءت العربية الفصيحة في المرتبة الأخيرة بنسبة قدرها ٤.٣٪. وتدل هذه النسب على أن واقع الأنظمة المطبقة في المدارس يساعد أيما مساعدة على إقبال الطلاب على استعمال اللغة الأجنبية ما دامت الدروس تشرح بها، والامتحانات تؤدي بها، وأنه لا يسمح للطلاب بتأدية امتحاناتهم بالعربية. وتسود العامية في لغة التواصل بين الطلاب، إذ وصلت نسبة استخدامها إلى ٨١.٣٪ في حين بلغت نسبة استخدام ازدواجية اللغة (الفصيحة والعامية) ٦.٢٢٪ وبلغت نسبة استخدام ثنائية اللغة (أجنبية وفصيحة) ٦.٣٪، وجاءت الفصيحة في المرتبة الأخيرة حيث بلغت نسبة استخدامها ٣.٥٪. أما السبب في عدم التواصل مع الأساتذة بالفصيحة فقد أرجعه ٣١.٤٪ من الطلاب إلى خوف الوقوع في الخطأ و٣٠.٣٪ إلى صعوبة العربية وتعقيدها، وتجدر الإشارة إلى أن غياب القدوة الحسنة في استعمال اللغة السليمة إن من المعلمين أو المتعلمين هو سبب أساسي في عدم التواصل، وأن ثمة أخطاء يرتكبونها عند ممارستهم العربية الفصيحة.^(٥)

ب- الواقع المتعلق بميول الطلبة واتجاهاتهم نحو اللغة العربية:

أشار ٥٦.٢٪ من طلبة المرحلة الثانوية إلى أنهم اختاروا الفرع العلمي لا

(٥) الدكتور محمود السيد - الكفايات اللغوية لطلاب ما قبل التعليم الجامعي - مجلة التعريب -

العدد الثالث والأربعون - كانون الأول (ديسمبر) ٢٠١٢ ص ٢٣.

الأدبي في دراستهم للحصول على الشهادة الثانوية، وأن السبب في هذا الاختيار هو الرغبة في متابعة الاختصاص في الجامعة كما أفاد بذلك ٤٩.٨٪ منهم.

وأبان ما يقرب من نصف الطلبة أنه لا يحب اللغة العربية، إذ إن ٥٣.١٪ من الطلاب فقط أبدوا محبتهم للغتهم الأم (العربية الفصحى)، وهذه أمانة باللغة الخطورة على واقع أبنائنا الطلبة نحو لغتهم القومية.

وذكر ٦٥.١٪ من الطلبة أنهم لا يرغبون في تعلم مواد العلوم والرياضيات وسائر المواد في المرحلة الثانوية باللغة العربية، كما أشاروا إلى أنه لو ترك لهم الخيار في الإجابة عن أسئلة مواد العلوم والرياضيات في الكتابي والشفهي فإنهم يختارون اللغة الأجنبية أكثر من اختيارهم للعربية، إذ بلغت نسبة من يختار الأجنبية ٦٥.٤٪ في حين أن نسبة من يختار العربية ٣١.٣٪.

ج- الكفايات اللغوية للمتعلمين:

تبين أن ثمة قصورًا في الكفايات اللغوية للمتعلمين من حيث الفهم والقراءة السليمة والتعبير الوظيفي والقواعد النحوية والتذوق الأدبي والتفتيش والبحث في المعاجم، وحفظ الشعر والنثر... إلخ.

ذكر أكثر من نصف الطلبة المستجوبين أنهم يجدون صعوبة في فهم كثير من الكلمات في النصوص القديمة والحديثة، ولا يقتصر القصور في الفهم على النصوص المقروءة في القراءتين الجهرية والصامتة، وإنما يمتد إلى النقص في فهم ما يستمعون إليه في الدروس، وأن ثمة نفرًا من الطلبة ينجلون أن يسألوا عن نقطة لم يفهموها، ويجسون بالخرج في السؤال أمام زملائهم.

وأشاروا أيضًا إلى أنهم لم يدرّبوا التدريب الكافي على ضروب التعبير الوظيفي: توجيه التعليمات والإرشادات، إلقاء الكلمات في المناسبات المختلفة، كتابة المذكرات، إعداد محاضر الجلسات وملخصات عنها، كتابة النشرات والإعلانات، واللافتات، كتابة بطاقات الدعوة والاعتذار، تحرير الرسائل الدبلوماسية، ملء الاستمارات، إجراء المقابلات، أصول تقديم الطلبات... إلخ.

كما أشاروا إلى ارتكابهم الأخطاء النحوية في تعبيراتهم الشفاهية والكتابية، وإلى صعوبات يحسون بها في دروس النحو، وفي البحث في المعاجم، وذكروا أنهم لا يحفظون الشعر أو النثر، إذ أشار ٥٥.٢٪ من الطلبة إلى أنهم لا يحفظون أي شعر من مختلف عصور الأدب العربي، ولا يمارسون القراءة الحرة وإنما يرغبون في التنزه والتسلية ومشاهدة السينما والتلفزة ويفضلون ذلك على القراءة.

خامسًا - قضايا مثارة

سبقت الإشارة إلى أنه لا توجد سياسة لغوية واضحة على الصعيد العربي تجاه البدء بتعلم اللغات الأجنبية في التعليم العام في الوطن العربي، وثمة فريقان لكل منهما رؤيته في النظر إلى هذه القضية، إذ يرى الفريق الأول إرجاء تعليم اللغات الأجنبية إلى الحلقة الثانية من مرحلة التعليم الأساسي حتى يتمكن الأطفال من اكتساب لغتهم الأم دون منازعة لغة أخرى لها في عملية التعلم والاكتساب، وكان المرابي ساطع الحصري من حملة لواء هذا التوجه إذ يقول: «من الأمور الثابتة بالأبحاث العلمية أن تعلم لغة أجنبية قبل إتقان اللغة الأصلية، وقبل الوصول إلى درجة من النضج العقلي، يضر بمصلحة الطفل، ويعرقل نموه الفكري عرقلة واضحة».^(٦)

(٦) أبو خلدون ساطع الحصري - تقارير واقتراحات للإصلاح - ص ٩٣.

ويذهب الحصري إلى أن تعلم لغة أجنبية لتلاميذ لم يتقنوا بعد لغتهم الأصلية لا يتفق وقواعد التربية الصحيحة، وينافي مبادئ التربية القومية السليمة، ذلك لأن تعليم الصغار قواعد لغتين مختلفتين في وقت واحد يرهق عقول التلاميذ، ويعوق نموهم الفكري، ويشوش أذهانهم، ويعطي مردوداً رجعيّاً على تعلمهم اللغة الأولى. كما أن المدارس الابتدائية هي لأجل تعليم جميع أبناء الشعب، تدرّس فيها الأمور التي يحتاج إليها جميع الناس، ولا يستغني عنها أحد مهما تكن المهنة التي يمارسها. واللغة الأجنبية ليست من الأمور التي يحتاج إليها جميع أفراد الشعب، ولا يستغني عنها أحد، لذلك يجب أن تبقى خارج تدريس مدارس المرحلة الأولى من التعليم.^(٧)

ويحدد الحصري الغاية من تعلم اللغة الأجنبية فيرى أن هذه الغاية يجب أن تكون الاستفادة منها لتقوية الثقافة لا التكلم بها في الشوارع أو في المخازن، وبدهي أن الاستفادة من هذه اللغة لهذا الغرض لا يمكن أن يكون في المدارس الابتدائية، بل في المدارس الثانوية وحدها.

ويؤيد وجهة نظره قائلاً «ما من دولة من الدول الراقية تعلم في مدارسها الابتدائية لغة أجنبية، فدول البلقان الحديثة التي لا تقل عن سورية حاجة إلى الاستفادة من اللغات الأوربية لا تعلم غير اللغة الأصلية في المدارس الابتدائية. إن تركيا حذفت اللغة الأوربية من مدارسها الابتدائية، والعراق حذفت اللغة الإنجليزية من الصفوف الأربعة الأولى، فلا تعلم إلا في الصف الخامس من الدراسة الابتدائية».^(٨)

(٧) الحصري - آراء وأحاديث في العلم والأخلاق والثقافة - ص: ٧٨-٧٩.

(٨) المرجع السابق ص ٩٤.

أما الفريق الثاني الذي يرى أن لا ضرر من تعلم لغة أجنبية في وقت مبكر فينطلق من أن التكلم بلغة ثانية - واحدة على الأقل - يعد من متطلبات العصر، إذ لم يعد تعلم لغة ثانية في عالم اليوم امتيازًا أو ترفًا، وحكرًا على الأطفال الذين يذهبون إلى المدرسة بعد مرحلة التعليم الإلزامي، بل أصبح جزءًا من تربية كل طفل، حتى لو تلقى أدنى حد من الدراسة، فضلًا عن أن كثيرًا من الأطفال يتسربون ولا يبقون في المدارس مدة طويلة كافية، مما لا يسمح لهم بأي تأخير في تعلم اللغة الثانية.^(٩)

وبهذا يصبح تعليم لغة ثانية أمرًا أساسيا ليس فقط من وجهة نظر المجتمع، وإنما كذلك لأجل الفرد نفسه وتربيته الشخصية، ذلك لأن معرفة لغة ثانية تمكّن المرء من العيش والتحرك بحرية أكبر في أكثر من حضارة، ومن ثم تحرره من الحدود الثقافية المفروضة عليه بالانتماء إلى جماعة حضارية واحدة، أو مجتمع لغوي معين. وإن معظم الدراسات أجمعت على اعتبار تعليم لغة ثانية جزءًا ضروريًا في تكوين الشخصية في عالمنا المعاصر، وجزءًا أساسيا من عملية التربية الأساسية. وهذا يظهر أنه لا تعارض يذكر بين تعليم لغة أجنبية في المدارس الابتدائية وبين قواعد التربية الصحيحة ومبادئ التربية القومية السليمة.

ويذهب هذا الفريق أيضًا إلى أن من الحقائق المسلّم بها في علم النفس أن الإنسان يتمتع بقدرة كبيرة على التعلم، وهي ظاهرة يتفرد بها الإنسان عن غيره من الكائنات الحية الأخرى، فالطفل يولد وهو مزود باستعداد فطري لاكتساب اللغة وتعلمها، وهو لا يملك فقط موهبة لا تجارى في اكتساب اللغة وتقليد الأصوات،

UNESCO (1963) Foreign Language in Primary Education, P:15. (٩)

بل يتمتع كذلك بمرونة كبيرة، وليس لدى علم النفس دليل ملموس يثبت وجود أي ضرر يلحق بالطفل من جرّاء تعلمه المبكر للغة ثانية، وإنما على العكس أظهر ميزات كثيرة تعطي مسألة البدء المبكر وزناً أعمق وأكثر بعداً، منها أن المرحلة الأبعد التي يجري بها تعلم لغة ثانية هي المرحلة الأكثر ملاءمة لاكتساب هذه اللغة بطريقة تشابه تعلم اللغة الأولى.^(١٠)

وفي تقرير لمؤسسة التربية الحديثة في أمريكا يبين جيزل إلج Gesell Ilg أن الاتجاه الحالي نحو توفير فرص تعلم لغة ثانية في مرحلة مبكرة يدل على تعرف أكثر اتضاحاً لأنماط تطور الطفل وتدرجه، فالطفل الصغير يستمتع بتجربة اللغة، وهو مستعد لأن يتعلم ويصغي ويتواصل مع الآخرين بكلمة تخرج من الفم، وذلك في حالات لعب أو أوضاع تمثيلية حياتية، وبدافع ذاتي مستحب، يكون الطفل عاطفياً سهل الانقياد إلى لغة ثانية وحتى لغة ثالثة.^(١١)

ولقد أجريت دراسات وافية في أنحاء مختلفة من العالم كما أشارت المنظمة الدولية للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) للثبوت فيما إذا كان يوجد تأثير ضار يمكن أن يحدثه تعلم لغة ثانية على تطور الطفل العاطفي والفكري وعلى شخصيته أو حتى على تطور اللغة الأولى لديه، إلا أن هذه الدراسات لم تصل إلى نتائج حاسمة حول هذا الموضوع.

وبناء على ذلك أجمعت آراء الباحثين على أنه في حال عدم وجود برهان قاطع أو دليل ملموس يمكن الباحث أن يقرر أن تعليم لغة ثانية هو ميزة أو عائق

(١٠) المرجع السابق ص ٢٤.

(١١) المرجع السابق ص ٢٢.

للشخصية الفتية. وفي حال غياب مثل هذا الدليل يوجد بالمقابل برهان واضح يعطي مقداراً من الأفضلية للبدء المبكر بتعلم لغة ثانية تسوّغه المكاسب النفسية والاجتماعية الكثيرة التي يحصل عليها من يتقن التكلم بلغتين أو أكثر.^(١٢)

ويذهب هذا الفريق أيضاً إلى أن تعلم اللغة الأجنبية المبكر له خصائص معينة لا تتكرر في مرحلة لاحقة، ويمكن الإفادة منها في المدة بين الخامسة والحادية عشرة من عمر الطفل، وذلك إذا وجّه هذا التعلم وفق أفضل مبادئ التعليم وطرائقه (تهيئة أجواء لغوية اصطناعية) ليأتي أقرب ما يكون إلى التعلم الطبيعي الذي يحصل عليه طفل يعيش في وسط يتكلم لغتين. وعلى هذا تبرز أهمية البدء بتعليم اللغة الأجنبية منذ المرحلة الأولى حتى يستمر التدريب على استعمالها مدى أطول من السنين.

وتجدر الإشارة إلى أن الطفل يواجه عقبات عند البدء بتعلم اللغة الأجنبية في المرحلة الثانوية يمكن تلافيها بالبدء في تعليم هذه اللغة منذ الحلقة الأولى من مرحلة التعليم الأساسي، والإفادة من فرص السنين الغضة لاكتساب اللغة، والتي يملك الطفل فيها مقدرة كبيرة على التقليد بالنسبة لأصوات لغة ما، وقدرة عظيمة على تمثل تراكيب لغوية أخرى، وهذه بمجموعها أمور ثمينة من الحكمة عدم إضاعتها أو الإقلال من شأنها. يضاف إلى ذلك أن اللغة لا تتأتى بسرعة، ومن الأفضل أن تتأصل مع الطفل منذ مراحل مبكرة، ذلك لأن الطفل كالرادار يمتص ما حوله في البيئة ولأن لعقله استعداداً لاستيعاب أمور كثيرة، والمسألة فقط مسألة طريقة وأسلوب ونوع المادة المتعلمة.^(١٣)

(١٢) المرجع السابق ص ١٧-٢٠.

(١٣) المرجع السابق ص ١٦.

والواقع لم تصل البحوث إلى نتائج حاسمة في هذا المجال، وما يزال كل فريق متمسكًا بوجهة نظره إلى هذا الموضوع، وفي دراسة تتبعية لثلاث مجموعات من أطفال الرياض تعلمت الأولى اللغة العربية، والثانية اللغتين العربية والإنجليزية، والثالثة اللغات الثلاث العربية والإنجليزية والفرنسية، وجرى تتبع هذه المجموعات الثلاث حتى نهاية الصف الرابع من مرحلة التعليم الأساسي، حيث أجري اختبار لقياس المستوى التحصيلي في اللغة العربية، فلم يتبين وجود اختلاف في هذا المستوى بين أطفال المجموعات الثلاث، وإنما وجد أن أطفال المجموعتين الثانية والثالثة كانت لديهم اتجاهات سلبية نحو اللغة العربية، وقد يرجع السبب إلى طرائق تدريس لغتنا العربية، إذ إن طرائق تدريس اللغات الأجنبية جذابة وغنية في أساليبها وتقاناتها الحديثة، في حين أن طرائق تدريس العربية مازالت متخلفة أسلوبًا وتقانة.

سادسًا- صوى على درب النهوض بالواقع

لما كان ثمة فوضى واضطراب في وضع اللغة العربية واللغات الأجنبية في العملية التعليمية التعلمية في التعليم العام بالوطن العربي كان لابد من رسم بعض الصوى للنهوض بهذا الواقع، ومن هذه الصوى:

١- وضع سياسة لغوية وتخطيط لغوي في ضوءها للتمكين للغة العربية:

إن الحرص على أن يتقن أبناء العربية لغتهم الأم (العربية الفصحى) واجب مقدس، فينبغي للجهود أن تبذل للتمكين للغة العربية في التعليم العام على أنه الأساس في تزويد الناشئة بالكفايات اللغوية، وعلى أن يتناول التمكين جميع

جوانب العملية التعليمية التعلمية مناهج واستعمالاً سليماً على أسننة المعلمين والمتعلمين، وطرائق وأساليب وتقانات حديثة، ومناشط وفعاليات صافية ولا صافية، ومساجلات ومناظرات ومسابقات على جميع الصعد... إلخ. ومن البدهي أن وضع سياسة لغوية قومية على الصعيد العربي ووضع خطة في ضوءها يساعد أيما مساعدة على عملية التمكين، على أن تكون ثمة متابعة حثيثة لتنفيذ بنود هذه الخطة على الصعيدين القومي والوطني.

٢- وضع سياسة لغوية وتخطيط لغوي للغات الأجنبية:

إن تعلم اللغات الأجنبية أمر لازم على أن تبقى اللغة الأم المكانة الجديرة بها في العملية التعليمية التعلمية، وأن يكون ثمة تركيز عليها من حيث الاهتمام والعناية والإتقان وتعليمها بالأساليب الجذابة والشائقة تمكيناً لها في نفوس أبناء الأمة وعقولهم ووجداناتهم. وفي الوقت نفسه لما كان عصرنا الحالي، عصر العلم والتقانة (التكنولوجيا)، وعصر الانتشار الثقافي والانفتاح على حضارات الأمم والشعوب كان لابد من وضع سياسة لغوية وتخطيط لغوي تجاه تعليم اللغات الأجنبية من حيث تحديد صف البدء بتعليمها، وعدد ساعاتها.

٣- إتاحة الفرصة لاختيار اللغة الأجنبية المتعلمة:

لابد من أن يكون ثمة تخير للغات الأجنبية الحية التي يتعلمها أبناء الأمة في ضوء رؤية استراتيجية مستقبلية، وإذا كانت اللغة الإنجليزية هي اللغة العالمية في المرتبة الأولى من حيث انتشارها على الصعيد العالمي فإن ثمة لغات أخرى يترتب

على أبناء العربية تعلمها في ضوء العلاقات التي تربط الأمة العربية بأصحابها مادام الوطن العربي يتوزع بين قارتي آسيا وإفريقيا.

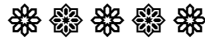
واختيار اللغة الأجنبية دون فرضها فرضاً على التلاميذ كما يحدث الآن على الصعيد العربي حيث تسود الإنجليزية في دول الخليج العربي والفرنسية في دول المغرب العربي، أمر تربوي سليم من حيث ترك الحرية لعملية الاختيار، والسؤال الذي يمثل أمامنا: لم لا نعلم اللغة الصينية في مدارسنا أو اليابانية علماً بأن الصينية أصبحت ثاني دولة في العالم من حيث الأهمية الاقتصادية بعد أمريكا؟ لم لا نبين لأبنائنا أهمية تعلم اللغة الأجنبية ثقافياً واقتصادياً وسياسياً؟ ونوضح لهم المزايا النسبية التي يحصلون عليها عند إتقان اللغة وفرص العمل المحتملة مثل الترجمة والعمل في شركات عربية صناعية تتعامل مع أصحاب تلك اللغة الأجنبية المكتسبة الذين يحتاجون إلى مختصين في لغتها واقتصادها وحضارتها؟

كم من منافع سياسية واقتصادية يجنيها الوطن العربي لو تعلم ١٠٪ من أبنائه فقط اللغة الصينية و ١٠٪ اللغة الهندية و ١٠٪ اللغة الروسية و ١٠٪ اللغة اليابانية؟ تساؤل ورد على لسان الاقتصادي الدكتور نزار العبد الله.

ويسأل أيضاً: لم لم نعد العدة لتأهيل المعلمين في ضوء خطة تبدأ بلغات الدول الإسلامية كالماليزية والإندونيسية والإيرانية والأوردية علماً بأن الحرف العربي ما يزال مستعملاً في عدد من لغات تلك الدول؟ ولم لا نبدأ بتعلم بعض اللغات الإفريقية للدول المجاورة للوطن العربي مثل النيجر ومالي وتشاد والسنغال؟.

مراجعات البحوث

- أبو خلدون ساطع الحصري - تقارير واقتراحات للإصلاح.
- أبو خلدون ساطع الحصري - آراء وأحاديث في العلم والأخلاق والثقافة.
- الدكتور طه حسين - مستقبل الثقافة في مصر - مطبعة المعارف ومكبتها - القاهرة ١٩٦٨.
- الدكتور محمود السيد وآخرون - الخطة العامة لتعريب التعليم - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - تونس ٢٠١١.
- الدكتور محمود السيد - الكفايات اللغوية لطلاب ما قبل التعليم الجامعي - مجلة التعريب - العدد الثالث والأربعون - كانون الأول ديسمبر ٢٠١٢.
- مؤسسة الفكر العربي - استطلاع رأي طلاب ما قبل التعليم الجامعي - بيروت ٢٠١١.
- UNESCO (1963) Foreign Language in primary Education.



المكتبة العربية الإلكترونية الجامعة
عصر التدوين الثاني

د. ممدوح محمد خسارة(*)

مدخل:

لاشك في أن تدوين اللغة العربية كان أعظم إنجاز حضاري ثقافي في تاريخ اللغة العربية.

بدأ هذا التدوين في العصر الإسلامي الأول، وأهم فعالياته:

١ - كتابة القرآن الكريم التي مرت بمراحل ثلاث هي:

أ- كتابة الوحي في عهد النبي ﷺ في الرقاع واللخاف والعُسب، على يد كتّاب الوحي الذين ذكرتهم كتب السيرة.

ب- جمع القرآن الكريم من الرقاع واللخاف والعسب ونحوها في عهد الخليفة الأول أبي بكر، في مكان واحد، وإيداع المجموع بعد وفاته عند عمر بن الخطاب الخليفة الثاني، ثم عند ابنته حفصة.

ج- استنساخ ست نُسخ من القرآن المجموع، في عهد الخليفة الثالث عثمان ابن عفان. وتفريق هذه النسخ في الأمصار لتكون مرجعاً وحيداً مكتوباً، عدا أنه كان محفوظاً في صدور العديد من الصحابة والقراء.

وقد اكتمل هذا العمل التدويني العظيم في حدود سنة (٣٠) هـ.^(١)

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

تدوين الحديث النبوي الشريف: وقد بدأ في حياة النبي ﷺ، بعد أن أذن به عقب نهي عنه.

ويروى أن سعد بن عباد (١٥) هـ كان جمع صحيفة فيها طائفة من أحاديث الرسول. وكذا كان عند سمرة بن جندب (٦٠) هـ. ومثلها ما سُمِّي بالصحيفة الصادقة التي تُنسب لعبد الله بن عمرو بن العاص (٦٥) هـ.^(٢) ولكن أوضح مظهر للتدوين في عصر الرسول ﷺ كان ما يُعرف بـ «صحيفة المدينة» التي تنظم العلاقة بين المسلمين وغيرهم من سكانها، وقد كتبت في السنة الأولى للهجرة^(٣). وكذا رسائل الرسول ﷺ إلى القبائل والملوك. أي لم يتتصف القرن الهجري الأول حتى كان معظم الحديث الشريف قد دُوِّن، وكان ذلك أهم عامل في حفظه.

٢- تدوين كلام العرب، شعره ونثره:

لما كان القرآن الكريم عربيًّا اللسان، كان فهمه وتفسيره يحتاج إلى معرفة كلام العرب. ومما روي عن ابن عباس قوله: «إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب».^(٤) وأدَّى بهم هذا إلى تتبُّع كلام العرب لجمعه وحفظه مكتوباً، أسوة بجمعهم القرآن الكريم والحديث الشريف وحفظهما، وطالما سارت علوم العربية على أثر علوم الدين.

(١) د. صبحي الصالح - مباحث في علوم القرآن: ٦٥-٨٩. والموسوعة العربية ١٧: ٧٨.

(٢) د. صبحي الصالح - علوم الحديث ومصطلحه: ٢٨ و ٢٣٢.

(٣) د. صبحي الصالح - علوم الحديث ومصطلحه: ٢٩.

(٤) مجالس ثعلب ١: ٦٦.

وبما أن الأمية كانت شائعة في العرب، فقد كانت الأمة تعتمد في توثيق معارفها وأدبها على حفظه في الصدور كثيراً، وعلى الكتابة قليلاً. ولذا كان ما حفظ من الشعر في الصدور أكثر بكثير مما حُفظ من النثر، لسهولة حفظ الأول وصعوبة الثاني، ويروى عن ابن رشيقي القيرواني قوله:

«لم يحفظ من جيد المنثور إلا عشرة، وما ضاع من الموزون إلا عشرة».^(٥)

وقد حدّد اللغويون الجامعون الإطار المكاني لمن تؤخذ عنهم اللغة من قبائل بعينها، وهي القبائل الأقل اختلاطاً بالأعاجم من غيرها، مما يرجح سلامة لغتها. كما حددوا الإطار الزمني بمنتصف القرن الهجري الثاني في الحواضر، ونهاية القرن الهجري الرابع في البوادي للسبب نفسه، وفق ما ذهب إليه مجمع اللغة العربية بالقاهرة في قراره.^(٦) وإن كانت هذه الحدود لم تراعى دائماً بدقة.

كثرت الرحلة إلى البوادي لسماع لغة الأعراب الأقحاح ونقلها كما سُمعت، قال الكسائي للخليل بن أحمد الفراهيدي (١٨٠هـ): «من أين علمك؟ فقال من بوادي الحجاز ونجد وتامة.. فخرج وأنفذ خمس عشرة قينة حبراً في الكتابة عن العرب سوى ما حفظه»^(٧). وقال الجوهري في مقدمته لمعجم صحاح اللغة: «وقد أودعت هذا الكتاب ما صح عندي من هذه اللغة بعد تحصيلها بالعراق رواية وإتقانها دراية، ومشافهتي بها العرب العاربة في ديارهم بالبادية».^(٨)

(٥) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ١: ١.

(٦) د. محمد حسن عبد العزيز - مصادر البحث اللغوي: ٢٨.

(٧) نزهة الألباء في طبقات الأدباء: ٦٩.

(٨) الجوهري - الصحاح ١: ٧٩.

مررت كتابة كلام العرب وتدوينه بثلاث مراحل، أو بثلاث حالات، لأن المراحل تداخلت عند بعض اللغويين:

- المرحلة الأولى: جمع الكلم كيفما اتفق، فالعالم يخرج إلى البادية لسمع كلام العرب وأخبارهم وأمثالهم وصفة بيئتهم من مطر وزرع وحيوان وسلاح وغيرها، فيدونه حسبما سمع دون ترتيب المسموع أو تصنيفه وفق منهج ما، وما غرضه إلا جمع اللغة الذي كان غاية في ذاته.

- المرحلة الثانية: تصنيف الكلمات المتعلقة بموضوع واحد في موضع واحد، كأن يكتب (أبو زيد) كتاباً في المطر وكتاباً في اللبن، وأن يكتب غيره كُتُباً أو رسائل في الخيل والحشرات والسلاح، ويكتب آخر في الأمثال، وكانت هذه المرحلة في القرن الهجري الثاني عامة، وتلك المؤلفات التدوينية الأولى هي ما سماه اللغويون فيما بعد (معاجم المعاني أو الرسائل اللغوية).

- المرحلة الثالثة: وهي جمع كل الكلم العربي وفي أي موضوع كان، على نمط خاص يُرجع إليه، وتصنيفها فيما سُمِّي في وقت متأخر (بالمعاجم)، وقد صنفت بحسب مخارج أحرف الكلمة أو ألفبائها، كما في كتاب (العين) للخليل بن أحمد (١٨٠هـ)، وجمهرة اللغة لابن دريد (٢٢٣هـ)، وكان ذلك في نهاية القرن الهجري الثاني والقرن الثالث، بل إن الجوهري في القرن الخامس (٤٢٩هـ) رحل إلى البادية وشافه الأعراب وأخذ عنهم. وعلى أي حال ففي نهاية القرن الهجري الرابع كانت جهود جمع اللغة وتدوينها قد اكتملت.

ومجموع أعمال كتابة التراث العربي والإسلامي من مصادره أو مظانّه، منذ العصر الإسلامي الأول إلى نهاية القرن الهجري الثالث هي ما نسميه عصر

التدوين الأول. وكان هذا التدوين أعظم إنجاز وأخطره، وهو نقطة الانطلاق وحجر الأساس لما جاء بعده وبنيت عليه حركة التأليف، ولاسيما في علوم اللغة من نحوٍ وصرفٍ وأدبٍ، وعلومٍ شرعيةٍ، وعلومٍ أساسيةٍ كالرياضيات والطب، إذ لولا توافر تلك المادة اللغوية الغزيرة لما أمكن تأليف ما أُلّف وتصنيف ما صُنّف، لأن اللغة هي أداة التوصيل والتعبير عن الفكر والإبداع.

وهذا التدوين هو الذي حفظ اللغة العربية الفصيحة الجامعة للعرب كلهم، من أن تضيع في خضم اللهجات القبليّة أو اللّحن أو اللغات الأعجمية المجاورة. ولعلّ التهديّي إلى حفظ اللغة بالتدوين كان هدياً من الله لإنجاز وعده الصادق بحفظ الذكر الحكيم، فإن الله إذا أراد أمراً هياً له أسبابه. وبعد عصر التدوين الأول لم يُعد يُخاف على العربية من الضياع، وها هي ذي قد وصلت إلينا حيّة سليمة.

وإذا كان حفظ اللغة قديماً وحماتها قد تمّ بكتابتها وتدوينها على العُصب والعظام وأمثالها، ثم تطوّر لاحقاً إلى كتابتها في الكواغد والقراطيس والأوراق، بالخطّ أو لاً ثم بالطباعة الآلية في العصر الحالي، فإن حفظ اللغة للمستقبل يتطلب تدويناً آخر جديداً هو التدوين الإلكتروني الرقمي الذي بدأ يزحم بقوة وبشدة التدوين الورقي ويكاد يزيحه عن مكانته التي سادت قروناً. فإذا أراد العرب أن يحفظوا لغتهم في هذا العصر، فعليهم أن يحفظوها بوسائل عصرهم الحاضر، كما حفظها أجدادهم بوسائل عصرهم آنذاك.

هذا التدوين الرقمي بوسائل المعلوماتية المعاصرة من حواسيب وأقراص مدجة وذواكر وشابكة، هو ما نُطلق عليه عصر التدوين الثاني. والأداة العلمية التقانية المعاصرة لهذا التدوين المرتجى هي المكتبة العربية الإلكترونية الجامعة. ولعلّ

هذا ما عناه الدكتور عدنان عيدان بقوله: «وبدخول العالم عصر التقنيات الحديثة والسرعات الفائقة في الاتصالات والطباعة والنشر والإنترنت والفضائيات، توفرت فُرصٌ نادرة لمحاكاة عصر الخليل بن أحمد الفراهيدي، وجمع أكبر كمٍّ من كلام العرب المكتوب والمنثور والمصوّر والمسموع، بهدف ترتيبه وتصنيفه بطرق علمية عصرية تسهّل دراسة اللغة العربية، وتعمل على النهوض بها نهوضاً كبيراً. وتتوفّر فرصة كبيرة أمام اللغويين والنحويين بوجود مدوّنة اللغة العربية، لوضع دراسات وبحوث تسهم في ترقية العربية نحواً وصرفاً ودلالة ومعجماً، وتعليماً للناطقين بها ولغيرهم».^(٩)

أولاً: المكتبات العربية الإلكترونية الراهنة:

المكتبة الإلكترونية هي المكتبة التي تُوفّر فيها الكُتب والنصوص والوثائق بشكل رقمي، سواء أكانت مخزّنة على أقراص مدججة أو ذواكر أو محمّلة على موقع إلكتروني خاص بها على الشبكة (الإنترنت).^(١٠)

وثمة مكتبات إلكترونية عربية الآن، بعضها باسم مكتبة، وآخر باسم موقع، وثالث باسم برنامج، ورابع باسم موسوعة. ولكنها كلها في المحصلة مكتبات رقمية كبيرة أو صغيرة.

وقد أدّت هذه المكتبات أو المواقع دوراً حسناً في خدمة الباحثين العرب

(٩) د. عدنان عيدان - مدونة اللغة العربية: ١٣، من أبحاث المؤتمر الخامس لمجمع اللغة العربية بدمشق (٢٠٠٦).

(١٠) د. محمد حسان الطيان - المكتبة الإلكترونية: ٣، من أبحاث المؤتمر الخامس لمجمع اللغة العربية (٢٠٠٦).

كالمكتبة الشاملة، وموقع المشكاة الإسلامية، وموقع الوراق، وموقع يعسوب، وبرنامج المحدث، وبرنامج الجامع الكبير للتراث، وموسوعة الشعر العربي، والموسوعة الشعرية، وأمثالها مما أعتذر عن ذكرها لجهالتي بها كلها. وتستحق تلك المكتبات والمواقع والموسوعات شكراً وثناءً على ما قدّمته وتقدّمه للقارئ العربي من :

١- توفير كمّ كبير من البيانات والمعلومات في مكان واحد، فقرص مُدمج واحد يغني عن حمل الثلاثين جملاً التي كان ينقل عليها الصاحب بن عباد كتبه كلما ارتحل من مكان إلى آخر.^(١١)

٢- اختصار الوقت والجهد، إذ يكفي أن تُدخل عبارة أو كلمة في حيز البحث، حتى تعطيك المكتبة في دقائق معلوماتٍ، قد تتطلب منك شهوراً في البحث والتقصي في المكتبات الورقية. وما زلت أذكر كيف أن التهديّ إلى مظان بيت من الشواهد الشعرية أو الأقوال المأثورة كان يستغرق منا الليالي ذوات العدد، أما مع المكتبات الإلكترونية فالأمر من السهولة بمكان.

٣- إتاحة النشر وإمكانه، حيث إن تكاليف النشر تصعد بسرعة تجعل من النشر مشكلة مالية حقيقية، لا الكاتب قادر على توفيره ولا دور النشر مستعدة لتحمل تكاليف طباعة كتاب قد لا يكون مربحاً، ولا سيما إذا كان ذا طبيعة تخصصية. ويروي كثير من الباحثين، بفيض من الأسى، تجربتهم وهم ينتقلون من دار نشر إلى أخرى، يعرضون بضاعة على من لا يرغب فيها، وخاصة إذا كان المؤلف من غير المشهورين. فأصبح الآن بالإمكان نشر كتاب رقمياً في قرص أو موقع يُسر.

(١١) عبد الله بن أسعد اليافعي - مرآة الجنان ٢: ٣٥٩.

٤ - زيادة المحتوى الرقمي على الشبكة، وهو ما سوف تتوسع فيه لاحقاً. ولكن هذا لا يمنع من ذكر السلبيات التي نجدها في بعض هذه المكتبات أو في معظمها. لا يعني كلامنا الإضرار بتلك المكتبات والمواقع الموسوعات أو الخط من قيمتها أبداً، بل هي تستحق التقدير والاحترام، وعلى الأقل لريادتها في هذا الباب، ولأن كل الإنجازات أو الإبداعات، لا بدّ وأن تمر بمراحل تطوّر حتى تصل إلى النماذج المرضية تماماً. فبارك الله جهود القائمين عليها، وجزاهم عن ثقافتنا ولغتنا خير الجزاء. ومن أبرز هذه السلبيات:

١ - إن معظم هذه المكتبات الإلكترونية مأجورة، وغالباً ما تكون التكلفة أكبر من قدرة الباحث أو الطالب، ولا سيما بعد أن ضمنت القوانين المحلية والدولية حقوق الملكية الفكرية، كما أن كثيراً منها لا يمكن النفاذ إليه بطريقة مشروعة، وما هو مبذول في الأسواق قد لا يكون قانونياً. ونحن بالطبع لا نغمت الحق المادي للمؤسسات الثقافية والعلمية المنتجة لهذه المكتبات التي تكلف الجهد الكبير والمال الوفير. ولكننا ندفع عن حق طالب العلم بالوصول إليه بأيسر السبل، ونحن وإن كنا مع قيم ثقافتنا التي لا تجيز كتم العلم عن طلابيه وتتوعد كاتميه، إلا أن حق التعويض على الجهد هو مما تضمنه أيضاً ثقافتنا. والحل هنا، هو أن تتكفل الأمة بتقديم هذه الخدمة لأبنائها الراغبين بلا مقابل، أسوةً بالتعليم المجاني أو الطباية.

٢ - إن كثيراً من محتويات هذه المكتبات القائمة ليست محققة تحقيقاً علمياً، ويكثر فيها التصحيف والتغيير، مما لا يجعل التوثيق منها مقبولاً غالباً. والأهم أن كثيراً منها غير مضبوط بالشكل، ولا سيما المعاجم المعوّلة عليها أساساً في ضبط بنية

الكلمة عند الاختلاف أو الحاجة إلى التدقيق، فالمعجم غير المضبوط بالشكل يفقد صفته المرجعية.

وبالطبع، فأنا لا أريد توثيق سلبيات تلك المكتبات بالاسم والصفحة، إذ ليس هذا غرض البحث.

٣- ثمة عيوب في التنضيد أو في المطبوع المنقول منه، كالانقطاع بين الصفحات والتقطع في فقرات الفصل. وهذا ما جعل كثيراً من الدوريات العلمية المحكّمة لا تعتمد التوثيق من المكتبات الرقمية أو المواقع الإلكترونية.

٤- معظم محتويات هذه المكتبات لا تتوافق مع المطبوع من حيث ترقيم الصفحات والفصول، مما يُصعب العودة إلى النسخة الورقية للتأكد والتوثيق. وقد تُعذر المكتبات الإلكترونية في هذا، لأنه غالباً ما يكون للكتاب أكثر من طبعة، فهي قد تتوافق وطبعة ما دون غيرها، ويندر أن يكون عند الباحث أكثر من طبعة إن هو أراد التوثيق. وينطبق هذا على الموسوعات الشعرية التي تعيد إلى رقم البيت من مجموع أبيات الشاعر، وهذا ما لا يُقبل في البحوث العلمية المحكّمة.

٥- لكل مكتبة إلكترونية أو برنامج أو موسوعة طريقة في التخزين وفي استرجاع المعلومات والبحث عنها تختلف عن الأخرى، مما يجعل الباحث بحاجة إلى معرفة طريقة كل مكتبة أو موقع، وإذا انقطع عن التعامل معها واستخدام طريقته، فسوف ينسى آلية الاستفادة منها، وسيكون الباحث بحاجة إلى وقت إضافي لاستدكار طريقته.

٦- كثير من المكتبات والمواقع لا تتيح النسخ أو الطبع منها، وهذا يكلف الباحث وقتاً وجهداً للنسخ والتوثيق يدوياً.

٧- الطبيعة غير الموضوعية وغير العلمية لمعظم أو لكل المكتبات الإلكترونية، فكلُّ جهةٍ تموّل مكتبة إلكترونية أو تشرف عليها، لها أهداف وغايات خاصّة بها، ولذا فهي لا تفسح المجال أمام الكتب التي لا تتفق وفلسفتها أو معتقدها أو مذهبها. فبعض المكتبات منحازة إلى التراث انحيازاً كبيراً، فلا تُحمّل الكتب المعاصرة حتى ولو كانت لأدباء كبار أمثال مصطفى صادق الرافعي وطه حسين وميخائيل نعيمة. وبعضها الآخر منحاز حتى في التراث إلى مذهب ديني معيّن، فلا يُحمّل ما يختلف معه ولو في الفرعيات. وبعضها الآخر منحازٌ إلى الحداثة انحيازاً طاعياً، فهو لا يحمّل إلا ما هو معاصر، ولو كان معادياً لثوابت الأمة. وبعضها يحمّل الشعر القديم، ولا يعترف بالشعر الحديث، حتى إن موسوعة شعرية تضم ملايين الأبيات لم تورد بيتاً واحداً، لا في دواوينها، ولا في كتبها المرجعية للشاعر نزار قباني أو عبد الله البردوني أو بدر شاكر السياب. ومعظمها لا يحمّل كتب العلوم الأساسية والبحثية، بل تُقصر محتوياتها على كتب الدعوة أو ما يخدمها من كتب اللغة والمعاجم.

وفي حين تغلب الاتجاهات السلفية على تلك المكتبات، والدافع إلى ذلك هو الرغبة في الثواب المباشر بنشرها، وليس الثواب غير المباشر المتمثل بنشر العلم مجرداً، فثمة إلى جانبها مكتبات ذات اتجاهات حداثة تسفّه كل ما هو دعوي أيّاً كانت قيمته العلمية والثقافية.

٨- معظم محتويات المكتبات الإلكترونية مكرّرة، فما نجده في الواحدة يتكرّر في الأخرى. ومعظم هذه المكتبات مضلّلة في التعريف بنفسها، كأن تذكر أنها تضم عشرين أو ثلاثين ألف كتاب، ولكن عند التفحص نجد أن كثيراً من الكتب متعدّدة النسخ، ولا سيما أمهات الكتب، وقد قرأت عن برنامج مكتبة رقميّة عرفته بأنه

يحتوي بضعة عشر ألف كتاب مضبوطة ومحققة، وأن منها ما لم يسبق نشره، وقد أفتت المؤسسة التي أعمل فيها قرصه المدمج بسعر ليس بالقليل، ولكن تبين لنا بعد أن وضعناه في الاستعمال أن ما عرّف به ذلك البرنامج لم يكن صحيحاً، وكان فيه كثير من التضليل.

٩- ثمة مكتبات إلكترونية تسمح بتحميل كتب على موقعها من مستخدمي خارج المؤسسة، وكأنها ليست مسؤولة عنها، وهذا ما فتح الباب أمام إضافة الغث والسمين طلباً للشهرة، مع أن مضمونات تلك الكتب قد لا تؤهلها لتكون مرجعاً في مكتبات جادة، بل قد تتعارض مع قرارات علمية اعتمدها مرجعيات لغوية عليا. وبعض المكتبات تحمّل مجالات ثقافية عامة أو مغمورة، بما يكثر محتوياتها دون قيمة تذكر.

١٠- الصبغة التجارية هي الغالبة على نشاطات المؤسسات العاملة في ميدان المكتبات الإلكترونية، وهذه الصبغة جعلتها لا تعطي الأولوية للقيمة العلمية، بل تعطيها المتطلبات السوق. والغالب على هذه المتطلبات في الوقت الراهن - وبالتساوق مع قواعد الرقابة الفكرية الجائرة- هو المؤلفات التي تخضع لسلطة الماضي التراثية على ما كانت، وسلطة الحاضر القمعية.

نعم ثمة مواقع علمية وجادة، والدخول إليها مجاني، كمواقع المؤسسات العلمية من جامعات ومراكز بحوث ومجامع، ولكن مخزون تلك المواقع محدود لا يزيد على عشرات الكتب أو المئين في أحسن الأحوال، عدا أن بعض المؤسسات لا تنشر كتبها على مواقعها إلا بعد مدة طويلة من إصدارها، لكي لا يؤثر ذلك على مبيعات النسخ الورقية التي تعوض تكاليف الطباعة.

وإذا كان بعض ما عددناه سلبيات، هو من حق الجهات أو الهيئات الممولة والمنشئة، فإن ذلك خطأ من منظور علمي موضوعي، وإذا كان من حق أصحاب المكتبات ألا تفتح صفحاتها لكل اتجاه إن كان يخالفها، فإن واجب الثقافة العربية أن تكون حاضنة لكل إنتاج الأمة.

ثانياً: مشروع المكتبة العربية الإلكترونية الجامعة:

(١) مسوغاتها وأهدافها:

ليس غرضنا من اقتراح هذه المكتبة الإلكترونية العربية الجامعة هو تلافي ما في المكتبات والمواقع الإلكترونية العربية القائمة من سلبيات فحسب، بل هو أكبر من ذلك بكثير. وأهم أغراض هذه المكتبة أو مسوغات إنشائها هي:

١ - جمع أضخم مدونة لغوية عربية منذ بداية الكتابة العربية والتأليف فيها

إلى اليوم.

والمدونة (corpus)، هي «كتلة من نصوص مكتوبة أو منطوقة، تمثل نماذج من اللغة، وتكون عادة مُحزَّنة في قاعدة بيانات». أو هي «مجموعة من النصوص تمثل اللغة في عصر من عصورها أو في جميع عصورها»^(١٢). أو هي مجموعة المصادر والمراجع والكتب التي يُعتمد على مفرداتها وتراكيبها في وضع معجم من المعاجم، فهذا معجم مدونته خمس مئة كتاب وذاك ألفا كتاب مثلاً.

وهذه التعريفات كلها تنطبق على ما نسّميه (المكتبة العربية الإلكترونية الجامعة). وما ندعو إليه هو ما كان أشار إليه د. عدنان عيدان بقوله: «وبدخول

(١٢) د. عدنان عيدان - مدونة اللغة العربية: ١٣ - من أبحاث المؤتمر الخامس لمجمع اللغة العربية بدمشق

العالم عصر التقنيات الحديثة والسرعات الفائقة في الاتصالات والطباعة والنشر والإنترنت والفضائيات - توفرت فُرصٌ نادرة لمحاكاة عصر الخليل بن أحمد الفراهيدي، وجمع أكبر كمٍّ من كلام العرب المكتوب والمنشور والمسموع، بهدف ترتيبه وتصنيفه بطرق علمية عصرية تسهّل دراسة اللغة العربية»^(١٣).

وهذه المدونة اللغوية الضخمة سوف تكون مرجعاً علمياً واسعاً ودقيقاً إلى حدٍّ بعيد، لكلِّ باحث في منظومة اللغة العربية بغية تطويرها، أو باحث في المصطلحات العلمية ووضعها، أو باحث في المعجمية لتحديثها. فإذا كانت مدوّنة أكبر معجم تراثي أعني (تاج العروس) هي نحو (٥٠٠) كتاب، فإن مدونة المعجم العربي اللغوي الحديث سوف تكون آلاف الكتب والرسائل والنصوص، ومن مختلف العصور. إن المكتبة الإلكترونية الجامعة سوف تختصر جهود البحث إلى درجة ما كنا نحلم بها قبل عشر سنين. فعندما نضع في البحث كلمة (رقم) مثلاً، سوف نحصل على مئات النصوص التي وردت فيها هذه الكلمة على مدى (١٥٠٠) عام، ومنذ أول نصّ وردت فيه. ومن هذه النصوص نستقرئ مختلف دلالاتها. وباختصار، فسوف تكون المكتبة الإلكترونية العربية أضخم قاعدة بيانات ومعطيات للثقافة العربية بمختلف عصورها ومختلف مكوناتها الأدبية والعلمية والفكرية.

٢- هي مصدر أساسي لتاريخ اللغة وبحوثها وتطورها:

أ- فعن طريقها يسهل وضع المعجم التاريخي للغة العربية، هذا المشروع الذي عزم اتحاد المجامع اللغوية العربية على النهوض به، والذي يلقي صعوبات علمية

(١٣) المصدر السابق نفسه.

مردّها - غالباً - إلى غياب مدوّنّة لغوية واسعة شاملة يُرَكَن إليها، مما يضطر القائمين على المشروع إلى الضرب في بطون المؤلفات العربية، على تفاوت عصورها وتشعّب علومها وتشتت مواقعها، لاعتماد مدوّنّة صالحة له. ولا شكّ في أن مما يخفف من جهودهم المضنية وجود مكتبة عربية إلكترونية هي أكبر من أي مدوّنّة يمكن أن يتهدّى إليها العاملون في هذا المشروع، على علوّ كعبهم في العمل المعجمي.

ب- وبواسطتها يمكن تسهيل وضع معجم للحقول الدلالية في اللغة العربية، وهو معجم طال الحديث فيه، وجوهر العمل فيه تتبّع الدلالات المتعددة للكلمة أو العبارة من خلال السياقات التي وردت فيها، وهي كثيرة، ومن الصعب تقصيها ولا سيما تزمّناً، إلا أن وجود مدوّنّة أدبية علمية واسعة، كما هي في المكتبة العربية الإلكترونية الجامعة، يقدّم عوناً يجعل مثل هذا المعجم الدلالي في إطار الممكن والأقل صعوبة وعسراً.

ج- وبمساعدها يمكن وضع عدد كبير من معاجم الموضوعات أو المعاني في العربية التراثية، كمعجم للألوان وآخر للأصوات وثالث للمشاعر مثلاً، تكون مصادر يعتمد عليها في وضع المعاجم المتخصصة الحديثة في علوم شتى.

د- وهي خير مُعين للدراسات والبحوث الرامية إلى تطوير العربية ألفاظاً وأساليب، وإلى تبسيط قواعدها وتيسير تعليمها، إذ إن معظم خلافات اللغويين في التخطئة والتصويب مردّه إلى أن بعضهم اطّلع على ما لم يطلّع عليه بعض، فيؤدي الاستقراء الناقص إلى إفراط المتشدّدين أو تفريط الميسرين. إن مدوّنّة لغوية واسعة ستكون وسيطاً موضوعياً بينهم.

هـ- وستسهم في تطوير الترجمة الآلية وتيسيرها، ذلك أن معاجم لغوية

موسوعية ومتنوعة تشتمل على عددٍ وافرٍ جداً من التراكمات والسيقات والاستعمالات الحقيقية والمجازية، سوف تجعل إيجاد المكافئ العربي لمقابلاتها الأجنبية أقلَّ صعوبة.

٣- زيادة المحتوى الرقمي العربي على الشبكة (الإنترنت) وإغناؤه:

كثيراً ما نقرأ عن ضعف المحتوى الرقمي العربي على الشبكة، سواء أكان ذلك في الكمِّ أو الكيف. فمما يوصف به المحتوى الرقمي العربي أن نسبته تراوح بين (١.٥٪) في تقديرات و(٣٪) في تقديرات أخرى^(١٤)، كما يوصف بأن مضمونه العلمي ضعيف وسطحي، إلا أن مشروع المكتبة العربية الإلكترونية الجامعة إذا قدر له الإنجاز سوف يرفع هذه النسبة إلى نحو (٥٪)، وهي نسبة تتوافق ونسبة العرب إلى سكان العالم. وليس المحتوى الكمي هو الذي سيزداد، بل والمحتوى العلمي النوعي. لأن المكتبة العتيدة سوف تُخزّن كل الإنتاج العلمي للجامعات العربية ومراكز الدراسات والبحوث والاتحادات العلمية، مما يُعني ذلك المحتوى العلمي، ليغدو مصدراً للبحث والدراسة ومرجعاً يعتمد عليه. وهذا ما سيجعل المحتوى العربي مطلوباً لدى الدارسين العرب، سواء منهم من تلقى علومه بالعربية، أو باللغات الأجنبية، لأنه سيفهم المعلومة بلغته أكثر مما يفهمها بلغة غيره. وسيكون هذا بدوره دافعاً لتعريب العلوم والتعليم، فظالما شكاً طلاب وباحثون من عدم توفر المرجع العلمي العربي.

٤- الجمع بين المشروعات العربية المناظرة وتكامل جهودها واختصارها:

ثمة مشاريع عربية طموحة وهي في بداياتها، وترمي إلى أغراض مطابقة أو

(١٤) المؤتمر الدولي العربي الأول للمحتوى الرقمي العربي ١٣/٦/٢٠٠٩ - دمشق.

مشابهة لأغراض المكتبة الإلكترونية الجامعة، وهي - في حدود علمنا - مؤسسة الذخيرة اللغوية، ومشروع الملك عبد الله بن عبد العزيز للمحتوى الرقمي العربي، ومدونة اللغة العربية للدكتور عدنان عيدان.

أ - مؤسسة الذخيرة اللغوية العربية: اقترح مشروع الذخيرة اللغوية العربية منذ اثنين وعشرين عاماً، وكان رائده الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح رئيس مجمع اللغة العربية الجزائري. ولم يتقدم المشروع - على أهميته وهمة صاحبه - إلا خطوات قليلة جداً، وكان آخر ما اتفق عليه أن أحيل المشروع على الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، ليكون مشروعاً عربياً تسهم في إنجازه وتمويله الدول العربية، كل بحسب نصيبها في اشتراكات الجامعة العربية، وصار اسمه (مؤسسة الذخيرة العربية) ومقرها الجزائر. وتقوم كالمكتبة الإلكترونية المقترحة، على تخزين وتحميل أكبر عدد ممكن من الكتب والدوريات والوثائق على الأقراص المدمجة والحواسيب، ثم على موقع الذخيرة اللغوية على الشبكة، بإشراف رئاسة الذخيرة وإدارتها. وقد شكلت لهذا الغرض لجان وطنية في كثير من البلاد العربية للقيام بالعمل في حدود اختصاصها. وهو إنجاز حسن، ولكن الواقع أن العمل العربي الجماعي يسير عادة ببطء، فحتى الآن لم يُخزّن سوى نحو (٧٠٠) كتاب معظمها نسخ إلكترونية في أقراص مدمجة^(١٥). وثمة خوفٌ من أن يُعلّق العمل فيها، أو تهمل فيكون مصيرها كمصير مشروع (التعريب) الذي اتخذت فيه قرارات من جامعة الدول العربية ومؤتمرات وزراء عرب، ومؤتمر قمة إقليمية، ومع ذلك فهو ما زال يراوح مكانه.

(١٥) مشروع الذخيرة اللغوية أو الإنترنت العربي، ماهيتها وفوائدها وأبعادها - تقرير إنجاز المشروع.

ويمكن أن تتسَّق الجهود بين هذين المشروعين المتشابهين وأن توحد ما دام الغرض واحداً. بل ويمكن تسميتها (مكتبة الذخيرة العربية الإلكترونية).

ب - مبادرة الملك عبد الله بن عبد العزيز للمحتوى العربي الرقمي: تقوم هذه المبادرة على (بناء المدونة العربية والمكتبة الرقمية)، وهذان المشروعان هما الأساس الذي تقوم عليه المكتبة العربية الإلكترونية الجامعة^(١٦). ولا ندري ما وصلت إليه المبادرة.

ج - مدونة اللغة العربية (علم) للدكتور عدنان عيدان: وهي كما يقول صاحبها: «خزين هائل يضم أكبر كمية من الكلام العربي المكتوب قديماً وحديثاً، جُمع من مصادر مختلفة محايدة، وحفظ على جهاز الحاسوب على شكل مادة إلكترونية. ومن هنا، فإن مدونة اللغة العربية هي ملفٌ إلكتروني هائل يتجاوز حجمه مليار كلمة عربية حالياً. والعمل جارٍ للوصول في النهاية إلى (١٠) مليارات كلمة. وتشمل المدونة كافة فروع العلم والمعرفة الإنسانية (قدر الإمكان)، على مدى حقب تاريخية تتجاوز (١٥٠٠) سنة، وتهدف إلى وضع بنية تحتية حديثة للغة العربية تساهم في دفع عملية التقدم العلمي والتقني والاجتماعي من خلال الإبداع الفكري الذي أساسه اللغة»^(١٧). والواضح من هذا أن هذا المشروع القائم فعلاً هو مشروع المكتبة الإلكترونية العربية الجامعة، إن من حيث المضمون أو من حيث الغرض.

(١٦) ندوة مرصد اللغة العربية وآفاق التعريب - مجمع اللغة العربية بدمشق (كانون أول ٢٠٠٩).

(١٧) د. عدنان عيدان - مدونة اللغة العربية: ٢، من أبحاث المؤتمر الخامس لمجمع اللغة العربية بدمشق (٢٠٠٦).

ولا ريب في أن التنسيق بين هذه المشروعات المتماثلة في الأهداف والوسائل وصولاً إلى توحيد جهودها في مشروع واحد، قد يدفع بالمكتبة الإلكترونية الجامعة إلى الأمام قُدماً، وسواء أتم ذلك تحت هذا المُسمّى أو تحت مسمّى آخر، كالذخيرة اللغوية أو مدوّنة اللغة العربية.

٥- تحقيق ما يمكن أن نسميه (عَوْرَة) العلم أي نشره بلا حدود ولا قيود بين بلدان الوطن العربي. فكما نجحت (العولمة) في اختراق الحدود والدول، كذلك سينجح المحتوى الرقمي العربي على الشبكة في اجتياز حدود الدول العربية دون أن تعيقه إجراءات الموافقات الرسمية والأمنية والجمركية وتكاليف النقل والشحن، التي جعلت الكتاب العربي يحتاج من الزمن والجهد والمال لنقله - في عصر العولمة والفضائيات - من مصر إلى سورية، أكثر بكثير مما كان يحتاج إليه انتقاله بينهما في عصر الجمال والخيول. نعم إن الشبكة والاتصالات الحديثة نسفت الحدود الدولية الرسمية، ولكن مرادنا أن تنسف الكتب والدوريات العلمية العربية هذه الحدود. إن ما ينشر على الشبكة بالعربية تغلب عليه السطحية والتعريفات والدعاية والدعوة، وهذا كله ليس مما يغني المحتوى الرقمي العربي، ويجعل من بعضه مصدراً علمياً ذا بال.

(٢) - محتويات المكتبة العربية الإلكترونية الجامعة:

إن المطلوب من مكتبة جامعة فعّالة أن تضمّ الأنواع الآتية من الكتب:

١ - كتب التراث اللغوي العربي القديم (معاجم لغوية عامة، معاجم

موضوعات، معاجم بلدان، رسائل لغوية).

٢ - كتب التراث الأدبي القديم، وأمّهات كتب الأدب على مرّ العصور (البيان

والتبيين، الحيوان، الكامل، العقد الفريد، أدب الكاتب، الأمالي، الرسائل الأدبية والفلسفية...) وكتب النقد (كالعمدة والوساطة والموازنة..) وكتب التراث الديني (ككتب معاني القرآن وتفاسيره، وكتب الحديث النبوي من الصحاح والسنن..).

٣- كتب التراث العلمي القديم، مثل: المناظر لابن الهيثم والحاوي في الطب للرازي، والقانون في الطب لابن سينا، والشفاء في الرياضيات لابن سينا، والفلاحة النبوية لابن وحشية، وكتب الفلك العلمية وغيرها. ومثل هذه الكتب، وإن تجاوزتها حركة العلوم، إلا أن قيمتها التاريخية والمصطلحية مما لا غنى عنه.

٤- المؤلفات العربية الحديثة والمعاصرة: في العلوم الإنسانية (لغة، أدب، فلسفة، تاريخ، حقوق، تربية، شرعيات)، وفي العلوم الأساسية (رياضيات، فيزياء، كيمياء)، وفي العلوم التطبيقية (طب، هندسات، معلوماتية...)، وفي الفنون (رسم، نحت، تمثيل، موسيقا، رياضة..).

٥- الدوريات العربية المحكّمة في الآداب والعلوم.

٦- دواوين الشعر العربي القديم والمعاصر، بدءاً بالجاهليين وانتهاء بالمعاصرين، ومن المدارس الشعرية الفنية المختلفة ودون إقصاء، ولكن للناهين من المبدعين.

٧- إصدارات المؤسسات العلمية والثقافية في الوطن العربي وأهمها:

- إصدارات الجامعات العربية من الكتب المرجعية والمنهجية.

- إصدارات المؤسسات العلمية ومراكز البحوث في الوطن العربي كمراكز

الدراسات والبحوث ومدن العلوم والتقنية، وهيئات الطاقة الذرية والمراكز العلمية المتخصصة.

- إصدارات مجمع اللغة العربية.
 - إصدارات الاتحادات العلمية والمهنيّة كاتحاد الأطباء والمهندسين والمحامين والكتّاب، ونحوها.
 - إصدارات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بجامعة الدول العربية والمراكز التابعة لها كالمركز العربي للتعريب والترجمة والنشر بدمشق، والمركز العربي للوثائق والمطبوعات الطبيّة بالكويت.
 - الموسوعات العربية كالموسوعة العربية بدمشق، وموسوعة أعلام العرب والمسلمين...
 - إصدارات مؤسسات الترجمة والفكر في الوطن العربي.
 - إصدارات وزارات الثقافة في الوطن العربي والمجالس الوطنية الثقافية فيها.
 - إصدارات دور النشر العربية الكبرى.....
- وسوف يتحصل لنا - والحالة هذه - عشرات الألوف من الكتب والدوريات التي لن يُحشى ضياعها. ولا شكّ في أنّ سجلّات الإيداع في المكتبات الوطنية في الوطن العربي تُعدّ مصادر أساسية في هذا الموضوع.
- (٣) - الجهات المرشحة لمحتويات المكتبة الإلكترونيّة العربية الجامعة:
- النظرة في قوائم الإصدارات التي تتطلبها المكتبة الإلكترونيّة تؤدي إلى تقدير الجهات التي يناط بها ترشيح الكتب والدوريات التي ستضمّها، ولا يصحّ أن يترك الأمر على عواهنه وإلا فستفقد المكتبة جديّتها ومكانتها وسوف تطرد العملة الفاسدة العملة الصحيحة فيها.

ولذا يجب أن يكون لهذه المكتبة العتيدة مجلس أمناء، يضم خبراء في المكتبات والإدارة والمعلوماتية والعلوم والآداب، تخطط وتشرف على وحدات تنفيذية فنية، وتتصل بالجهات العلمية المرشحة، وأبرزها:

-الجامعات العربية- مجامع اللغة العربية- المؤسسات العلمية ومراكز الدراسات والبحوث- المنظمات العربية الرسمية ذات الصلة.

٤- شروط التخزين والتحميل:

ونعني هنا الشروط العلمية والتقانية التي يجب مراعاتها والأخذ بها، لتجنب الأخطاء والسلبيات التي أشرنا إليها فيما هو قائم من مكتبات إلكترونية خاصة، أو مواقع أو موسوعات. وأهم ما يجب مراعاته والتقيد به:

١- أن تكون الكتب المرشحة للتخزين مدققة لغويًا وطباعيًا، لأن هذه الكتب ستصبح مصدرًا موثوقًا، وأي خلل يقع في هذه الكتب سوف يقلل من مصداقية هذه المكتبة الرسمية الجامعة وقد يفقدها قيمتها المرجعية.

٢- أن تضبط المعاجم التي تحتويها بالشكل التام بنية وإعرابًا، إذ لا قيمة تذكر لمعجم غير مضبوط بدقّة، لأنّه المرجع الذي يُحتكم إليه، والدليل الذي يهتدى به، ولا يُقبل في الدليل الاحتمال. لأنّه إذا دخل الدليل الاحتمال سقط به الاستدلال، كما يُقال.

٣- المجانيّة: بأن يتيح برنامج المكتبة أو نظامها النفاذ إليها والاستفادة منها بالمجان. وهذا ما يحقق ديمقراطية المعرفة بحسب تعبير الثقافة المعاصرة، ويُجنّب كتم العلم وعقابه بحسب تعبير ثقافتنا العربية الإسلامية.

- ٤- أن يقدم البرنامج إمكان البحث والتصفُّح، إذ إن برامج البحث هي التي تمكن القارئ من الحصول على طلبته بأيسر السبل وأسرعها مع إمكان التصفُّح والقراءة المتأنية، في حين لا تتيح برامج التصفُّح ميزة السرعة واليسير.
- ٥- ألا تكرر الكتب فيها، ولا طبعاتها: إلا إذا تَصَمَّنَت الطبعتان فروعاً جوهرية يحسن التنبيه عليها أو إظهارها. وبذلك تختصر تكرارات وزيادات تثقل المكتبة دون فائدة تذكر.
- ٦- أن تكون الدواوين الشعرية مضبوطة بنية وإعراباً ووزناً، قابلة للسمع، لأن كثيراً من أبناء الجيل وحتى بعض اللغويين لا يميزون بين البيت الموزون والبيت المكسور.
- وكذا القراءات القرآنية والتجويد، فإن كثيراً من الباحثين لا يدركون الفروق الدقيقة فيما بينها لبعدهم عن مصطلحاتها وصور أدائها.
- ٧- ألا يسمح نظام المكتبة وبرنامجهما بدخول غير إدارة المكتبة إليها، ويُختصر بها حق الإدخال أو التصحيح أو التعديل أو التحديث. وذلك لكي لا تصبح المكتبة مكباً لهواة الكتابة وأصحاب البحوث الفطيرة، مما يقلل من مكانتها المرجعية.
- ٨- أن تراعى حقوق الملكية الفكرية للمؤلفين، بما لا يتعارض مع القوانين الوطنية النافذة.
- ٩- أن تخزن المكتبة الإلكترونية العربية الجامعة في موقع على الشبكة (الإنترنت)، وعلى أقراص مُدمجة. وإذا كان النفاذ إلى موقع المكتبة مجانياً، فإن الأقراص المدمجة يمكن أن تباع بسعر معتدل، على أن تخزن بطريقة لا تقبل النسخ.

٥) متطلبات إنشاء المكتبة الإلكترونية العربية الجامعة:

إن إنشاء مثل هذه المكتبة الإلكترونية يتطلب توفير مستلزمات أساسية لا تنهض من دونها، وإلى جانبها مستلزمات فرعية تظهر تبعاً مع التنفيذ والتطبيق العملي.

والمستلزمات الأساسية هي التمويل، ومحرك البحث، والأطر البشرية.

١ - توفير المال اللازم:

المال عَصَبُ محرك للثقافة، كما هو للاقتصاد وغيرهما من مناحي الحياة. ويمكن أن تقدر التكلفة المبدئية للمشروع إذا أخذنا بالحسبان حجم المادة اللغوية المبتغاة، ثم تجربة لجنة وطنية قامت بمثل هذا العمل.

المادة اللغوية المبتغاة هي (١٠) مليارات كلمة، وهي بحجم ما تتطلع إليه المدونة الإنكليزية، علماً بأن مدونة (أكسفورد) الإنكليزية تضم نصوصاً تعداد كلماتها الآن مليار كلمة^(١٨). وهي كذلك بحجم ما تخطط له (مدونة اللغة العربية) للدكتور عدنان عيدان.^(١٩)

فإذا كانت الصفحة الواحدة تحتوي نحو (٢٠٠) مئتي كلمة، فمعنى هذا أنه يلزم تخزين أو تحميل (٥٠) خمسين مليون صفحة.

وبحسب تجربة اللجنة الوطنية الأردنية للذخيرة اللغوية العربية، التي باشرت

(١٨) د. علي القاسمي - لسانيات المدونة الحاسوبية: ٢٧، من أبحاث المؤتمر الخامس لمجمع اللغة العربية بدمشق (٢٠٠٦).

(١٩) د. عدنان عيدان، مدونة اللغة العربية: ٢١، من أبحاث المؤتمر الخامس لمجمع اللغة العربية بدمشق (٢٠٠٦).

تخزين الكتب في إطار (مشروع الذخيرة اللغوية العربية) الذي سبق ذكره، وأنجزت تخزين أو تحميل نحو (٥٠٠) كتاب حتى الآن، فإن تكلفة الصفحة الواحدة هي دينار أردني واحد للصفحة المنصّدة رقمياً على قرص مدمج أو 1/2 دينار لتنضيد الصفحة المطبوعة ورقياً، و 1/2 دينار لتصحيحها وتدقيقها. وإذا أضيف إلى هذه التكلفة 1/4 دينار للتنسيق^(٢٠)، تكون تكلفة الصفحة الواحدة (١.٢٥) ديناراً وربع الدينار، وإذا أضيفت تكلفة الأعتدة والصيانة بنحو 1/4 دينار، فإن التكلفة النهائية للصفحة الواحدة ستبلغ ديناراً ونصف الدينار أي نحو (٢) دولارين أمريكيين. وبذلك تكون تكلفة المشروع النهائية نحو (١٠٠) مليون دولار أمريكي موزعة على سنوات إنجاز المشروع.

وأنا أعتذر بالطبع - عن حوضي في حسابات مالية أجهلها، فكلامي لا يعدو استنتاجاً أولياً من تقدير لجنة رسمية مارست عملاً نظيراً للعمل اللغوي والتقني الذي تقوم عليه المكتبة الإلكترونية العتيدة. قد تزيد هذه التقديرات، وقد تنقص، لأن كثيراً من المؤسسات أو الأفراد قد تقدّم مؤلفاتها منصّدة مدقّقة على سبيل الإهداء للمشروع. وهذا المبلغ المقدر - حتى لو تضاعف - هو مبلغ زهيد بالقياس إلى مشروع ثقافي حضاري يمثل هذه الأهمية والضرورة للعربية وكتابها الكريم، وبالمقارنة بتعويضات مدرب عالمي لكرة القدم! «ولا يفوتنا القول هنا إن الشركة المنتجة لآلية البحث (جوجل) قد اتفقت مع خمس جامعات عالمية مشهورة على

(٢٠) تقرير اللجنة الوطنية الأردنية إلى هيئة الذخيرة العربية في اجتماعها في الجزائر

وضع نصوص حوالي (٥٠) خمسين مليون كتاب على شبكة الإنترنت، كي يطلع عليها العالم بأجمعه»^(٢١).

٢- إيجاد محرّك بحث ضخم مختص لهذه المكتبة. «ومحرّك البحث عبارة عن برنامج حاسوبي صُمّم لمساعدة مستعمله على البحث في مدونة حاسوبية»^(٢٢). ومحرّك البحث هذا يمكن القارئ من الوصول إلى المعلومة المطلوبة بيسر وسهولة. ولا شكّ في أن شركات تقانة المعلوماتية العربية التي أنجزت محركات بحث مثل محرك البحث (عربي) و(الخوارزمي) وأمثالها^(٢٣) يمكن أن تسهم في تطوير محرّك ضخم لمثل هذه المكتبة. وليس بوسعي - باحثاً لغوياً - الخوض في مسألة علمية تقانية كهذه، فالخبراء المعلوماتيون هم المؤهلون للنظر فيها، وفي وسائل إنجاز المحرّك المطلوب.

٣- تأهيل وتدريب الخبرات البشرية اللازمة للمشروع:

والخبرات البشرية المطلوبة ثلاث فئات:^(٢٤)

أ- فنيّون في التنضيد والمسح الضوئي والتخزين.

(٢١) د. عدنان عيدان - مدونة اللغة العربية: ٢١، من أبحاث المؤتمر الخامس لمجمع اللغة العربية بدمشق (٢٠٠٦).

(٢٢) د. علي القاسمي - لسانيات المدونة الحاسوبية: ١٣، من أبحاث المؤتمر الخامس لمجمع اللغة العربية بدمشق (٢٠٠٦).

(٢٣) أ. مروان البواب - محركات البحث في النصوص العربية وصفحات الشابة - مجلة الحياة الفكرية - دمشق - ٢٤ - ٢٠٠٩ ص: ٤٩.

(٢٤) مؤسسة الذخيرة العربية - تقرير مشروع الذخيرة العربية أو الإنترنت العربي بتاريخ ٢٠٠٩/١٢/٧.

- ب- مهندسون في البرمجيات والحاسوب.
- ج- خبراء لغويون متخصصون، لأعمال التصحيح والتدقيق.
- ويمكن أن يوزع العمل على خلايا أو لجان فرعية، ملاك الواحدة منها:
- مُنْضِدٌ ومُخَزَّنٌ عدد (٥)
- مهندس حاسوبي عدد (١)
- خبير لغوي عدد (١) من حملة الدكتوراه في اللغة العربية.
- ومهمة هؤلاء الخبراء دقيقة وشاقّة، لأن في كتبنا التراثية غير قليل من التصحيف والتحريف، وفي كتبنا الحديثة غير قليل من الأغلط اللغوية والطباعية. وغني عن البيان ضرورة تزويد هذه العناصر بالعتاد اللازم من حواسيب وماسحات ضوئية وبرامج معالجة وطابعات وذواكر ذات سعة كبيرة.
- وبعد، فإن هذا المشروع بحاجة إلى أن تعقد من أجله ندوات متخصصة تضم نخبة من اللغويين والمعلوماتيين وخبراء الإدارة والتخطيط. وأياً كانت التكاليف والجهود، فإن عصر التدوين الثاني للغة العربية يستحقها.

التوثيق

- أبحاث مرصد اللغة العربية وآفاق التعريب - مجمع اللغة العربية بدمشق - ٢٠٠٩.
- أبحاث المؤتمر الخامس لمجمع اللغة العربية بدمشق - اللغة العربية في عصر المعلوماتية - ٢٠٠٦.
- تقرير هيئة الذخيرة اللغوية أو الإنترنت العربي للعام ٢٠٠٩.
- جامع الأحاديث - السيوطي - جمع وترتيب عباس أحمد صقر - دمشق - د.ت.
- سير أعلام النبلاء - شمس الدين الذهبي - تح بإشراف شعيب الأرنؤوط - مؤسسة الرسالة د.ت.
- علوم الحديث ومصطلحه - د. صبحي الصالح - دار العلم للملايين - طبعة ٢٠٠٦ - بيروت.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه - ابن رشيق القيرواني - مطبعة الكاتب العربي - دمشق - ط ٢ - ١٩٩٤.
- مباحث في علوم القرآن - د. صبحي الصالح - دار العلم للملايين - ط ١٧ - بيروت - ١٩٨٨.
- مجلة (الحياة الفكرية) - وزارة الثقافة - ع ٢ - دمشق - ٢٠٠٩.
- مجالس ثعلب - مصر ١٩٤٨.

- المحتوى الرقمي العربي على الشبكة - دليل المؤتمر الدولي الأول للمحتوى الرقمي - دمشق - حزيران ٢٠٠٩.
- معجم الصحاح - الجوهري، تح أحمد عبد الغفور عطار - دار الكتاب العربي - مصر. د. ت.
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان - عبد الله بن أسعد اليافعي - منشورات مؤسسة الأعلمي.
- المزهري في علوم اللغة - السيوطي - أبو الفضل إبراهيم وجاد المولى والبجاوي - المكتبة العصرية - ط ١ - بيروت - ٢٠٠٤.
- مصادر البحث اللغوي - د. محمد حسن عبد العزيز - ط ١ - الكويت - ١٩٩٧.
- الموسوعة العربية - هيئة الموسوعة العربية - دمشق - ١٩٩٨.
- نزهة الألباء في طبقات الأدباء - أبو البركات الأنباري - مكتبة الأندلس وجامعة بغداد - ط ٢ - ١٩٧٠.



المظاهر اللغوية والأسلوبية

في شعر محمد البزم

د. محمد رضوان الداية(*)

في الدراسات القليلة التي عُنيت بأحد شعراء الشام في زمانه « محمد البزم » كان الجانب اللغوي في شعره، وما رافقه من أخذ الشاعر بالجزالة في الأسلوب، والمتانة في العبارة، واختراق شعره للتراث العربي؛ هو المستأثر بعناية أولئك الدارسين: يتفقون في الآراء والرؤى، ويتقاربون في التعليل، وفي الشواهد والأمثلة.

وقد أعان محمد البزم بالتزامه الفصحى الجزلة أو المبسطة في حياته العامة أولئك الدارسين أو المترجمين له على تعميق تلك الآراء والرؤى، حتى إن موقف قارئ تلك الدراسات يكاد يبدو ثابتاً، وتبدو الأحكام قاطعة.

ولاشك في أن قارئ ديوان محمد البزم، ولو كان من أهل الاشتغال بالأدب واللغة يحتاج إلى الاستعانة بالمعجم في قسم من شعره. ومن هنا كانت الشروح القليلة التي وُضعت في حواشي الديوان غير كافية، وقد جاءت أحياناً مخالفة للمعنى الذي أراده الشاعر.

(*) باحث في الأدب والتراث من سورية.

وفي هذا البحث وقفة عند المظاهر اللغوية والأسلوبية في شعر محمد البزم، لا أكاد أتجاوز إلى غيرها، إلا إذا كانت الأمور متداخلة، ويقتضي ذلك إشارة أو إلماحة أو إضاءة؛ فإن القضايا التي تُستخرج من ديوانه كثيرة ومتشعبة تتداخل حيناً وتتفاصل حيناً. ولا يكاد يشبه ديوان البزم في هذه المدة التي نبغ فيها ديوان آخر.

(١)

محمد بن محمود البزم (١٣٠٥ - ١٣٧٥ هـ / ١٨٨٤ - ١٩٥٥ م) سليل أسرة وفد أحد أفرادها من العراق إلى الشام، فسكن دمشق، واستمر فرع الأسرة فيها، وتدمشقوا إلى هذا اليوم. وفي هذا الملمح قال البزم في قصيدة: (إلى معروف) وهو معروف الرصافي^(١).

أنا ابن دمشق منبثق المعالي وفي الزوراء لي حسبٌ مجيدٌ
- والزوراء من أسماء مدينة بغداد.

- وفي ترجمة خير الدين الزركلي للبزم، وهو صديق قديم له أنه: شاعر أديب، من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، مولده ووفاته فيها. كان واسع المعرفة باللغة، كثير المحفوظ من الشعر والنثر، حسن الترسُّل في إنشائه، نقاداً عنيفاً^(٢).
وسأشير إلى ما استخلصته من سيرته، ومن أخباره، ومن شعره بملاحظات عامة على العناصر المكوّنة لشخصيته المفسرة لجوانب أساسية من حياته، الممهدة للكلام في شعره وخصائصه اللغوية والأسلوبية؛ وسأجعل ذلك بديلاً عن

(١) ديوان البزم ١: ٣٢٧.

(٢) الأعلام ٧: ٩١.

التفصيل في أخباره ومجريات حياته؛ حرصاً على شغل المساحة المتاحة بالموضوع الأساسي الذي يدور البحث حوله، ويعالجه.

١ - الرّغبة في مسابقة الزّمن. فقد وصل البزم إلى سنّ العشرين وهو يعمل مع والده في محل لبيع المنسوجات، وتنبّه في زيارة عارضة إلى المكتبة الظاهرية، فتحوّل إلى طلب العلم، واتخذت حياته مساراً آخر، وكان تعلمه الحقيقي بدأ في هذه السنّ المتأخرة. ونقرأ في بعض سيرته الذاتية: «فأبّهتُ إذ ذاك (فطنت وتنبّهت) لضرورة درس العربية وفنونها، وطفقتُ أنتابُ حلقات شيوخ دمشق وعلماؤها أصرف همّي من عالم إلى عالم حتى قذفتني العناية إلى الأستاذ عبد القادر بدران^(٣)، فقرأت فيما يقارب ثلاثة شهور شيئاً من ديوان المتنبي، ونحواً من: مغني اللبيب لابن هشام، وصدراً من: دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، وكُتُباً في الأصول، ثم لم ألبث أن اتصلت بنابعة علماء دمشق السيد جمال الدين القاسمي^(٤)، فقرأت عليه في بضعة شهور شيئاً من العربية والبلاغة والمنطق، وكان قد نزل في دمشق أحد علماء تونس السيد صالح التونسي^(٥)، فقرأت عليه في أشهر قليلة كتباً

(٣) عبد القادر بن أحمد بدران (توفي ١٣٤٦ هـ = ١٩٢٧ م) فقيه أصولي حنبلي، عارف بالأدب والتاريخ. ولد في دوما بالغوطة وتوفي بدمشق. له ديوان مطبوع، وله مؤلفات في الفقه والأصول والتاريخ والآداب. واختصر تاريخ دمشق لابن عساكر. (مقدمة الديوان).

(٤) جمال الدين القاسمي (١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ = ١٨٦٦ - ١٩١٤ م) إمام الشام في عصره علماً بالدين وتضلّعاً من فنون الأدب. كان سلفي العقيدة لا يقول بالتقليد. نشر بحوثاً في التفسير وعلوم الشريعة والأدب. وكان غزير النتاج سائر الكتب، منها كتابه محاسن التأويل في التفسير (مطبوع). الأعلام ٢: ١٣٥.

(٥) صالح التونسي: أحد نزلاء دمشق من علماء تونس. عمل بالتدريس، وكانت له حلقة في

في علمي المنطق والكلام، وأخرى في العربية والأصول، ثم انصرفت إلى المطالعة بنفسه حتى كان عام ١٩١٣ فانتدبني الشيخ كامل القصاب^(٦) مدرّساً للعربية في مدرسته «العثمانية»... إلخ.

وصحّ تعليق الدكتور إبراهيم كيلاني على هذا المقطع من كلام البزم: «إن محمد البزم مثال للعصامية»^(٧)، لقد طوى البزم المراحل واختصر الزمن وأدرك الركب، فلما استوى على مكانة الأديب الشاعر، كان همّه أن يرقى إلى منزلة الشاعر ذي المزايا والشهرة والتألق والأثر. وفي ديوانه قصائد خاصة بشعره والشعر عامة، وقصائد كثيرة يقف فيها وقوفاً واضحاً عند رأي نفسه في شعره وشاعريته.

- وقد قال في إحدى قصائده^(٨):

أنا المجليّ في البيا ... نِ لِمَ أَكُنْ قَطُّ الوَسْطُ

- وقال وهو يتحدّث عن نفسه أيضاً^(٩):

المسجد الأموي. ذكره علي الطنطاوي في ذكرياته وأثنى عليه وقال إنه تميّز بالوعظ والكلم الطيب.

(٦) محمد كامل بن أحمد القصاب (١٢٩٠-١٣٧٣ هـ / ١٨٧٣ - ١٩٥٤ م) من زعماء الاستقلال أصله من حمص. من أهل دمشق دخل في مجال العلم فجأة بعد مدة من الفتاء، وبرع في علوم العربية والشريعة والقراءات وأنشأ مدرسة الكاملية وانخرط في جمعية الفتاة العربية، وشارك في الثورة العربية، وجاهد فرنسة وحُكم عليه بالإعدام غيابياً. وتولى إدارة المعارف عند الملك عبد العزيز ثم استقر في حيفا، وأنشأ مدرسة مع الشهيد عز الدين القسام. وعاد إلى دمشق بعد محو بعض أحكام الإعدام. وله مشاركة في التأليف: (من الأعلام ٧: ١٣). وكان الزركلي مؤلف الأعلام من أصحابه).

(٧) محمد البزم لإبراهيم الكيلاني: ٢٠٠.

(٨) ديوان البزم ٢: ٧٣.

وكذا الأفلاك ملو ... لك الشعراء النابهين

- وارتقى مرتقىً عاليًا في قصيدة «الشاعر»^(١٠):

إنما الشاعر في أمته مرسلٌ من ربه لو يهتدون!

- والمجاز في الشعر واضح.

وفي هذه الفقرة إشارة مفيدة في ترجمته وشخصيته، فقد شابه البزم في فجاءة انتقاله إلى حلبة العلم بعد مدة من العمر أستاذه محمد كامل القصاب، فإنه بعد مدة من زمان «الفتوة» والانقطاع إليها رآه الناس يدخل مسجد محله «العقبية» ويحتل غرفة فيه وينقطع إلى العلم. قال الزركلي في ترجمته في (الأعلام): «وأمضى في اعتكافه أعوامًا نفقه فيها وبرع في علوم العربية والقراءات وخرج إنسانًا آخر...».

٢- تأصل النزعة الوطنية في حياته، وشعره، ونموها مع الزمن.

منذ مدة مبكرة من حياته الأدبية أخذ ينشر في الصحف قصائد ومقطوعات قومية - كما وصف ذلك د. الدهان - فيها حرص للعرب على النهوض من إغفائهم، والمطالبة بحقوقهم المغصوبة بيد الترك (وكان النقوذ آنذاك لجماعة الاتحاد والترقي التي رفعت شعار التريك)؛ فذلك الجانب من شعره يمثل «الوتر الوطني القومي»^(١١)، الذي ظل محمد البزم يضرب عليه مدة حياته. وقدّر د. الدهان أن ذلك استمر في بداية حياته بين ١٩٠٧ - ١٩١٣ حتى شهر الترك النفير العام الذي سبق الحرب العالمية الأولى. وانخرط في الخدمة العسكرية كاتبًا. وقد ظل على انتمائه

(٩) المصدر السابق ٢: ٨٨.

(١٠) المصدر السابق ١: ٣٢٤.

(١١) الشعراء الأعلام في سورية: ٣٧.

الوطني العربي طوال حياته، منذ «شباب الثورة السورية الكبرى سنة ١٩١٦ بقيادة الشريف حسين بن علي حتى معركة ميسلون في ٢٤ تموز ١٩٢٠، والثورة السورية ١٩٢٥ إلى معركة الجلاء ١٩٤٦، فقد وجدت كلها صدًى في نفسه، فعبّر عنها بشعرٍ يفيض عاطفةً صادقةً وإيماناً ثابتاً يمجد الأمة العربية ورسالتها في الحاضر والغابر»^(١٢).

وقد دخل محمد البزم السجن مدةً من الزمن، وذكر ذلك في قصيدة أولها:
لا السجن يردعه ولا أغلاله عن غايةٍ تسموها آماله
وفيها^(١٣):

مقتوه إذ نقموا عليه جلاله فسعوا به كي لا يبين جلاله
ووشوا به ولو أنهم ملكوا له موتاً لأصمته الغداة نصاله
(أصمى الصيد: أصابه فوق بين يديه. ونقل الشاعر ذلك إلى الإنسان).

٣- الصبوة والحنين إلى أصله القديم (في بغداد).

وقد عاد البزم إلى هذا الارتباط والحنين مراراً، ونقرأ له في الديوان^(١٤):
جَلَّقُ منبت جسمي وعلى دجلةٍ محتدُّ قومي الغابرين
وإلى بغداد مهوى النفس لي أنه تتابني حيناً فحين
وهما من قصيدة (وداع).

(١٢) محمد البزم - إبراهيم الكيلاني: ٢١٨.

(١٣) ديوان البزم ١: ٢٦١.

(١٤) ديوان البزم ١: ٣٢٤.

ولكن هذه الصبوة ليست خالصة لوطنه الصغير وحده، فهي موصولة بالعرب، متماسكة معهم، إنه احتفل بالغصن ليصل إلى الارتباط بالشجرة كلها، وقد قال وراء البيتين السابقين:

وَحْشًا تَهْفُو إِلَى أُمِّ الْقُرَى مهبط الوحي، ومهد الراشدين
وفؤاد سؤله في يثرب كاهل المجد وأرض الفاتحين
وبنجد لا تعدّها الحيا منعة العُرب ومثوى المتقين
وعلى البطحاء مجد غابرٌ شاخصٌ أخلقه كُرُّ السنين
وبصنعاء تخطأها الأذى عِزَّة الليث إذا حلَّ العرين
.... والقصيدة طويلة.

٤ - اختلاط حالين مختلفتين في نفسه، وتلازمهما معًا:

أ) النزعة الفطرية إلى الحياة الطبيعة، والتوق إلى ملابسة الدنيا بما فيها من مقومات العيش، ولقاء الناس، والانفعال بمعطيات العمل (وهو التدريس أساسًا) والنشر في بعض الصحف، والأداء الإيجابي في مجالات المجمع العلمي العربي، وقد اختير عضوًا عاملاً فيه (منذ ١٩٤٢م).

ب) والميل إلى التشاؤم مع قدر كبير من الحزن والأسى، وقد سجّل البزم نفسه بقلمه قوله: «فقد لقيتُ منذ الصغر من إلحاح المصائب، وولع بنات الدهر بي ما ولّد في نفسي كرهًا للحياة، ونفرة من أكثر أبنائها، فلم تبدُ لي إلا شمطاء متنكرة، جهمة الطلعة، عبوس الوجه، مكروهة الشمّ والتقييل..»^(١٥).

(١٥) محمد البزم - إبراهيم الكيلاني: ٢٠١.

ويجد قارئ الديوان هاتين النزعتين واضحتين في شعره بيثّ منها حيث يجد ذلك مناسباً، أو ممكناً، ونلمح هذا في واحدة من قصائده التي ذكر فيها نفسه مباشرة أو على وجه من وجوه القول أولها^(١٦):

سامه الدهرُ خضوعاً فأبى ودعاهُ للمعالي فحبّبا
وأخرها:

نُوبٌ تَتْرَى، وَجَدُّ عَاثِرٍ آهٍ مَا أَفْجَعُ هَذَا نُوبًا!
ويبدو أنّ الشاعر لم يكن يصبر على ما يجد (أو على ما يعتقد) أنّه نوب
ومصائب متوالية، وإن قال في القصيدة:

وكذا الحرُّ إذا خطبُ عِرا أَظْهَرَ البِشْرَ وَأَخْفَى الغَضْبَا

٥- النزعة العربية التي تأصلت في نفس الشاعر من جهات متعددة:

(أ) النزعة إلى البداوة العربية، والتّوق إلى دخول الصحراء العربية، والبوادي
المتددة، مخترقاً الحدود المصطنعة التي أدرك إنشاءها (مع معاهدة سايكس بيكو)،
وقد قال^(١٧):

فلأرحلنَّ إلى الجزيرة رحلةً بدويّةً والقَفْرُ يرقصُ آلهُ
(حيث يكثر الآل: السراب)

ولأمضينَّ عزيمةً عربيّةً لا الموتُ يرهبنِي ولا أهوالُه
(ب) الأخذ بقضية العروبة بالمعنى السياسي (توحيد العرب) والمعنى

(١٦) ديوان البزم ٢: ١ - ٢.

(١٧) ديوان البزم ١: ٢٦١.

القومي: فهو ينظم قصائد لمدن في سورية مثل دمشق، وحمص وحمّة وغيرها، وينظم قصائد لمصر وطرابلس الغرب وغيرها. وقد قال في قصيدة: (مصر)^(١٨).

حيّ العروبة والصيّد الميامينا في مصر وانشد فؤادًا ثمّ مرهونا
(ج) استغراق الذات في اللّغة العربية والثقافة العربية، فقد اتخذ الشاعر محمد البزم (اللغة العربية) باتساع هذا المقصد قضيةً شغل بها نفسه، وخصّص لها جزءاً كبيراً من اهتمامه: تعليماً، ونشراً، ونشيداً شعرياً.

وفي قصيدة (عن العروبة وإليها) خطابٌ للعربي في كل مكان من الوطن، وتحميلُ رسالة^(١٩):

عن العروبة رِيّاً الظلّ وارفةً إلى العروبة تسبيحاً وفُرقانا
إلى العروبة طمّاحاً سراديقها مهوى القلوب ومجلى الحق عُريانا
عن الفتى العربيّ القحّ يُرسلها آياً مرتلّةً ديناً وإيماننا
والعربيّ القحّ (الصّافي، الخالص من الشوائب) هو الشاعر نفسه، صاحب الرسالة العربية، الحقيقية: (لغةٌ ومشاعر: وتماسك أمة، وخصائص حضارة) ولهذا قال في آخر القصيدة:

أنا الحَفِيّ بها قَدَمًا وشاعِرُها فليس بِدَعَا إذا أيقظتُها الآنَا
٦ - ظهور الحِدّة في التّعامل مع مَنْ حوله، وما حوله، في مجالات كثيرة؛ وهي حِدّة مستفادّة من الميل إلى التّشاؤم، والاعتداد بالذات، والشعور باهتضام الحقّ الأدبي.

(١٨) ديوان البزم ١: ٢٤.

(١٩) ديوان البزم ١: ٢٣٩.

وقد أدت به هذه الحجة، والظروف التي اجتمعت في بعض الأحداث مع ذلك «المزاج» إلى سرعة الانفعال مع بعض معاصريه، وفيهم الأستاذ محمد كرد علي، وإلى الاشتطاط في نظم أشعار في بعض معاصريه انتقل بها من الدعابة المقبولة إلى العبث: «الذي يصل إلى حدّ التجريح والإيذاء»^(٢٠). وقد نقل الدكتور إبراهيم الكيلاني من ذكرياته عن البزم طرائف من تعامل البزم مع طلابه حين كانوا يقعون في أخطاء لغوية، أو حين كانوا يتكاسلون في دراستهم، في تعليقات لاذعة أو هي تثير السخرية القوية^(٢١).

وقد نظم من باب - الدعابة - شعراً على لسان بعض زملائه. وكان فيها «دعابات» تركت آثاراً غير حميدة. وله خبر مع عزّ الدين التنوخي في قصيدة نسبها إليه، تُذكر تعجباً فإنها أسهمت في إلغاء عقد التنوخي (حيث كان يعمل)!

(٢)

سمّى الدكتور سامي الدهان^(٢٢) ما عرف من مؤلفات محمد البزم، ووصف بعضها:
 - فمنها كتابٌ في اللحن الذي سرى في كلام العرب درس فيه أسبابه وأنواعه، (ولم يسمّه د. الدهان).
 - وكتاب «النحو الواقع».
 - وكتاب «الجواب المُسكت»، وهو مجموعة كبيرة لكل جواب مسكت قالته العرب (مخطوط).

(٢٠) الشعراء الأعلام في سورية: ٤٣.

(٢١) محمد البزم - إبراهيم الكيلاني: ٢٠٣ - ٢٠٥.

(٢٢) الشعراء الأعلام في سورية: ٤١.

- وكتاب آخر هو «البحيم».

- و«ديوانه» الذي سعى د. الدهان شخصيا لطباعته أيام كان مقرراً للجنة في المجلس الأعلى للآداب والفنون بالقاهرة، ولكن الذي طُبِع من هذا كَلِّه: ديوان البزم في جزأين عن المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية - دمشق - أمّا الزركلي صاحب الأعلام وصديق محمد البزم فقد ذكر له:

«كلمات في شعراء دمشق» رسالة نشرها متتابعة في جريدة الميزان الدمشقية (آب وأيلول ١٩٢٥).

- وكتاب على نسق «رسالة الغفران» لم يبيّضه ولم يتمّه.

قال الزركلي: قرأ لي فصلاً منه في نقد أئمة النحاة واللغويين... وهو الكتاب الذي سمّاه البزم باسم «البحيم».

ونخرج من هذه العناوين، وبعض الأخبار المتعلقة بها، وبعض الإشارات ممّن قرأ شيئاً منها إلى أن اللغة العربية وقضاياها كانت شغل محمد البزم الشاغل. وكانت له آراء في النحو العربي: تدريسه والتأليف فيه، وآراء في بعض النحويين واللغويين القدامى. وكان يرى أن جماعة من المشتغلين بالنحو العربي هم الذين عقّدوه، وعدّ ذلك التعقيد المقصود «ناحية من نواحي الحرب الضروس التي شنتها الشعوبية على العرب»^(٢٣)، ونظم بعض أفكاره شعراً، ومن ذلك قوله في قصيدة عن المعري^(٢٤):

(٢٣) محمد البزم - إبراهيم الكيلاني: ٢١٠.

(٢٤) ديوان البزم ١: ١٩٩.

تلاعب بالنحو النحاة فَصَرَفَتْ قضاياه في أغراضهم وعناصره
وأصبح نحو العرب في حَوْزِ عَصَبَةٍ شعوبية أرباحه ومَتَاجِرُهُ
ومن ثنائه على المعرّي دفاعه عن العربية ونحوها وخصائصها وذوده عنها:
فكشفت من أحوالهم كل وأحللت كُلاحيث تبدو مناجره
وأدخل البزم نفسه مع المدافعين عن العربية عامة والنحو خاصة:
وأسهرت من جفنيّ عشرين بهم ولهم أحيي الدجا وأحاضره
لقد كان واحداً من جمهرة علماء وأدباء أخذوا على أنفسهم عهد الدفاع عن
العربية، فيهم سليم الجندي وعبد القادر المبارك^(٢٥) وعبد الغني الباجقني، وقد تتابعت
بعدهم أعداد من المخلصين أمثالهم.. وقبل أن نذكر آراء بعض دارسي البزم في أدبه
عامة وفي شعره خاصة من جهة اللغة و الأسلوب، ننقل عنه قوله إنه التفت إلى كتب
التراث «غرفاً من المعاجم، وكتب التفسير، وشروح الشعر، والحديث والأدب،
والتاريخ، وتراجم الرجال عامة، غير كتب النحو الطامية في بحر...»^(٢٦).
وتحت كل واحد من هذه العناوين تفصيلات كثيرة تظهر لقارئ شعره، فإن
أشعاره تُرشح على وجوه شتى بذلك المعين الخصب من اللغة والأدب وسائر
جوانبها، والإشارات و«الإفادات» من الشعراء - خاصة - ومن غيرهم.
هذا الاستغراق في حفظ اللغة، وحفظ النصوص الأدبية؛ والإشراف الواعي
على شروح الشعر العربي القديم كشرح حماسة أبي تمام وشرح المفضليات،

(٢٥) ذكريات علي الطنطاوي ٥: ٢٦٦.

(٢٦) محمد البزم - الكيلاني: ٢٠١ - ٢٠٢.

والمعلقات، وما شابه، والاستفاضة في دراسة النحو والصرف والعروض والبلاغة واستبطنها، واستفادته الكافية - كما يبدو - من كتب التفسير والحديث والفقه، مع ذهنٍ وقادٍ، وشاعرية عالية كل أولئك شكّل سبيكةً خاصّة هي نتاج محمد البزم الشعري: تحمل هويته العاطفية والفكرية والحياتية، وتنضح عن « عقيدته » اللغوية التي تماهت في مواقفه العروبية التي تحمل قضايا العرب و (المسلمين) في العصر الحاضر، ولا تغفل عن الانشغال بالمواقف العروبية في التاريخ، ويمجد القارئ هذا التماهي في الحاضر، وفي الماضي القريب والغابر في قصائد كثيرة، وفي مواضع متعددة في كل قصيدة تدور في هذا الفلك.

ونقرأ في قصيدة (الذكرى) التي تنضح « ذاتيةً » وتتفجّر عروبة (٢٧):

وَبُعِثْتُ مِنْ عِظَمِ الْعُرُوبَةِ شَانِحًا شَمًّا يُطَلُّ بِهَا عَلَى الرِّكْبَانِ
وَجَلُوتٌ مِنْ أَمْجَادِهَا جَمًّا تَحْلُدُهَا يَدُ الْأَزْمَانِ
وَتَرَكْتُ شَانِئَهَا بِكُلِّ قَرَارَةٍ يَكْبُو وَيَنْهَضُ فِي يَدِ الْخِذْلَانِ
والأبيات: تجري على هذا النفس العالي...

وبنى قطعة من شعره في قصيدة يوم الجلاء على بيت من الشعر في قصيدة

طنانة لصديقه خير الدين الزركلي. قال البزم (٢٨):

يَوْمَ الْجَلَاءِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ذُو يَبْغِي كِفَاءَكَ إِلَّا خَانَهُ الْعِظَمُ
لَوْ كُنْتُ فِي عَهْدِ آبَاءِ لَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يُعْبَدْ لَهَا صَنَمُ
وَكُنْتُ كَعْبَتِهَا الْكَبِيرِ يَطِيرُ أَرْكَانَهَا الشَّمَّ طَوَّافٌ وَمَسْتَلَمُ

(٢٧) ديوان البزم ١: ٣٣١.

(٢٨) ديوان البزم ١: ٥٧.

في أبيات أخرى حسنة السبك جيدة المعاني. وكان الزركلي قد قال^(٢٩):
لو مثلوا لي موطني وثناً لهممت أعبدُ ذلك الوثناً
من قصيدة ذائعة الصيت.

(٣)

في ترجمة محمد البزم في كتاب «الأدب العربي المعاصر في سورية»
لسامي الكيالي^(٣٠)، أن أبرز شعراء سورية بعد الحرب العالمية الأولى: محمد البزم،
وشفيق جبري، وخلييل مردم بك، وخير الدين الزركلي؛ وهم «مدرسة تُعنى عناية
بالغة بالمبنى... الصياغة أولاً، ثم تأتي الفكرة في تضاعيف الكلام، وربما كان محمد
البزم أكثر زملائه عناية بالصياغة».

وكان الدكتور إبراهيم الكيلاني على صلة بمحمد البزم، وقد تحدث عن
بعض أحواله وأخباره، ونوّه بإتقانه للغة وحفظه الكثير من النصوص التراثية،
والتزامه الكلام بالفصحى أو الفصيحة الميسرة، وله أكثر من تعليل لهذه الصورة
اللغوية التراثية لمحمد البزم، التي لازمته، والتي كان مسروراً بها.

فالبزم قد استقامت لغته من «إدمانه على الكتب الصفراء - يعني كتب
التراث العربي على اختلاف أنواعه - وحبّه للعربية، وشغفه بها حتى صارت ملكةً
أصيلّة، بل جزءاً من نفسه، وتركيبه الذهني؛ تتجاوب وانفعالاته. ومما ساعده على

(٢٩) ديوان الزركلي: ٢١.

(٣٠) الأدب العربي المعاصر في سورية - سامي الكيالي - دار المعارف بمصر - ط ٢ - ص:
٢٢٠.

- ولم يصف أحمد الجندى جديداً في كتابه شعراء سورية في ترجمة البزم ٧٠ - ٨٢.

التبحرّ بها، والتعصب لها عدم تأثره بأيّ ثقافة أجنبية، فقد بقي ضمن حدود الثقافة العربية القديمة: تحدّرت إليه رأساً من الخليل وسيبويه والأخفش، وأبي تمام والبحري والمنتبي والمعري. ولعل للعوامل النفسية أثراً في تملكه ناصية اللغة، فقد كانت فيه حوافز دفيئة ومركّبات وعقد نفسية - كذا - تدفعه إلى إجادة اللغة ونظم الشعر والتفوق في مضمارهما بعد أن حُرِم من العلم طويلاً؛ فكأنه إذا أجاد اللغة والنظم، أو خاطب الناس بلغةٍ أشرف من لغتهم وأنقى وجد في ذلك تميّزاً ومثالةً^(٣١) ومخالفة لما ألفوه من عجمة ووطانة وركاكة، وقديماً قيل: التباين رائد الاستعلاء»^(٣٢).

هذا الاقتباس من مطالعة د. الكيلاني في شعر البزم وصلته بالتراث العربي جاءت على سبيل الدفاع عنه ممن يرمونه بالتنطع والتفصح.

ووضع الدكتور الدهان شعر محمد البزم في هذه الدائرة أيضاً، وأورد

من قصيدة (السجن) قطعةً منها^(٣٣):

فلأرحلنّ إلى الجزيرة رحلةً بدوية والقفرُ يرقصُ آله
ولأمضينّ عزيمة عربية لا الموت يرهبني ولا أهواله
وليرقلنّ إلى المنى بي بازلٌ حتى يبلغني المنى إرقاله
وليقذفني سبسبٌ في سبسبٍ ويظللني عند الظهيرة ضاله

(٣١) الشعراء الأعلام في سورية: ٤١.

(٣٢) المثالة: الفضل (المعجم الوسيط).

(٣٣) ديوان البزم: ١: ٢٦٢.

وعلق على هذا الشعر في ترجمته له: «وشعر البزم في الواقع منذ هذه المرحلة (المبكرة من حياته الأدبية) كان يغصّ بالمفردات والصورة التقليدية. وظل كذلك طوال عمره. فقد كان يغوص على المعاجم، ويرافق كتب اللغة، ويصحب قواعد النحو، فلا يقع في ضعف، ولا يزلّ في ركافة، فكأنه يعيش في القرون العربية الأولى لشدة تحمّسه في حب اللغة، والحفاظ عليها كتحمسه في العروبة والعمل لها»^(٣٤).

وكان حُكم خير الدين الزركلي على شعر محمد البزم وهو يترجم له في الأعلام على قصره وإيجازه مختلفاً، وفيه رؤية نقدية دقيقة، قال: «وكان طويل النَّفس فيما ينظم، تستهويه الجزالة، حتى قد تشغله عما يجول في نفسه من مُبتكرات المعاني»^(٣٥). فالبزم يُطيل في القصيدة ما شاء، ويستغرق المعاني الملائمة لموضوعه فلا ينقطع له نفس، ولا يخفّ له صوت، ولا يضطرب في شعره مستواه، ولا تعوزه كلمة مناسبة، ولا عبارة ملائمة.

وهو تستهويه الجزالة. نعم. وقد تكون الجزالة «على حساب» ظهور المعاني المبتكرة واضحة لاثحة. على أنّ في جملة شاعرية البزم قدرته على ابتكار المعاني من جهة، وعلى توليدها في براعة وقدرة ذاتية من جهة أخرى.

(٤)

كان لا تتسع محفوظ محمد البزم من جهة، وتعلقه باللغة العربية واستبحاره في معاجمها وخصائصها من جهة أخرى أثر كبير في إسباغ هذه الملامح صفة الجزالة

(٣٤) الشعراء الأعلام في سورية: ٤٠.

(٣٥) الأعلام ٧: ٩١.

على شعره، وفي توكيد أثر هذا الاتساع اللغوي والتراثي في أسلوبه في نظم الشعر، وفي خصائصه العامة أيضًا.

على أنّ الإنصاف للشاعر وشعره يقتضي:

- بيان موقفه من الأخذ المباشر عن القدماء (السرقه بأنواعها).
- وجلاء قضية أثر التوسع اللغوي عنده في إسباغ صفة الصعوبة اللغوية أو الإكثار من الغريب.
- وبيان حقيقة استغراق هذه «السيطرة اللغوية» في شعره في قصائد ديوانه ومقطعاته.
- وبيان تأثر محمد البزم بالتراث عامة (كما يظهر ذلك في بناء شعره): ألفاظًا ومعاني.
- وتأثره بشعراء معينين، واقتفاء أثرهم في جوانب من أشعارهم: في الموضوعات والأساليب؛ و«خلفيات» ذلك التأثير.
- وبيان الوجه الآخر من شعر البزم الذي يتخفّف فيه من غرابة اللغة وسيطرتها.
- والإشارة إلى نفوذ شيء من الملامح الشعبية في بعض شعره. وهذا غريبٌ عمّا قرّره دارسو شعره، ولكنه موجودٌ وطريفٌ، ويكمّل حقيقة صورة محمد البزم الذي عاش في دمشق من أسواقها الشعبية إلى مراقبي مدارسها ومعاهدها ومجمعها العلمي.

ومحمد البزم يُنكر على الشعراء الإغارة على أشعار غيرهم أو سلب معانيهم

وصورهم وأفكارهم وسائر نظمهم، قال^(٣٦):

يا عبيد الشعر قد أب ... رمتُم الليلَ دبيبا
وأغرتم فتركتُم ... شاعر القوم سلبا
.....

قد لبستم من سلب الش ... عركتنا وخزّا
واضطجعتُم بجُنوبٍ ... لا تحسّ الدهرَ وخزّا

فهذا موقف واضح من السرقة، يعترض عليه، وينكره؛ ومثله قوله:

أفكلّ من سلب الأوائل قولهم تدعونه بأخي البيان السائر؟^(٣٧)

- ولكن محمد البزم «يستفيد» في شعره من النصوص المحفوظة ابتداء من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، من كلام الله تعالى المعجز وهدى الرسول الكريم من جوامع الكلم.

وينثال على البزم - وهو ينظم - هذا التراث العظيم الذي حفظه وتمثله: بين أسلوب متين موصول بالألفاظ المناسبة للمقام الموافقة لرؤيته الشعرية، ويكثر فيها الغريب، أو الذي قلّ استعماله في العصر الحديث، ومعانٍ تتدفق في قصائده بين مبتكرة لم يسبق إليها، وأخر مولدة ترك فيها علامات على شخصيته وأسلوبه، واختياره من الألفاظ المناسبة، الموحية، التي أدرجتها المعاجم، ولكن المتابع يجدها في أشعار بعض الشعراء الذين أعجب بهم البزم وطارت إلى شعره من عندهم، في سياقها لا من المعاجم.

والاستفادة من الأسلوب القرآني كثير:

- قال في قصيدته (دمشق) في صفة أخلاق أهلها مستفيدًا من قصة داوود عليه السلام^(٣٨).

لو أعطيت زُبْر الحديد عزائمًا نشزت فيما أعطت يدًا داوودا
وقال مرة أخرى، في رثاء شكيب أرسلان^(٣٩):

ألفوا الحديد فما تهابُ نفوسهم زبر الحديد حوائمًا بدمارٍ
- وقال في قصيدة (نجوى) من نسق أبيات فيها مجموعة من الأقسام^(٤٠):

والذاريات وما ذريُّ من سَوى ذرى الآمالِ ذرّوا
والمنشآت تشق كالـ أعلام صدر اليمّ زهوا
والراقصات تجوب أجـ وواز الفلا وتجوّزُ حُزوى
تهفو إلى البيت الحرا م تزجُّها الآلاف هفوا
يرغوبهم عرفات مسـ تعرّا بحرّ الشمس رغوا
تعشونواظرهم إليـ كَ خواشعًا في الحر عشوا...

ازدحمت الأبيات بألفاظ إسلامية قرآنية، وقدّمت إلى القارئ مقاصد وإيحاءات مناسبة. وأضاف الشاعر إيحاءات أخرى من الأسماء الجغرافية العربية، والعبارات الموصولة بالحياة البدوية، مثل (عرفات) وهو من المشاعر، وحزوى موضع بالجزيرة^(٤١)، استفاد منه الشاعر الاستعانة بأجواء البادية وإيحاءاتها.

(٣٨) ديوان البزم ١: ٥.

(٣٩) ديوان البزم ١: ١٥٥.

(٤٠) ديوان البزم ١: ٦٩.

(٤١) حُزوى (بضم الحاء) موضع في ديار بني تميم (معجم ما استعجم للبكري ٢: ٤٤٣).

وقد أوردَ قَسَمًا كان مألوفًا في الشعر القديم «والراقصات تجوبُ أجواز
 الفلا» وهي الإبل التي تحمل الحجاج والمعتمرين كقول النابغة الذبياني^(٤٢):
 حلفتُ بما تساقُ له الهدايا على التأويب يعصمها الدّرينُ
 وربّ الراقصاتِ بكل سَهْبٍ بشعث القوم موعدها الحجونُ
 (الراقصات هي الإبل السراع، يعني، التي يحج عليها، يُقسم الشاعر بها).
 وكقول الحماسي:

أما والراقصات بذاب عِرْقٍ إلخ.

ومن الإشارات - والاستفادات - من الأمثال قوله:^(٤٣)

ففخرك بالأهوال أوردك الردى وقد يصرع الإنسان ما هو قائله

وهذا من قول العرب: «مقتل الرجل بين فكّيه»^(٤٤)، وهناك أمثال أخرى
 في المعنى.

- وقوله^(٤٥):

نازلتي تفرّجي ليس بعشكٍ اذرجي

وهو من قول العرب: «ليس بعشك فادرجي»^(٤٦).

(٤٢) ديوان النابغة الذبياني: ٢٢٢ (بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم).

- وانظر حماسة أبي تمام بشرح المرزوقي ٣: ١٣٧٦.

(٤٣) ديوان البزم ١: ٢٥٧.

(٤٤) جهرة الأمثال للعسكري ٢: ٢٢٨. (من كلام أكثم بن صيفي).

(٤٥) ديوان البزم ٢: ١٦.

(٤٦) جهرة الأمثال للعسكري ٢: ١٩٧. أي ليس مما ينبغي لك فزل عنه.

- وقوله في رثاء الملك غازي بن الملك فيصل بن الشريف حسين، وقد رثاهم جميعاً^(٤٧).

رثيتُ أباك بعد أبي عليّ وذا منْعاك ثالثة العِظَاتِ
وهذا من عبارة (ثالثة الأثافي) المأثورة في كلامهم، ومن المثل: رماه بثالثة
الأثافي^(٤٨).

والاستقصاء يطول.

والشاعر يبني شعره في قصائده المطولة وغيرها كثيرًا على سمت شعر البداوة
كلّمًا أمكنه ذلك، مستحضرا ألفاظ بيئة البادية من النبات والحيوان والجماد،
والأحوال.

ونحصي في قصيدة واحدة: (صونوا الجزيرة)^(٤٩) من المفردات: الأراك،
والأثل، والسّدر (من النبات)، ومن الأسماء: عدنان، وأمّية، وفزارة، وعبس،
وقحطان، ويعرب، وعثمان.

وفي قصيدة (السجن) من المفردات الجغرافية البيئية: القفر، والآل
(السرّاب)، والسّبب، والغيل والبطحاء^(٥٠).

ومن ألفاظ الحيوان: البازل، والضراغم، والأشبال.

ومن ألفاظ النبات: الضّال.

(٤٧) ديوان البزم ٢: ١٣٧.

(٤٨) جمهرة الأمثال للعسكري ٢: ٤٧٨ أي رماه بداهية عظيمة.

(٤٩) ديوان البزم ١: ٢٥٧.

(٥٠) ديوان البزم ١: ٢٦٣.

ومن الأدوات القديمة: السيف.

وفي شعر البزم عبارات كثيرة تذكر القارئ بعبارات مماثلة في أشعار عربية قديمة (من الجاهلية فما وراء ذلك). وأضرب أمثلة محدودة.

فقد ذكر عبارة تصعير الخدّ أكثر من مرة كقوله^(٥١):

صعّر الجبار في خَطِّ رتّه رأساً وخذاً

فأقم من صعّر الجبّ - - - - - إن حاولت مجداً

واشتهر قول بشار:^(٥٢)

إذا الملك الجبار صعّر خده مشينا إليه بالسيف نعاتبه

- و «عقد الحبوّة» عبارة شائعة، وفيها كناية قال البزم من قصيدة

(دمشق) يشير إلى المسجد الأموي (١: ٣):

عقدت مفاخرها عليه حبوّة برمت بها كف الزمان جليداً

- واشتهر قول الفرزدق يفخر^(٥٣):

بيتاً زارة محتب بفنائمه ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

- وقال في صفة العدو (غاصب فلسطين وغيرها)^(٥٤):

ما إن أصيب ولن يصاب إلا على الأعقاب والأدبار

واشتهر في هذا قول الحماسي^(٥٥):

(٥١) ديوان البزم ٢: ٩٣.

(٥٢) ديوان بشار بن برد ١: ٧١٤.

(٥٣) ديوان الفرزدق ٢: ٧١٤.

(٥٤) ديوان البزم ٢: ٣٨.

ولسنا على الأعقاب تَدْمَى ولكن على أقدامنا تقطرُ الدّما

- وقال يحض الشرق (العرب والمسلمين) على النهضة^(٥٦):

أشرقُ انتبهْ وانبذْ خمولاً عشقتَه وصحْ في دعاة الجهل أن لا تلاقيا

- واشتهر قول الشاعر^(٥٧)

وقد يجمع الله الشّيتتين بعدما يظنّان كلّ الظن أن لا تلاقيا

وأختم هذه الفقرة بملاحظتين:

الأولى: ظهور سعة محفوظه اللغوي، وهو محفوظ متوثّب حيوي الحركة في

المفردات النوعية التي تساعد على تقديم الفكرة واضحة، وتتيح للشاعرية ألا تقلق أو تضطرب أو تتحجّر. وهكذا كان أسلوبه يتأثر بارتفاع نبرة الكلام في الموضوع المعالج وبحماسة المبدع الذي يفيض مشاعر تنال كلما وقف عند قضية أو موضوع يهتم له، وينفعل به؛ ومثل ذلك كلامه في الوطن والاستقلال، وفي الشام، ودمشق، وفي حضارة العرب عامة، وعصر الأمويين خاصة، وكلامه في اللغة العربية وقضاياها، وفي استفحال أمر كيان العدو الغاصب لفلسطين، وحال الدنيا كما يراها...

والثانية: أنه - في تقديري الذي بنيتُه على قراءة الديوان مرّات - لم يكن في

منهج محمد البزم الفني أن يُعرب في الشعر لكي يظهر علمه بالغريب، وحفظه للغة. لقد انطلق من رؤيته الخاصة لصناعة الشعر وأفقه الأسلوبية الذي اختار التحليق فيه بقوة السيطرة على اللغة لا باستجلابها، ومن هنا لم تكثر في شعره

(٥٥) حماسة أبي تمام بشرح المرزوقي ١: ١٩٩، وهو الحصين بن الحمام المرّي.

(٥٦) ديوان البزم ١: ٢٤٥.

(٥٧) البيت في اللّسان (ش ت ت) ونسبه في الفهارس إلى جميل بثينة، وليس في مجموع شعره.

القوافي الصعاب أو النُقَر، ففي الديوان بجزأيه: قصيدتان على الذال والزاي،
 وواحدة على الشين، والصاد، والضاد، والطاء والظاء والغين، ولم يورد شيئاً على
 قافية الخاء ولا الكاف.

ونقف عند المقطع الثاني عشر من مقاطع مطوّله في رثاء شكيب أرسلان
 (١: ١٥٩) مناسباً بين الألفاظ والمعاني، مقارِباً في «نصّه» ما يلائم الفريد شكلاً
 ومضموناً؛ فقال:

مَهلاً أَمِيرَ الدَّوْلَتَيْنِ وَوَقْفَةً	تَقْضِي حَقُوقَ المَجْدِ غَيْرَ صِغَارِ
وَمُلاعِبِ السِّيفِينَ سِيفِ بِلاغَةٍ	وَفِرَندِ ذِي شُطْبِ لِصَوْنِ ذِمَارِ
وَمَسدِّدِ الرِّمحينَ: رَمَحِ فِصاحَةٍ	وَأخوهِ فِي كِبَدِ الهَزَبِ الضَّارِي
وَمُفَوِّقِ السَّهْمِينَ سَهْمِ حَنِيَّةِ	وَشهابِ داجِيَةٍ وَفِصْلِ حِوَارِ
وَمَظاهِرِ الدَّرَعِينَ جَوْشَنِ غارَةٍ	وَحَبِيكَ قافيةِ لِيومِ حِضارِ
وَمَحَبَّرِ البُرْدِينَ مُهْرَقِ حِكمةِ	وَرِداءِ مَكْرَمَةِ لِساعِ نِفارِ
وَمؤرَّثائِ فِي ظِلِّ أرْعانِ باذِخِ	نارينِ نارِ قَرىِ وَنارِ بَدارِ
وَمُخَلَّفِ الشَّعراءِ دُونَ ثِيَّةِ	يَزَنِيَّةِ الأوطارِ وَالْمَقْدارِ
وَموزِجِ العِزَماتِ فِي الأَزَماتِ لَمْ	تَفْتأ تَداورُ أَمرَها وَتُداري

(٥)

وكان في الشعراء أعلام أعلن محمد البزم إعجابه بهم، وسار في مواكبهم،
 وخصّ بعضهم بقصائد مفردة كالذي صنعه في المتنبي والمعري. وكانت أشعار
 الشعراء الكبار في الأعصر المختلفة بين يدي البزم من الجاهليين والإسلاميين

والأمويين والعباسيين، ووصل إلى أهل الأندلس على قلّة، وما كان بين أيدي الناس من تراثهم المطبوع في النصف الأول من القرن العشرين من التراث الأندلسي.

- وقد نظر إلى أبي تمام في وصفه للقلم حين مدح محمد بن عبد الملك

الزيات (لك القلم الأعلى..) فقال^(٥٨):

مفردٌ يمشي على واحدةٍ بثلاث فوقه لا يأتلينُ
وله إن جال في قرطاسه جولة المَعْلَمِ في الحرب الزبونُ
ووصفُ البزم للقلم طويل.

- وحذا حذو أبي نواس فقال يصف الخمرة^(٥٩):

فلقاح الداء بالداء به يشفى العليلُ
وهو من قول الحكمي^(٦٠):

دع عنك لومي فإن اللومَ إغراءٌ وداوني بالتي كانت هي الداءُ
- وقال يشبه السفن العظام بالجبال^(٦١):

شمٌ تحاول عند الشهب كسوتها عمائمًا فتلوثُ الغيم عربونا
وهذا يشم رائحة قول ابن خفاجة (في وصف الجبل)^(٦٢):

يلوثُ عليه الغيمُ سودَ عمائمٍ لها من وميضِ البرقِ حُمُر ذوائبٍ

(٥٨) ديوان البزم ٢: ٢٦٦.

(٥٩) ديوان البزم ٢: ٩٠.

(٦٠) ديوان أبي نواس ٢: ٣.

(٦١) ديوان البزم ١: ٣٠.

(٦٢) ديوان ابن خفاجة: ٢١٦.

- وقال في قصيدة أخرى^(٦٣):

وقور على هام العصور كأنها وما سئمت طول السفار رواجله°

وهو من قول ابن خفاجة في وصف الجبل^(٦٤):

وقور على ظهر الفلاة كأنه طوال الليالي مطرُق في العواقب

- وقال في قصيدة الجلاء^(٦٥):

حلّق بجوك واخفق أيها العلم فالأفق طلق ووجه الأرض يتسم

ولابن زيدون^(٦٦):

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا

والمتنبي من مثل محمد البزم الشعرية العظيمة، يمرّ بشعره فيستفيد عبارة، أو

لمحة معنى، فيدير ذلك بأسلوبه ومقصده، وقد قال^(٦٧):

ومن مزعجات العيش أو عدوّ تغاديه وحلّ توأزره°

وله صلة بقول أبي الطيب^(٦٨):

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى عدوّ له ما من صداقته بُدّ

- وقال يخاطب المتنبي^(٦٩):

(٦٣) ديوان البزم ١: ١٧٥.

(٦٤) ديوان ابن خفاجة: ٢١٦.

(٦٥) ديوان البزم ١: ٥٧.

(٦٦) ديوان ابن زيدون: ١٣٩.

(٦٧) ديوان البزم ١: ٢٣٣.

(٦٨) ديوان المتنبي: ١٨٤.

(٦٩) ديوان البزم ١: ١٨١.

تمرّست بالآفات لم تشكّ وقعها ولا خدّ في خديك مِ الدّمع جائله
وقد قال أبو الطيب يتحدث عن نفسه^(٧٠):

تمرّست بالآفات حتى تركتها تقول أمات الموت أم دُعر الذعر
- وقال^(٧١):

أعيذ قومي من أن يستبدّ بهم ليل الكرى فيروا لحمًا ولا وضمّ!
ولأبي الطيب^(٧٢):

أيملك الملك والأسياف ظمئة والطير جائعة لحم على وضمّ
وقصيدة (المتنبي) في ديوان البزم من مطوّلاته أولّها^(٧٣):

أجل طلعت راياته وجحافلُه وقامت له في كل صقع جحافلُه
وساقت له أم النجوم كتائبًا مواكب تُحبي ليله وتغازله
وصفّ له نعش السماء بنايته سوافر تستهوي له من يزايله

وبالمناسبة فإن كناية (أم النجوم) هي في شعر تأبط شرا، وفسرها المرزوقي
بالمجرة وبالشمس، وفسرها ابن السيد البطليوسي الأندلسي بالثريا. وهي
المقصودة في تقديري في الشعرين^(٧٤).

(٧٠) ديوان المتنبي: ١٧٥.

(٧١) ديوان البزم ١: ٦٣.

(٧٢) ديوان المتنبي: ٣٣.

(٧٣) ديوان البزم ١: ١٧٥.

(٧٤) انظر ديوان تأبط شرا - جمعه وحققه علي ذو الفقار شاكر - دار الغرب الإسلامي (١٤٠٤ - ١٩٨٤) ص ١٥٦، وانظر حماسة أبي تمام بشرح المرزوقي القصيدة ١٣، وشروح سقط الزند ٢١٣، وثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي: ٢٥٦.

ومطلع قصيدته في المعري كمطلع هذه القصيدة، وعلى وزن^(٧٥):
 أجل هويوم الشعر تطغى وتوقظ أسماع الزمان منابرُه
 واستفاد من المتنبي الجزالة، وشيئاً من الفخامة، وتابعه في عدم الاكتراث
 بالنقّاد وهم يعترضون على بعض مفرداته، وعباراته، وصوره، ومعانيه...
 واستفاد من المعري، وقد نظم بعض شعره على طريقته في اللزوميات، كقوله
 في قصيدة «لنا لغة»^(٧٦).

لنا لغة عن سالف المجد تُعربُ فله ما أبقي معدُّ ويعربُ
 كستها بنان العبقريّة حليّة تميّد لها غلبُ العقولِ وتطربُ
 فقد أضاف (الراء) إلى ما التزمه في القافية (الباء)

- وكقوله في قصيدة (صورة)^(٧٧):

ومضلل يهوى الثراء فدهره متقلب بقوالب الأسبابِ
 ذو حليّة شهباء تحت عمامة لألاء لغوايئة الألبابِ
 ذو خفة عبثت به شيخوخة مزلجت بماء كهولة وشبابِ

- فإنها من أسلوب لزوم مالا يلزم.

وارتبط البزم في بعض تشاؤمه بإعراض المعري عن الحياة وتركها تركاً قاصداً. على

أن هذا يخص المعاني والمقاصد الشعرية مما يحتاج إلى بحث مستقل؛ وانظر قول البزم^(٧٨):

(٧٥) ديوان البزم ١: ١٨٧.

(٧٦) ديوان البزم ١: ٢٣٠.

(٧٧) ديوان البزم ٢: ١٠.

(٧٨) ديوان البزم ٢: ٢٣.

طال سُخْطِي على الحياة فويلٌ لغيِّين في الورى أوجداني
ضقتُ ذرعًا بظلم هذي الليالي وبنيتها من نازحٍ ومُدانٍ
وهذا من قول المعري^(٧٩):

هَذَا جِنَاهُ أَبِي عَلِيٍّ .. سِيٍّ وَمَا جَنَيْتُ عَلَى أَحَدٍ
- ونلاحظ عبارة (الغيين) في شدتها وقسوتها.

وللبزم إعجاب بشوقي وحافظ. وهو يتولّى أحمد شوقي مُعجَّبًا به، وقد

عارضه في بعض قصائده كقوله^(٨٠):

وثبت تطالب بالسفور حسناء معدمة النظر
وعارض قصيدته الأندلسية^(٨١):

يا نائح الطلح أشباه عوادينا نأسى لواديك أم نأسى لوادينا
ومن الطريف استفادته من بيت ذائع لصديقه خير الدين الزركلي:

لو مثلوا لي موطني وثنا لهممت أعبد ذلك الوثنا
فقال هو يذكر يوم الجلاء^(٨٢):

لو كنت في عهد آباء لنا في الجاهلية لم يُعبد لها صنم!
فالزركلي انشغل بالمكان (الوطن) والبزم اشتغل بالزمان (يوم الجلاء).

(٧٩) البيت شائع في تراجم المعري (انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ١٥٦ ومواضع كثيرة).

(٨٠) ديوان البزم ١: ٢٧٩.

(٨١) ديوان شوقي ١: ١٤٧.

(٨٢) ديوان البزم: ٥٧.

(٦)

من الملامح الأسلوبية ذات الأهمية في ديوان البزم أمورٌ لم ينبّه عليها دارسو شعره؛ وهي جديرة بالملاحظة لأنها تكمل الصورة أولاً، ولأنها تخفف الغلواء اللغوي والأسلوبي الذي يوصف به شعر البزم.

أ) نظم البزم منظومةً خالف فيها في الوزن بين صدر البيت وعجزه، على نهج سلك مثله شعراء كثرٌ في سورية والمهجر الذين طوّروا نظام الموشح، واستفادوا منه.

قال البزم^(٨٣):

طلعتُ والشمس في صفرتها يحتويها المغربــــــــــــــــانُ
فاختفى التبر حياءً وانجلي عن لجين وجهانُ

وهذا خارج عن عروض الشعر العربي التقليدي.

ب) ونظم الرجز على نظام المزدوج الذي انتشر في العصر العباسي،

كقوله^(٨٤):

كم لي وحُرّ الشمس في أغياي ما يطرب الأيام والليالي
تشدو به القيان في النوادي وتشربن نحو الهوادي
يعبث من أهل النهى بالهام ويحدث النشوة في الأوهام

- وتلاحظ غرابة الألفاظ في الأبيات، وهي تلائم بحر الرجز الذي كان

موصولاً قديماً بالبداوة.

(٨٣) ديوان البزم ١: ٢٩٠.

(٨٤) ديوان البزم ١: ٣١٧.

ج) وجرى محمد البزم محمود سامي البارودي، وأحمد شوقي (الذي تابع البارودي) فنظم على وزن لم يُستعمل من قبل، وعُدَّ تجديدًا، وذلك قول البزم تحت عنوان «أفكوهة»^(٨٥).

صـابـرَ القـدَرُ وازدرى الخـبـرُ

ثـائـرَ الحـشـا ثائـرَ الفـكـرُ

وأول قصيدة البارودي^(٨٦):

امـلأ القـدَحَ واعص من نصـح

وازو غلَّـتـي بانبنة الفـرح

ومطلع قصيدة أحمد شوقي^(٨٧):

مـالَ واحـتـجـبُ وادّعى الغـضـبُ

- ووزن الشعر «فاعلن فعل». قال محققا ديوان البارودي: هذه القصيدة

من مجزوء المتدارك، ولم تنظم العرب على هذا الوزن فيما نعلم.

د- كثرت في الجزء الثاني من ديوان البزم القصائد القصيرة، والقطع،

وفيهما عددٌ من «القصائد» تتعدد فيها القوافي. كل بيتين يختصان بقافية، وأغلبها

جاء على مجزوء الرمل، ومنه تحت عنوان مملكة الشعر^(٨٨).

غـرـبـتُ شـمـسـيَ إـلـا لهبـة فـي ذـا الشَّفـقِ

(٨٥) ديوان البزم ١: ٢٣١.

(٨٦) ديوان البارودي، تحقيق علي الجارم وتحقيق محمد شفيق معروف - دار المعارف بمصر: ١١١.

(٨٧) ديوان شوقي ١: ٤٩.

(٨٨) حاشية ديوان البارودي: ١١١.

ترشد الهمَّ إلى قلـ ... سبي وتذكي بي الحُرْق
وتواري البدرُ إلا قبساً في النيِّراتِ
نبّهت من لاعج الشِّـ ... وق وأذرت عـبراتي
غنّ يا صدّاح فالأفـ ... قُ لنا ملكٌ ثمينُ
وكذا الأفلاك ملك الشـ ... عراء النابهيين
أيقظ العود وهج نخـ ... وة هذا الوادع
فعسى يعمل كفيـ ... به بقيد الخادع

هـ) وفي شعر البزم، في مواضع متفرقة من ديوانه، استفادةٌ قاصدةٌ من الألفاظ الشائعة

الدارجة، ومن الثقافة الشعبية الدمشقية في أسواقها ودكاكينها، ومع الزبائن من كل نوع..

- قال البزم^(٨٩):

فلو سمعوا عن أحق القوم « بخرفشةٍ » شدّوا إليها وبكروا
وفي محيط المحيط (خ ر ف ش): « خرفش الشيء: خلطه فهو مخرفش وذلك
مخرفش. والعامّة تقول: فلان يخرفش في كلامه أي: يأتي بكلام غير مهذب » وينظر
معجم دوزي: تكملة المعاجم العربية^(٩٠).

وأورد البزم الكلمة على وجه آخر « خرفشَف »، قال^(٩١):

كلف بخرفشة النحاة مخادع باليئونات وسابغ الجلباب

(٨٩) ديوان البزم ١: ٢٢٨.

(٩٠) تكملة المعاجم العربية ٤: ٦٦.

(٩١) ديوان البزم ١: ١١.

وفي اللغة خرشف القوم: تحركوا واختلط كلامهم؛ فالأولى أخذها عن الدارجة، والثانية من الفصح.

- ومن طريف هذا الجانب قوله من قصيدة عنوانها «ذهبت ذقنك»^(٩٢):

ذَهَبْتُ ذَقْنَكَ مَرَشًا فَاحْتَكَمَ لِي تَعَطُّ أَرَشًا
فَجَزَاءُ الْمُعْتَدِي بِالْ— ... مَرَشٍ أَنْ يَغْرَمَ قَرَشًا! ..

وعبارة: «ذهبت ذقنك مرشا» عبارة شامية ما تزال شائعة، تُقال فيمن فاته حظٌّ

من دعوةٍ أو جائزة أو إكرام وما شابه، وعبارتهم الأصلية «راحت ذقنك مرش».

- وقال في قصيدة «دواء الهرم»^(٩٣):

أَسْمَعُ الْمُحْزُونَ مِنْ لِحْ ... نِيكَ مَا يُجِيئِي الرَّمَمُ
وَيَرُدُّ الشَّرْخَ لِشْ ... شَيْخٍ وَيُودِي بِالْهَرَمِ!

والإشارة واضحة إلى كتاب شائع في الطبقات الشعبية (ويوجد في غيرها):

«رجوع الشيخ إلى صباه»^(٩٤).

ويؤكد هذا الفهم قوله في موضع آخر^(٩٥):

عَشِقَ النَّهْرُ مِنَ الْأَيْ ... كِ غُصُونًا وَقُدُودًا

- وفيه إشارة إلى كتاب على النسق المذكور.

(٩٢) ديوان البزم ٢: ٣٠.

(٩٣) ديوان البزم ٢: ٩٥.

(٩٤) نسب الكتاب إلى التيفاشي وغيره.

(٩٥) ديوان البزم ٢: ٩٥.

وقال في قصيدة «أجل نعم»^(٩٦):

«ولم يمت من قد نَجَلُ»

وهذا من قول الناس: «من خلف ما مات»^(٩٧).

وقال في الهجاء^(٩٨):

يا عَظْمَةَ الدَّسْتِ قد أوقرت براكِدٍ سال من شِدْقَيْكَ مسنونا

والدَّسْت تستعمل في الدارجة الشامية لمعنى القدر الكبير، وقوله يا «عظمة

الدست» إشارة إلى مثل شعبي: «ما يقرقع بالدست إلا أوشم العظام»^(٩٩)، إن

العظمة التي تصدر صوتاً عند التحريك هي عظمة لا لحم عليها فهي قليلة الفائدة.

يشبه به الرجل له جلبه وصوت ولا فعل له!

- وقرأ فيما يكتب ويُعلّق على الجدران في المحالِّ والدور «يقيني بالله

يقيني»، فقال^(١٠٠):

فيقيني أن الردى سيقيني وقفه الهون في فناء اللئيم

- ووصف الحظَّ بالأسود كوصفِ الناس^(١٠١):

فضلُّ كما تهوى العُلا زاهٍ، وحرَّظُّ أسوداً!..

(٩٦) ديوان البزم ٢: ٧٦.

(٩٧) والمثل باقعل ألسنة الناس في الشام وغيرها.

(٩٨) ديوان البزم ٢: ٩٩.

(٩٩) وقولهم «أوشم» أي أسوأ. وأصل الكلمة العامية من الشؤم الفصيحة ثم بدلوا وحرّفوا.

(١٠٠) ديوان البزم ١: ١٧٢.

(١٠١) ديوان البزم ١: ٢٢٥.

(٧)

وفي شعر البزم قصائد ومقاطع يميل فيها إلى الأسلوب السهل، وإن كان مستمرًا على متانة العبارة وقوة السبك متجاوزًا اللفظ الغريب البعيد، مكثفًا بالقرب المتداول، كقوله من قصيدة عنوانها: طرح الضمير^(١٠٢):

أوزيرُ ما أنتَ المُمتُّ ... تتعُّ بالبقاء على السريرِ
أنتَ الأسيرُ ولو دُعمُ ... ستُ من الملوك بأزدشيرِ
ولربِّ عاريةٍ سعتُ ... رغمَ المَعَارِ إلى المَعيرِ
يا هُجْنَةَ الفلكِ المُدا ... ر، حذارِ من غضبِ المديرِ
واحذرْ وقد عقلَ الزما ... ن، وناوأَتك يَدُ المشيرِ
وخرجتَ من غضبِ الضميرِ ... ير على أقلَّ من النقييرِ
من أن تبيتَ ولست في الـ ... عيرِ الخطيرِ ولا النفيرِ
أو أن يقال هوى الوزيـ ... رُ من السريرِ إلى الحصرِ

ويكثر مثل هذا في الجزء الثاني من الديوان.

(٨)

هذه إلمامة بقضية اللغة والأسلوب في شعر محمد البزم، وهي إلمامة مألوفة بما يتاح عادة لبحث في مجلة أو دورية. ولكنها تفتح الباب لدراسة شاملة لشعر محمد البزم: استيفاءً واستقصاءً، وموازنة، ومقارنة؛ فإن ما كتب عنه، على أهميته، وإضاءته، هو أيضًا بداية. فالبزم يحتاج إلى:

١- تحقيق ديوانه: بالمعنى المعروف لكلمة التحقيق: تقديمًا وتدقيقًا، وذكرًا للمناسبات، وكشفًا عن مقاصد الإشارات، وربطًا بين الشعر والشاعر، وشرحًا لما يحتاج إلى شرح من ألفاظه، وإيضاحًا وتبيانًا لما يحتاج إلى إيضاح وتبيان، من سائر نظمه.

٢- دراسة شخصية الشاعر من أخباره من جهة ومن ديوانه من جهة أخرى على منهج علمي، في دقة وأناة؛ وعسى أن يكون ذلك من باحث متمكن متمرس، فإنه لا يصح أن يكون ذلك رسالة جامعية (على ما نرى من أكثر الرسائل).

٣- دراسة شعره دراسة مفصّلة.

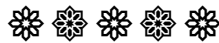
٤- دراسة ما يُلتقط من آثاره النثرية.

وإذا كنتُ قد عرضت لجوانب في شعر البزم وحياته لم يقف عندها الدارسون من قبل - وخاصة فيما يتعلق بالوجه الآخر من لغته وأسلوبه - فإنها تحتمل الإضافة والإفاضة، وتحتاج إلى استقصاء لا تحتمله صفحات البحث المحدودة.

مِصْرَاوَرُومِرَّاجِعُ البَحْتِ

- (١) الأدب العربي المعاصر في سورية - سامي الكيالي - دار المعارف بمصر ط ٢ - ١٩٦٥ م.
- (٢) الأعلام - خير الدين الزركلي - دار العلم للملايين - ١٩٩٧ م.
- (٣) تكملة المعاجم العربية - رينهارت دوزي - ترجمة محمد سليم النعيمي، وأكمل الترجمة جمال الخياط، وزارة الثقافة والفنون - بغداد - ١٩٧٦ - ٢٠٠١ م.
- (٤) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار النهضة بمصر - القاهرة - ١٩٦٥ م.
- (٥) جهرة الأمثال لأبي هلال العسكري - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش - دار الجليل - بيروت - ١٩٨١ م.
- (٦) حماسة أبي تمام (بشرح المرزوقي) - تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة.
- (٧) ديوان البارودي - (محمود سامي باشا البارودي) حققه وضبطه وشرحه علي الجارم ومحمد شفيق معروف - دار العودة - بيروت - ١٩٩٢ م.
- (٨) ديوان البزم - بعناية سليم الزركلي وعدنان مردم بك - المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية - دمشق - ١٩٦٠ م.
- (٩) ديوان تأبط شرا - صنعه علي ذو الفقار شاعر - دار الغرب الإسلامي - ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.
- (١٠) ديوان جميل بثينة - جمعه د. حسين نصار - مكتبة مصر - القاهرة. غير مؤرخ.

- (١١) ديوان ابن خفاجة - تحقيق السيد مصطفى غازي - منشأة الإسكندرية - مصر - ١٩٦٠ م.
- (١٢) ديوان الزركلي - مؤسسة الرسالة - ١٩٨٠ م.
- (١٣) ديوان ابن زيدون - عناية علي عبد العظيم - مكتبة نهضة مصر - القاهرة - ١٩٥٦ م.
- (١٤) ديوان شوقي - عناية د. أحمد الحوفي - نهضة مصر - القاهرة. غير مؤرخ.
- (١٥) ديوان أبي الطيب المتنبي - تحقيق د. عبد الوهاب عزام - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٤٤ م.
- (١٦) ديوان عبد القادر بدران (تسليمة الكئيب عن ذكرى الحبيب) - اعتنى به نور الدين طالب دار النوادر - دمشق - ٢٠٠٧ م.
- (١٧) ديوان الفرزدق - تحقيق عبد الله الصاوي - المكتبة التجارية - القاهرة - ١٩٣٦ م.
- (١٨) ديوان النابغة الذبياني بشرح الأعلام الشتمري الأندلسي - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف بالقاهرة - غير مؤرخ.
- (١٩) ذكريات - علي الطنطاوي - دار المنارة للنشر - جدة - ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
- (٢٠) شروح سقط الزند للمعري - لجنة من المحققين بإشراف د. طه حسين - طبعة الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- (٢١) الشعراء الأعلام في سورية - د. سامي الدهان - مكتبة الأنوار - بيروت - ١٩٦٦ م.
- (٢٢) شعراء سورية - أحمد الجندي - دار المكشوف - بيروت - ١٩٦٥ م.
- (٢٣) محمد البزم - د. إبراهيم الكيلاني - منشورات مجلة الثقافة - دمشق. غير مؤرخ.



الشُّعراءُ المَوْسُوسُونَ في التُّراثِ العربيِّ

أ.د. أحمد علي محمد (*)

المُقدِّمة:

الشُّعراءُ المَوْسُوسُونَ في تراثِ العربِ فِئَةٌ غيرُ قليلةٍ، أسهمتِ إسهامًا واسعًا في إثراءِ ذلكِ التراثِ، ومن هنا آثرنا الوقوفَ عندَ بعضِ شعرائها، وفي ظننا أنَّ ذلكَ الصنيعَ يَنفَعُ التصنيفَ النَّقديَّ الذي يهتَمُّ بالخصائصِ العامَّةِ للأدبِ، ولاسيما أنَّ هؤلاءِ الشُّعراءَ جمعتَ بينهمُ آفةُ الوسوسةِ، وهو أمرٌ لا بُدَّ أنه تاركٌ في نتاجهم سماتٌ خاصةٌ توحدُ بينهمُ على اختلافِ مشاربهم وتواليِ عصورهم الأدبيةِ. ولا تُعدُّ الوسوسةُ سمةً بحدِّ ذاتها إلا بمقدارِ صلتها بالفنِّ نفسه، ذلكَ لأنَّ الفنَّ من وجهةِ نظرِ نفرٍ من الباحثينِ منوطٌ بالإلهامِ، وليس ذلكَ فحسبَ بل إنَّ المخيلةَ العربيةَ وجدتْ منذَ القدمِ أنَّ من يبعثُ الشُّعرَ في الأنفسِ شيطانٌ ينفثُ على الألسنةِ كلامًا ساحرًا، من أجلِ ذلكَ جعلتْ لكلِّ شاعرٍ شيطانًا أو تابعًا أو رئيًّا يُلهمه الكلامَ الجميلَ، قال الجاحظُ: «يزعمون أنَّ مع كلِّ فحلٍّ من الشُّعراءِ شيطانًا يقولُ على لسانه الشُّعرَ، وزعمُ البهرانيِّ أنَّ الجنيَّةَ بنتَ عمروٍ صاحبةُ المخبلِ، وأنَّ خالها مسحَلٌ

(*) عضو الهيئة التدريسية في كلية الآداب بجامعة دمشق.

شيطان الأعشى»^(١)، ومن هنا كانت الوسوسة منوطة بالشعر، لأنّ الوسواس في اللّغة هو الشيطان نفسه، والشاعر الموسوس هو من وسوس له الشيطان بالشعر، وقال ابن الأعرابي: يقال: رجلٌ موسوس (بكسر الواو)، ولا يقال رجل موسوس (بفتحها)، وفي اللّغة أيضاً الوسوسة والوسواس: الصوت الخفي من ريح، والوسواس صوت الحلي، والوسوسة حديث النفس، والوسواس صوت الصائد...^(٢).

الوسوسة ضرب من الجنون، قال الجاحظ: «ومن المجانين الموسوسين ابنُ قنّان وصباح الموسوس وديسيموس اليوناني، وأبو حية النميري وأبو يس الحاسب وجعيفران الشاعر وجرنفش وسارية الليل وريطة بنت كعب بن سعد بن تيم بن مرة، وهي التي نقضت غزلها أنكاثاً، فضرب الله تبارك وتعالى بها المثل، وهي التي قيل لها خرقاء، ومنهم دُغةٌ وجُهيزةٌ وسُولةٌ ودُرّاعة القديد المعدية»^(٣). وهؤلاء ليسوا جميعاً من الشعراء، وأمّا شعراء الوسوسة في التراث العربي فمنهم سيبويه الموسوس، وجعيفران الموسوس، وماني الموسوس، وخالد الموسوس، وأبو حية النميري، وأبو الغصن الموسوس، وبرذعة الموسوس، وطرة الموسوس، وشحطون الموسوس، والفيرزان الموسوس، وابن دانق الموسوس، ومصعب الموسوس، وجساس الموسوس، وأبو الفضل الموسوس، وأبو حيان الموسوس، فسير هؤلاء وما روي لهم في المصادر من أشعار تُمثّل مادة هذا البحث.

(١) الجاحظ (الحيوان): ١٦٦/٣.

(٢) ابن منظور (لسان العرب) م: وسس.

(٣) الجاحظ (البيان والتبيين): ٤٠١/٢.

١- أبو بكر الموسوس المعروف بسيبويه:

ليست هنالك معلومات توضح جوانب حياة أبي بكر هذا، وكانت كتب قليلة قد رددت ذكره وشذرات من أخباره، من أهمها كتاب «يتيمة الدهر للثعالبي»، وقد جاء فيه أنه شاعرٌ من البصرة، كان قد هاجر إلى مصر، وعاش في زمن كافور الإخشيدي والوزير ابن حنزابة، وكان كثير الانتقاد لابن حنزابة ولأهل مصر عامة كما سنرى، وإذا كان ابن حنزابة قد عاش ما بين عامي ٣٠٨ هـ و٣٩١ هـ، فهذا يعني أن سيبويه الموسوس من رجال القرن الرابع الهجري، وقد أشار الثعالبي إلى أنه تناول البلاذر^(٤) فعرضت له لوثة في عقله^(٥)، فكانت تلك الحادثة فيما يبدو وراء انطلاق لسانه لذم الكبراء وانتقاد سلوكهم من دون حساب، ويذكر الثعالبي أن سيبويه الموسوس «في حضور جوابه وبيان خطابه وحسن عبارته وكثرة درايته يشبه بأبي العيناء»^(٦).

كان سيبويه كثير الانتقاد لأهل مصر كما سبقت الإشارة، فقد قال لهم: «أصحابنا البغداديون أحزم منكم، لا يقولون باتخاذ الولد حتى يقتنوا له العقد

(٤) زعموا أن البلاذر وهو نبات يصلح العقل ويورث الحفظ (الحيوان للجاحظ ٣/ ٢١١)، وذكر الياضي في كتابه مرآة الجنان: أن جماعة من الفقهاء في المدرسة النظامية ببغداد اتفقوا على استعمال حب البلاذر لأجل سرعة الحفظ والفهم، فاجتمعوا ببعض الأطباء وسألوه عن مقدار ما يستعمل منه وكيف يُستعمل، ثم اشتروا المقدار الذي قال لهم الطبيب الجاهل فشرّبوه في موضع خارج المدينة فحصل لهم الجنون.

(٥) الثعالبي (يتيمة الدهر): ٣٨٨/٢.

(٦) المصدر السابق. أبو العيناء هو محمد بن القاسم مولى بني هاشم توفي سنة ٢٨٣ هـ، يعد من أظرف الشعراء وأكثرهم ذكاء، عمي بعد بلوغه الأربعين، وكان معاصراً للخليفة المتوكل.

والعدد، فهم أبداً يعزبون ولا يقولون بانخاذ العقار خوفاً من أن يملكهم شر الجار، فهم أبداً يكتزون ولا يقومون بإظهار الغنى في موضع عُرفوا فيه بالفقر...»^(٧)، ويبدو أنه لم ينل حظوة عند أهل مصر سواء أكانوا من الكبراء أم من الدهماء، لكثرة انتقاده لهم، وتسخطه أحوالهم، ومع ذلك لم تُرو له أخبار في غيرها من الأمصار، مما يشير إلى أن حياته انقضت فيها، مع كثرة تبرمه بأهلها، فروي أنه قال: «يا أهل مصر حيطان المقابر أنفع منكم، يُستند إليها، ويُستدرى بها من الريح، ويُستظل بها من الشمس...»^(٨). وكذلك كان كثير التهكم بالوزير ابن حنزابة^(٩)، فقيل إنه لما رآه بعد موت كافور، وقد ركب في موكب عظيم، قال: ما بأل أبي الفضل قد جمع كُتابه ولفق أصحابه وحشد من بين يديه حُجَّابه، وشمر أنفه وساق العساكر خلفه، أبلغه أن الإسلام طُرِق، أو أن ركن الكعبة سرق...»^(١٠).

وأما أشعاره فنادرة، إذ لم ننع في المصادر التي توفرت لدينا، إلا على قطعة صغيرة من شعره، مؤلفة من ثلاثة أبيات يعتذر فيها عن رداءة خطه، وهي من المقطعات الطريفة، يقول فيها:

اعذرُ أخاكَ على رداءة خطه	واغفرُ رداءته لجودة ضبطه
فالخطُّ ليس يُرادُّ من تحسينه	وبيانه إلا إبانة سمطه
فإذا أبان عن المعاني سمطه	كانت ملاحظته زيادةً شرطه

(٧) المصدر السابق.

(٨) المصدر السابق.

(٩) ابن حنزابة هو جعفر بن الفضل الوزير المحدث، ولي الوزارة في عهد أحمد بن علي الإخشيدي بعد وفاة كافور.

(١٠) الصفدي (الوافي بالوفيات) ٣٥٥ / ٥.

وخلاصة القول في شخصية سيبويه الموسوس: أن العاهة التي ألت به على حدّ زعم الثعالبي، كانت وراء تخطيه الحدود، لا بل جعلته يتنبه على لون من الكلام النقدي الذي يصور من خلاله عيوب المجتمع الذي عاش فيه، غير مكترث بمن صدر عنه العيب سواء أكان من العامة أم من الخاصة .

٢- جعيفران الموسوس:

اسمه جعفر بن علي السري المعروف بجعيفران الشاعر، ولد ببغداد ونشأ فيها^(١١)، وقيل بالكوفة^(١٢)، وأبوه من أبناء خراسان، وذكر ابن الجوزي أنه من أهل الفضل والأدب، كان قد وسوس في أثناء عمره^(١٣)، ويبدو أنه عاش في القرن الثالث الهجري لخبر ذكره ابن منظور، فحواه أن جعيفران أتى أبا دُلف العجلي قائد جيوش المأمون والمعتصم من بعده، المتوفى سنة ٢٢٥هـ، «واستأذن عليه وعنده أحمد بن يوسف، فقال الحاجب: جعيفران بالباب، فقال له أبو دلف مالنا وللمجانين؟ فقال له أحمد بن يوسف: أدخله، فلما دخل قال^(١٤):

يابن أعزّ النَّاسِ مفقودا وأكرم الأُمّة موجدودا
لما سألت النَّاسَ عن واحدٍ أصبح في الأُمّة محمودا
سأقت كثير من مصادر الأدب نواذر جعيفران وأشعاره، فمن نواذره أن رجلاً أعطاه درهماً فقال^(١٥):

(١١) ابن الجوزي (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم): ٥٢٢.

(١٢) ابن عبد ربه (العقد الفريد): ٣/ ٣٩٩.

(١٣) ابن الجوزي (المنتظم...): ٥٢٣.

(١٤) ابن منظور (مختصر تاريخ دمشق): ٦٢٢.

(١٥) ابن عبد ربه (العقد الفريد): ٤/ ٤٦٩.

عادني الهـمُّ فاعتلج كلُّ همٍّ إلى فرج
سأل عنك الهموم بالـ كأس والراح تنفرج
ومن طرائف أشعاره قوله^(١٦):

ما جعفرٌ لأبيه ولا لله بشبيه
أضحى لقومٍ كثيرٍ فكأهم يدعيه
هذا يقولُ بُنيي وذا يخاصم فيه
والأم تضحكُ منهم لعلمها بأبيه

كان جعيفران فطناً حاضر الجواب، خفيف الروح، فقيل إنه « استأذن على بعض الملوك، فأذن له، وحضر الغداء فتغدى معه، فلما كان من الغد استأذن فحجبه، ثم أتاه في الثالثة فحجبه، فقال^(١٧):

عليك إذنُ فإننا قد تغدنا لسنا نعود وإن عدنا تعدنا
يا أكلةً ذهبتُ أبقثُ حرارتها داءٌ بقلبك ما صمنا وصلنا

لا تختلف شخصية جعيفران عن شخصية سيويه الموسوس من حيث الطرافة والعموية، والظاهر أنهما أجريا شعرهما في تصوير حالهما من دون الالتفات إلى الموضوعات التي كانت تشغل الشعراء، ولهذا مؤشر مهم، وهو أن الشعر لدى الموسوسين لا ينمُّ إلا على تصوير الذات في أثناء تفاعلها الاجتماعي، ومن هنا تنشأ المفارقات الأدبية التي تدعو إلى الإضحاك الناجم عن وصف سلوك غير مألوف.

(١٦) المصدر السابق.

(١٧) المصدر السابق.

٣- مانيُّ الموسوس:

هو محمد بن القاسم من أهل مصر كما ذكر غير واحد من الأدباء الذين ترجموا لسيرته، وكانت المصادر قد احتفلت بأخباره وأشعاره على نحو لم يكد يتحقق لسائر الشعراء الموسوسين، فذكر صاحب الأغاني أنه لين الشعر لم يقل شيئاً في غير الغزل^(١٨)، وقال الصفدي: «كان من أظرف الناس وألطفهم»^(١٩)، وقد قدم بغداد في أيام المتوكل، وله أخبار طريفة مع الأمراء والكبراء، توفي سنة ٢٤٥ هـ.

ومن غزله الرقيق قوله:

من الطباءِ ظباءٌ هَمَّها السَّحْبُ	ترعى القلوبَ وفي قلبي لها عشبُ
أفدي الطباءَ اللواتي لا قُرونَ لها	وحلِيها الدُّرُّ والياقوتُ والذهبُ
يا حُسْنَ ما سرقتُ عيني وما	والعينُ تسرقُ أحياناً وتنتهبُ
فتلك من حُسْنِ عَيْنِها وهبتُ لها	قلبي فلو قِيلَتْ مِنِّي الذي أَهَبُ
وما أريدُهما إلا لرؤيتِها	فإن تَأَبَّتْ فَمَالي فيهما أربُ
إذا يدُ سرقتُ فالحدُّ يقطعُها	والحدُّ من سرقِ العينين لا يَجِبُ

عدَّ النيسابوري مانيَّ من عقلاء المجانين، فنقل ما رواه الأصفهاني لما دعاه محمد بن عبد الله بن طاهر لمنادمته، فقال له: «قد آن لك أن تزورنا على شوقنا إليك، فقال: أصلح الله الأمير، الشوق شديد، والمزار بعيد، والود عنيد، والحجاب صعب، والبواب فظّ، لو سهل لنا الإذن، لسهلت علينا الزيارة. فأمر بالجلوس،

(١٨) الأصفهاني (الأغاني) ٤٦٦/٨.

(١٩) الصفدي (الوافي بالوفيات) ٣٨٠/٤.

ثم غنت بنوسة بيتين لأبي نواس:

يا خليلي ساعة لا تريا وعلى ذي صباية فأقيما
ما مررنا بدار زينب إلا فضح الدمع سرنا المكتوما

فقال ماني: والله لولا رهبة الأمير لأضفت إلى هذين البيتين بيتين لا يردان

على سمع ذي لب، فقال (٢٠):

ظبية كاهلال لو تلحظ الصخ ر بطرف لفارقت هشيما
وإذا ما تبسمت خلت ما تب دي من الثغر لؤلؤا منظوما

ومن ذلك أيضا إجازته بيتين لأبي العتاهية غنتهما أنوسة في مجلس محمد بن

عبد الله بن طاهر، وهما:

حجبوها عن الرياح لأني قلت ياريح بلغيتها السلا ما
لورضوا بالحجاب هان ولكن منعوها يوم الرياح الكلاما
فقال ماني:

فتنفست ثم قلت لطيفي ويك إن زرت طيفها إماما
خصة بالسلا منى وأخشى يمنعوها لشقوتي أن تناما

وقيل له أيضا أجز هذين البيتين في المغنية أنوسة:

لم تطب اللذات إلا بمن طابت بها اللذات أنوسة
غنت بصوت أطلقت عبرة كانت بسجن الصدر محبوسه

فأجازها ماني بقوله:

وكيف صبرُ النَّفوسِ من غادةٍ أظلمُها إن قلتُ طاووسه
وَجُرْتُ إن سَمِيَّتْها بانهً في جنَّةِ الفِرْدَوْسِ مَعْرُوسه
جلتُ عن الوصفِ فما فِكْرُهُ تلحقُها في الوصفِ محسوسه

وواضح أن ماني قد مهر في الإجازة وهي بناء بيت أو أكثر على بناء سابق، بغية زيادة المعنى وإشباعه للإطراف، وهو فن مألوف عند الشعراء، ارتبط بأدب السمر والمجالس واللهو .

٤- خالد بن يزيد الموسوس:

هو أبو الهيثم خالد بن يزيد الكاتب التميمي الخراساني، كان أحد كتاب الجيش في بغداد في عهد الخليفة المعتصم بالله، وكان معاصرا لأبي تمام الطائي، وهو من الشعراء المجيدين الكثيرين، له ديوان شعر مطبوع، ويكاد شعره أن يقتصر على الغزل، توفي نحو سنة ٢٦٢ هجرية.

ذكر غير واحد من الأدباء والمؤرخين أن خالد بن يزيد الكاتب بعدما أسن دق عظمه ورق جلده فوسوس^(٢١)، فحكى أبو الحسن علي بن محمد بن مقله، على نحو ما يورد ابن خلكان، قال: حدثني ابن عمي قال: اجتاز خالد الكاتب وأنا على باب داري بسر من رأي والصبيان حوله يولعون به، فجاء إليّ وسألني صرفهم عنه ففعلت، وأدخلته داري فقلت له: ما تشتهي تأكل؟ قال: هريسة، فتقدمت بإصلاحها له، فلما أكل قلت له: أي شيء تحب بعد هذا؟ قال: رطب، فأمرت بإحضاره فأكل، فلما فرغ قلت: أنشدني شيئاً من شعرك فأنشدني قوله^(٢٢):

(٢١) ابن خلكان (وفيات الأعيان): ٣١١ / ٧.

(٢٢) المصدر السابق.

تناسيتُ ما أوعيتُ سمعَكَ يا سمعي
 أما عندَ عينيكَ اللّتينِ هُمَا هُما
 فإن كنتَ مطبوعاً على الصدِّ والجفا
 فإن يكُ أضحى فوقَ خديكَ روضةً
 كأنك بعدَ الضرِ خالٍ من النفعِ
 لمكتتبٍ يرجوكَ شيئاً سوى المنعِ
 فمن أين لي صبرٌ فأجعله طبعي
 فإنَّ على خدي غديراً من الدّمعِ
 ومن روائع شعره قوله:

بكيْتُ دمّاً حتّى بقيتُ بلا دمِ
 أبكي الذي فارقتُ بالدّمعِ وحدهُ
 بكاءً فتى فردٍ على شجنٍ فردِ
 لقد جَلَّ قدرُ الدّمعِ فيه إذن عندي
 وقوله:

رقدتَ فلم تَرثِ للساهرِ وليلُ المحبِ بلا آخر

يمتاز شعر خالد الكاتب عامة برقة متناهية، ذلك لأنه من شعراء الغزل، بما فيه الشعر الذي روي عنه بعد وسوسته، ولم تكن سيرته الأولى كسير الشعراء الموسوسين الذين ذكرناهم آنفاً، إذ لم يُعرف عنه هزؤ أو تطاول كما هو الشأن عند الموسوسين عامة، لأنه كان ذا شخصية متزنة وعقل راجح، من أجل ذلك كان كاتباً في الجيش، ولكنه بعد أن كبر وشاخ ألت به الوسوسة فعده الأدباء لهذا السبب من الشعراء الموسوسين.

٥- أبو حية النميري:

أورد الأصفهاني لأبي حية ترجمة واسعة في الأغاني، فقال: هو الهيثم بن الربيع بن زرارة، ثم أثنى عليه ثناءً جميلاً، فذكر أنه شاعر مجيد مُقدّم فصيح في رجزه وقصيده، وهو ممن سكن البصرة، ومن شعراء نخضرمي الدولتين الأموية

والعباسية، ثم ذكر من مثالبه أنه كان أهوج جباناً بخيلاً كذاباً، لا بل كان عنده من أكذب الناس^(٢٣).

وذكر ابن جني أنه كني بأبي حية نسبة إلى واحدة الحيات، أو إلى حيّة تأنيث حيّ، من قولهم رجل حي وامرأة حية^(٢٤).

وكان أبو عمرو بن العلاء يقدمه على الراعي النميري، وقيل إنه كان يُصرع^(٢٥)، فقال الجاحظ: كان أبو حية أجنّ من جعيفران وأشعر^(٢٦)، وقال ابن عبد ربه: كان أبو حية أجن الناس وأشعر^(٢٧).

ومن طرائفه أن له سيفاً كما يذكر الأصفهاني، كان يسميه لعاب المنية، ليس بينه وبين الخشبة فرق، وقيل إن كلباً دخل داره فظنه لصاً فأنشأ يخاطبه: «أيها المغتر بنا والمجترئ علينا، بئس والله ما اخترت لنفسك: خيرٌ قليل وسيف صقيل، لعاب المنية الذي سمعت به، مشهورة ضربته، لا تُخاف نبوته ... فيينا هو كذلك إذ خرج الكلب فقال: الحمد لله الذي مسخك كلباً وكفاني حرباً»^(٢٨)، وحدث أبو حية عن نفسه قال: «عنّ لي ظبي يوماً فرميته بسهم، فراغ عن سهمي، فعارضه السهم ثم راغ، فعارضه السهم، فما زال والله يروغ ويعارضه حتى صرعه ببعض الجبّانات»^(٢٩)، ثم حدّث:

(٢٣) الأصفهاني (الأغاني): ٥١ / ٣.

(٢٤) ابن جني (المهجع): ١٠٩.

(٢٥) الأصفهاني (الأغاني): ٥٤ / ٣.

(٢٦) الجاحظ (الحيوان): ٣٤٢ / ٣.

(٢٧) ابن عبد ربه (العقد الفريد): ٤٩٩ / ٤.

(٢٨) الأصفهاني (الأغاني): ٥٦ / ٣.

(٢٩) المصدر السابق.

«رमित والله ظبية، فلما نفذ سهمي عن القوس ذكرت بالظبية حبيبة لي، فعدوت خلف السهم حتى قبضت على قذذه قبل أن يدركها»^(٣٠).

ومن نوادره أنه ذكر عنده فرعون ذو الأوتاد فقال: الكلب خيرٌ منه وأحزم،

ف قيل له كيف خصصت الكلب بذلك؟ فقال: لأنَّ الشاعر يقول:

ومالي لا أغزو وللدهر كرهةً وقد نبحت نحو السماء كلابها^(٣١)

ومن عيون شعر أبي حية قوله في الغزل:

إذا هُنَّ ساقطنَ الأحاديثَ للفتى سقوطةً حصى المرجانِ في سلكِ

رمينَ فأنفذنَ القلوبَ فلا ترى دمًا مائراً إلا جرى في الحيازِمِ

وخبَرَ الواشونَ أن لا أحبُّكم بلى وستور البيت ذاتِ المحارمِ

أصدُّ وما الصَّدُّ الذي تحسبُه عزاءً بنا إلا ابتلاعُ العلاقمِ

حياءٌ وبُقياءٌ أن تشيعَ نيميَّةٌ بنا وبكم أفي لأهلِ النِّمائمِ

وقوله:

حوراءٌ تسحبُ من قيامٍ فرعها فتغيبُ فيه وهو جثلٌ أسحَمُ

فكأنَّها فيه نهارٌ مشرقٌ وكأنَّه ليلٌ عليها مُظلمٌ

وذكر أن أحسن ما قيل في الترديد^(٣٢) قول أبي حية:

ألا حي من أجل الحبيب المغايا لبسنَ البلى مما لبسنَ اللياليا

إذا ما تقاضى المرءُ يومٌ و ليلة تقاضاه شيء لا يَمَلُّ التقاضيا

(٣٠) المصدر السابق.

(٣١) إذا نبحت الكلابُ السماءَ دلَّ ذلك على الخصب، وهذا مما كانت تعتقد به العرب قديماً.

(٣٢) الترديد لون من ألوان البديع، يسمى التصدير، ومعناه رد عجز البيت على صدره.

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ أبا حية جمع مع عاهته الإحسان في النّظم، والبراعة في القصيد، فنال بذلك ثناء النقاد، ذلك الإحسان برز في موضوع الغزل، يشركه في هذه الصفة كثير من شعراء الوسوسة كخالد الكاتب على نحو خاص.

٦. أبو الغصن الموسوس:

شاعر كُفَّ بصره بعدما أسن، واسمه سوسنة، ذكره الصفدي في كتابه (الوافي بالوفيات)، ولم يرو من أخباره سوى ما نقله عن أبي هفان عبدالله بن أحمد بن حرب الأديب الراوية المشهور المتوفى سنة ٢٧٥ هجرية، وكان سوسنة على حدّ تعبير الصفدي من عقلاء المجانين^(٣٣).

قال أبو هفان: «مررت بسوسنة الموسوسِ بِسرٍ مَنْ رأى، قبل أن يُكفَّ

بصره، فقلت له: يا أبا الغصن أجز لي هذا البيت:

ما ترى في فتى أحب ولا يم — ملك في وقت حبه نصف فلس
فقال سوسنة:

ما أرى غير عدله في سكونٍ — وطمانينةٍ في حس مَسِّ
فإن انقاد للملامة والعذ — ل وإلا فحَقُّهُ لف قَلْسٍ^(٣٤)

وقيل له بعد أن كُفَّ بصره أجز هذا البيت:

يا أحسن الناس وجهها — وأعذب الناس لفظها
فقال:

حمى العمى حظّ عيني — فاجعل لقلبي حظًا
فقد جعلتُ بَناني — عينًا وقرصى لحظًا

(٣٣) الصفدي (الوافي بالوفيات): ٦ / ٣٨٨.

(٣٤) القلس: الحبل الغليظ.

فَأَذِنَ خَدَّكَ مَنِّي وَلَا تَكُنْ بِي فَظًّا

وواضح أن ما ذكره أبو هفان من صفاء قريحته وسرعة بديهته يدل على إجادته فنّ الإجازة وهي صفة تكاد تكون متوفرة عند أغلب الموسوسين، وعلى كل حال فإنّ الراجح أن أبا الغصن هذا كان من شعراء القرن الثالث الهجري، لأنه عاصر كما تقدم أبا هفان الشاعر المعروف.

٧- برذعة الموسوس:

روت كتب الأدب كثيرًا من نوادر برذعة الموسوس، ولم تنطو على شيء من سيرة حياته، وكل ما نعلمه عن أحواله أنه كان يتردد على الخليفة المقتدر، كما أنّ له حكايةً طريفة مع ابن الرومي، وحكايات أخرى مع أعلام القرن الثالث الهجري الذي عاش فيه، ومن تلك الأحاديث الطريفة ما ذكره محمد بن أبي الأزهر: «كنت في مجلس بNDAR وعنده جماعة من أصحابه، إذ هجم علينا برذعة الموسوس ومعه مخللة فيها دفاتر وجزازات، وقد تبعه الصبيان، فقال: اطردهم عني، فوثبت أنا من بين أهل المجلس، وصحت عليهم، فجلس ساعة ثم وثب، فنظر هل يرى منهم أحدًا، فلمّا لم يرههم رجع إلى المجلس، ثم قال: اكتبوا، حدثني محمد بن عسكر عن عبد الرزاق عن معمر، قال: سئل الشعبي: ما اسم امرأة إبليس؟ فقال: هذا عرس لم أشهد إملاكه، ثم أقبل على بNDAR فقال: يا شيخ ما معنى قول الشاعر:

وكنْتُ إذا ما جئتُ ليلَ تبرّعتُ فقد رابني منها الغداة سفورها

فقال لنا بNDAR: أجيبوه، فقال: يا مجنون أسالك ويحيب غيرك، علم أنّها قد حذرته من بحضرتها ليحجم عن كلامها، فضحك ومسح على رأس بNDAR وقال: أحسنت يا كيس، وكان بNDAR قد قارب التسعين سنة»^(٣٥).

(٣٥) الصفدي (الوافي بالوفيات): ٣٤٩ / ٧.

وحدث أحمد بن الطيب قال: «دخلت يوماً على أمير المؤمنين المعتضد، فإذا بين يديه برذعة الموسوس، فقال لي: يا أحمد ادن مني حتى دنوت منه موضع السر، فقال لي: قل لبرذعة: يا أبا عبد الله خبز، وكان إذا قيل له هذا خرج الأمر عن يده فلم يقرب من أحد إلا أثر فيه، فكان المعتضد بفرط شهوته للصنعة، قد اتخذ له ولنظرائه ولجماعة من الندماء، بين يديه باباً مستطيلاً ينطبق على وهدة، إذا وطئ عليها خرج من بعض أقسامها كفان بلولب فاعتورا الإنسان الواقف، وأطبقا عليه قيلاً مقسوماً بهلالين، في طرف أحدهما عمود مقفل، وفي الآخر فراشة، فإذا التقتا فكأن يداً أقفلت قفلاً فلا يتهياً للرجل مجنوناً أو صحيحاً التخلص منه إلا بعد أن يجيء الخادم بمفتاحه فيفتحه . فقال أحمد بن الطيب: يا أبا عبد الله خبز، فوثب ليقرّب مني فأخذه القيد فبقي يزيد ولا يتهياً له في حيلة... فصاح صياح الشاة، ووصل ذلك فلم يتمالك المعتضد ضاحكاً، وكان بعيداً عن الهزل، فلما بصر به برذعة وهو يضحك قال:

يا بن الموفق لا تضاحك واحذر وإلا صرت شاة
هَذَا خَبِيثٌ مَجْبُثٌ من شر خبث السُّعَاة
فاحذره واكتب ما أقو ل بظهر تذكرة الدواة
لا تأنسَنَ بِهِ فَإِنَّ بي قد نصحت وها وهاة

قال: فوالله لقد رأيت المعتضد قد تغير وجهه وانحط رأسه...»^(٣٦).

ومن أخباره مع ابن الرومي وقد بلغه تطيُّره أنه قال له:

ولما رأيتُ الدهرَ يُؤذَنُ صرفهُ بتفريقٍ ما بيني وبينَ الحبابِ
رجعتُ إلى نفسي فوطئتُها على ركوب جميل الصبر عند النوائب

(٣٦) ابن العديم (بغية الطلب في تاريخ حلب): ٥١١/١.

وَمَنْ صَحِبَ الدُّنْيَا عَلَى جَوْرِ حُكْمِهَا فَأَيَّامُهُ مَخْفُوفَةٌ بِالمَصَائِبِ
فَخَذَ خِلْسَةً مِنْ كُلِّ يَوْمٍ تَعِيشُهُ وَكُنْ حَذِرًا مِنْ كَامِنَاتِ العَوَاقِبِ
وَدَعْ عَنكَ ذِكْرَ الفِئَالِ وَالزَّجْرَ وَاطَّرِحْ تَطَيَّرَ جَارٍ أَوْ تَفَاوَّلَ صَاحِبِ
ويزعم الحصري أن ابن الرومي حين سمع الأبيات « بقي باهتًا ينظر إليه...
ثم قال: والله لا تطيرت بعد هذا»^(٣٧).

٨- طرة الموسوس:

ليس لطرة الموسوس ذكر في المصادر غير حكاية في غاية الطرافة ذكرها ابن
العديم في كتابه (بغية الطلب في تاريخ حلب)، ويظن أنه عاش في القرن الثالث
الهجري بسبب اتصال حكايته تلك بالحسن بن صفوان الأنطاكي الذي قال كما
أورد ابن العديم: «كنت في دعوة، ومعني طرة الموسوس، فأسمعنا من شعره،
وطرائف فوائده ولعبه بيديه ورجليه وازددنا سرورًا، ولما أكلنا وحصلنا على
الشراب، أقبل عليه من كان جالسًا فأخذ يولع به، ويصيح السلاح السلاح، قال:
هذا أول الجنون والحرب، ويرميه بشيء من الفاكهة، فقال له طرة: يا فتى أنت
مجنون، فأخذ يقرأ عليه، ويعوده، وهو يزيد عليه في الولع، ثم رماه بأترجة فوقع
في فؤاده، فكاد أن يهلك، فظفر عليه ونطحه نطحه كسر فيها أنفه، فخشيت منه،
فظفر عليه ثانية ونطحه نطحه كاد أن يذهب باقي أنفه فيها، وهم أن يخنقه، فقمنا
إليه، ولم نزل نسأله إلى أن خلاه، وشاغلناه عنه، إلى أن شددنا ما كسر منه، وطرحنا
عليه شيئًا من الثياب، وهم طرة بالخروج فقلنا له: اجلس نعمم الآن ما جرى،
فقال: لا أفعل، فقلت: فإنه قد نفذ يستعدي عليك، فالله الله أن تخرج فتجس وتقيد

(٣٧) الحصري القيرواني (زهر الآداب): ٣٠٠ / ٢.

وتشد، فأخذه ما كان يأخذه، ثم قام وقال لي: يقال هذا، والله لو خاطبني الوالي لسمع مني الجواب، فقلت: ماذا يكون جوابك وقد فعلت ما فعلت؟ فقال يكون ما تسمع، ثم أخذ في إنشاد هذه الأبيات^(٣٨):

رأت العشيْرَةَ عَفَّتِي فِي الْمَجْلِسِ	وَمَعْرَبِدٍ نَادَمْتُهُ فِي مَجْلِسِ
وَذَكَرْتُ بَيْتًا لِلْفَتَى الْمُتَلَمِّسِ	صَاحِ السَّلَاحِ فَقَلْتُ شَرَا وَاقِعًا
فَاطْفِ الشَّرُورَ بِكَلِّ عَضْبٍ أَمْلَسِ	الشَّرَّ لَا يَطْفَأُهُ إِلَّا مِثْلُهُ
فَإِذَا أَخُونَا فِي مِثْلِ الْأَفْطَسِ	فَنَطْحَتُهُ لَمَّا تَغْطِرَسَ نَطْحَةً
فَأَجَبْتَهُمْ مِنِّي بِقَلْبٍ مَوْسِ	فَتَعَلَّقُوا بِي كِي أُنَمَّ مَدَامَتِي
بِرِسَالَةٍ مِنْ رَبِّهِ لَمْ أَجْلَسِ	لَوْ أَنَّ جَبْرِيلاً أَتَانِي قَاصِدًا
الْحَبْسُ خَيْرٌ مِنْ ذَهَابِ الْأَنْفَسِ	قَالُوا فَتَحْبَسْ قَلْتَ ذَاكَ هُوَ الْمَنَى

وواضح هنا أن الشاهد الشعري مرتبط بالحكاية، أو أنه نظم لها، وفي ذلك مؤشر مهم فحواه أن الحكايات التي رويت عن معظم أصحاب الوسوسة تناسلت شواهد شعرية ممتعة .

٩- شحطون الموسوس:

هو واحد ممن ذكرهم صلاح الدين الصفدي في كتابه (الوافي بالوفيات)، في حكاية جرت بينه وبين أبي يحيى المهندس، والواقع أن تلك الحكاية من النوادر لما فيها من مشاعر إنسانية رقيقة، ونوازع حكمية ووعظية مؤثرة، يقول أبو يحيى المهندس: مررت بالمخرم يوماً فرأيت شحطون جالساً في الطريق، ومعه ابن له،

(٣٨) ابن العديم (بغية الطلب): ٣٧٧/٢.

فدنوت منهما، ودفعت إلى الغلام من سكرٍ كان معي فأخذه، فقلت له ما اسمك؟
فقال سعيد، فقلت: أنت يا سعيد كَيْسٌ عاقل، فأقبل شحطون فقال:

يا شيخُ قلْ لي هذا من المهيمينِ عدلُ
بأن يكونَ لهذا عقل ومالي عقلُ

قلت سبحان الله من يقول هذا؟ قال: يقوله من يراني على مثل هذه الحال
مطروحًا في الطريق؛ والله يا أخي إنه ليأتي علي وقت لا أدري فيه ما حالي، وما
رحمتي لنفسي، وإنما أرحم هذا الذي ليست له أم، وأبوه على مثل هذه الحال،
وقلت: فادفعه إلي حتى يكون مع صبياني في مثل أحوالهم من التفقد والتعهد، فبكى
ثم قال:

أجعل روعي والذي هو مؤنسي يتيمًا ولم يقدِرْ إلى الموتِ قادرُ
لعلَّ ليالينا تروِّحُ كربتي فتدفع عني كلَّ ما أنا حاذِرُ
فلا اليأس يستولي علي ولا أرى جزوعًا ولكنني صبورٌ وشاكرُ

قال فأبكاني، فلما رأى بكائي قال (٣٩):

أترى رَحمةً بكيَتَ لمن عند صدك أم رَحمةً بكيَتَ لِمَا بي
لا تُبَكُّ الجفونَ مِنْكَ لهذا بكَّها للوقوفِ يومَ الحِسَابِ
كلُّ نفسٍ تَفنى ويبقى الذي يُف نبي ويُجزى برحمةٍ أو عذابِ

لا يُعرف العصر الذي عاش فيه شحطون على وجه من الدقة، وأظنه من

المتأخرين، لأنه لم يقع لي أن أحدًا قبل صلاح الدين الصفدي ذكره.

(٣٩) الصفدي (الوافي بالوفيات): ٢٠٩ / ٥.

١٠- الفيرزان الموسوس:

هو من الشعراء الموسوسين الذين ذكرهم الصفدي في (الوافي بالوفيات)
أيضاً، فقد ذكر على لسان محمد بن أبي الأزهر: « كان في جوارنا بباب الشام فتى
يعرف بالفيرزان، وكان يورق في دكان علان الشعوبي، فقد عقله بعد أن كان مألماً
لأهل الأدب وظرفاء الشعراء، ثم آلت حاله إلى أن كان يسلك الأسواق والطرق
عريان مسلوباً، وربما تاب إليه عقله فيتوارى، ومن شعره:

مضى أمسك والأيا م يتلو بعضها بعضا
فما كان فقد فات بما أسخط أو أرضى
متى لم يأت لم تدر أتقضي قبل أن يقضى
فبادر قبل أن تجر عمل في الأرض لها أرضا

وقال:

حياتك إن فكرت تغريد طائر تمكن منه السمع ثمة طارا
وعمرك ما عمرت أحلام نائم تبته عن ليل رآه نهارا
فخل عن الدنيا وكن متبدلاً بدار فناء للمقامة دارا

وقال (٤٠):

لو قيل للإنسان حصّل لنا ما نلته من لذة الأمس
أكان يأتينا بشيء سوى أضغاث أحلام هوى النفس
فشد على الدنيا وأقبح بمن يطلبها بالتعس والنكس
يطلبها حتى إذا ناهها بزعمه غيب في الرمس

وواضح أن اقتران ذكر الفيرزان الموسوس بعلان الشعوبي يدل على أنه من شعراء القرن الثالث، ذلك لأن إعلان الشعوبي الفارسي كان ورّاقاً في بيت الحكمة أيام البرامكة في عهد الرشيد والمأمون.

١١- أبو دائق الموسوس:

هو من الشعراء الموسوسين الذين روى طرائفهم الصنفدي في كتابه (الوافي بالوفيات)، وقد ذكر حكايته الطريفة مع يعقوب بن الدقاق إذ قال: كنا يوم جمعة بقبة الشعراء في رحبة مسجد المنصور نتناشد، وكنت أعلاهم صوتاً إذ صاح بي صائح من ورائي: يا منتوف، فتغافلت كأني لم أسمع، قال: يا أعمى يا أعمى لم لا تتكلم؟ فقلت من هذا؟ فقال: أبو دائق الموسوس، فالتفت إلي وقال: ويلك هل تعرف أحسن من هذا البيت أو أشعر من قائله:

ما تنظرُ العين منه ناحيةً إلا أقامت منه على حَسَنِ

فقلت كالمحاجر له: لا، فقال: لا أمَّ لك، هلا قلت قوله:

يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدته نظراً^(٤١)

ثم وثب وثبة فجلس إلى جانبي، وأقبل علي وقال: يا أعمى صف لي صورتك الساعة على البديهة وإلا أخرجتك من بَزَّتِك، ثم أقبل علي من كان حاضراً فقال: ظلمناه ظلمناه، هو ضرير، لم ير وجهه، فمن أحسن منا أن يصفه فليصفه؟ وكان على الحقيقة من أقبح الناس وجهًا، وكان يخلق شعر رأسه وشعر لحيته وشعر حاجبيه ويدهن، قال: فلم يتكلم أحد فقال اكتبوا صفته وأنشد^(٤٢):

(٤١) البيتان لأبي نواس.

(٤٢) الصنفدي (الوافي بالوفيات): ٣٩٨/٧. الوجار: بيت الضبع.

أشبهه رأسه لولا وِجَارُ لعينيه ونضضة اللسان
 بأضخم قرعة عظمت وتمت فليس لهالدى التمييز ثان
 إذا عليت أسافلها أنالت دعائم رأسها نحو اللبان
 فكان لنا مكان الجيد منها إذا اتصلت بممسكة الجران
 لها في كل شارقةٍ وبيص كأن بريقها لمع الدهان
 فلا سلّمت من حذري وخوفي متى سلمت صفاتك من بناني

ذكر الصفدي أن يعقوب بن الدقاق كان من أصحاب الأصمعي، وهذا

يعني أن شاعرنا أبا دانق من رجال القرن الثالث الهجري .

١٢ . مصعب الموسوس:

روى ابن المعتز في طبقاته عن جعفر بن عبد الله الخريمي أنه قال: مر مصعب الموسوس بدرب الثلج ببغداد، فنظر إلى عين شاة من شباك روشن لبعض التجار فظن أنها عين جارية فعشقتها، وتردد إلى ذا المكان شهراً، ثم لزمه، فكان لا يبرح منه، وكان إذا وجد خلوة من الناس كلمها وشكا إليها وبكى، وهو لا يشك أنها تسمع، وربما رمى إليها بالتفاحة المنقشة المطيبة والأترجة المفلقة والشمامة والتحفة الحسنة من المناديل، وما أشبهها، فانكسرت الشبكة يوماً، فنظر فإذا عين شاة، وفطن الصبيان، فجعلوا يقولون يا عاشق الشاة، فغضب وتفاقم الأمر عليه في ذلك فكان سبب وسوسته^(٤٣).

وذكر ابن المعتز أن لمصعب أقوالاً منها قوله: «العلوم عشرة: ثلاثة كسروية وثلاثة يونانية، وثلاثة عربية، وواحد يخص الجميع، أما الكسروية فالعود والشطرنج

(٤٣) ابن المعتز (طبقات الشعراء): ٢٧٧.

والصولجان، وأما اليونانية فالهندسة والطب والنجوم، وأما العربية فالنحو والفقه والشعر، وأما العلم الذي يخص الجميع فأخبار المحدثين وأيامهم^(٤٤).

وما يستجاد من شعره قوله:

وذي نَخْوَةٍ قَد بَرَانِي هَوَا هُ يَزْدَادُ فِي الحُبِّ إِنْ هَنَّتْ عِرَا
فَمَا زِلْتُ بِالمَكْرِ حَتَّى اطمَأَن وَقَد كَانَ مِنْ قَبْلِ ذَاكَ اشمَازًا
وَأَقْبَلْتُ بِالكَأْسِ اُغْتَالَهُ وَكُنْتُ لِأَمْثَالِهِ مُسْتَفْرَا

وواضح أن مصعب الموسوس من قدماء الموسوسين، لأن ابن المعتز من السابقين إلى ذكره، وهو بلاشك قد عاش في القرن الثالث أو قبل ذلك.

١٣- جساس الموسوس:

ذكره النيسابوري في كتابه عقلاء المجانين، وساق خبراً عن الأصمعي عن عمه أنه قال: «دخلت بعض أحياء العرب فرأيت شيخاً موسوساً يهذي، وقد اجتمع عليه الناس، فقلت من هذا؟ فقالوا: جساس الموسوس لا يزال ينام ليله ونهاره، وربما ينتبه فزغاً مرعوباً فيجلس ساعة ثم يصيح ويهيم على وجهه، ثم يعود إلى نومه، فبت ليلة هناك، وهو على هذه الحال الذي وصفوه، فلما أصبحنا أتيت إليه فقلت: ما اسمك؟ وأنت أنوم من فهد، مالك تنام دهرك؟ فقال: النوم لا تبعة علي فيه، وفي مجالستك ومجالسة أضرابك تبعات. قلت: وأي تبعة عليك في مجالستي؟ قال: أشغل بك عمن أنشأني، ثم أنشأ يقول:

لَقَدْ اُغْنَيْتُ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ وَعَمَّا أَنْتَ فِيهِ مِنَ المَقَالِ
فَإِنْ كُنْتَ الغَدَاةَ تَرِيدُ قَوْلًا فَمَا فِيهِ رَضَى مَوْلَى المَوَالِي

ثم عدا هائماً على وجهه في تلك الرمال قائلاً: ما أكثر فضول أهل الحضرة^(٤٥).
وبهذا يكون ظهور جساس الموسوس سابقاً للأصمعي، أو ربما كان قريب العهد
من زمنه بدليل إسناد الرواية إلى عمه.

١٤- أبو الفضل الموسوس:

قال ابن منظور: كان أبو الفضل من أهل النعم، وذوي الفضل، ثم أورد ما
حكاه أبو الفرج البيهقي: «كنت طوال مقامي بدمشق أنس بمن يطرقني من ذوي
الأقدار، ففي بعض الأيام، تذاكرنا أخبار عقلاء المجانين، وفي الجماعة فتى من أولاد
الكتاب، فقال لي: معنا في البلد فتى في مشاهدة حاله ما يلهيني عما نحن فيه، وهو في
البيهارستان، فقلت له: ما خبره؟ فقال: كان صبياً نشأ مع جارية كانت لأخته، كاملة
الحسن والأدب، فألفها وألفته، فلما كبرا حجبتها عنه فمضيا جميعاً، فلما انكشف
أمرهما، وهبتها له أخته، فاستأنفا عمراً جديداً، واقتصر كل منهما على صاحبه...
ولا يزالان على ذلك، فلما كان في بعض الليالي خلياً على عادتهما للأنس، فعرض
للجارية خلط فتلفت، فهجم على قلب الفتى ما سلب عقله، فمَنع من دفنها ظناً
بحدوث غشي إلى أن ظهرت أمارات الموت فأكره على دفنها... فنقل إلى
البيهارستان ليبعد عن قبرها، ومن مشاهدة تلك الأمكنة التي كان يجتمع بها فيها،
ولم يقدر على ذلك إلا بعد تقييده، ومن شعره في ذلك قوله^(٤٦):

مَنْ مُنْصَفِي مَنْ جَوْرٍ أْزْمَانِي	إِذْ وَضَحَ الْحَقُّ بَرَهَانِي
كُنْتُ جَلِيلَ الْقَدْرِ فِي أَسْرَتِي	مَعْظَمًا مَا بَيْنَ إِخْوَانِي
أَصْلِحُ بِالتَّحْصِيلِ وَالْعَقْلِ مَا	يُفْسِدُ الْإِهْمَالُ مِنْ شَانِي

(٤٥) النيسابوري (عقلاء المجانين): ٣٢١.

(٤٦) ابن منظور (مختصر تاريخ دمشق): ١/٣٢٧.

فصرتُ مجنونًا لأنَّ الرّدي أفنى مسراتي بأحزاني
أوحش من نُورِ عيوني التي أغرت بفيض الدّمع أجفاني
ومعروف أنّ أبا الفرج البيغاء من شعراء القرن الرابع توفي سنة ٣٩٤هـ،
ويبدو أنّ أبا الفضل الموسوس من معاصريه.

١٥- أبو حيان الموسوس:

قال ابن المعتز: حدثني طاهر بن محمد الأهوازي قال: «رأيت أبا حيان الموسوس، وقد قدم من البصرة إلى بغداد، ولم يكن له همة دون أن أشتري له جرة مدارية كبيرة، ثم جاء إلى دجلة فملأها، ثم صار إلى الصرة، فصب الجرة فيها، ثم حمل أيضًا من الصرة ماء فصبه في دجلة، ثم لزم ذلك طول مقامه ببغداد إلى أن مات... وكان إذا جن عليه الليل وضع الجرة وجلس يبكي عليها ويقول: اللهم فرّج عني وخفف علي هذا العمل الذي أنا فيه وينشد^(٤٧):

لا تبكِ هنديًا ولا المواعيسا ولا لربيعٍ عهّدت مأنوسا
وقف بقطر بل ونزتها واحبس بها عن سيرك العيسا
وانزل لشيخ بالدير مسكنه يدعوه أهل الكتاب قسيسا
لم يقن وفرّ له فيملكه إلا صليبا له وناقوسا
أتيتُهُ فاشمأز لي دُعرا فقلت موسى فقال بل عيسى
فصبّ في الكأس صوب صافية لم يفرس عود كرمها الشوسا

أبو حيان الموسوس من الشعراء الذين سبق ابن المعتز إلى ذكرهم، وهذا يعني أنه متقدم، ولا يبعد أن يكون من شعراء القرن الثالث الهجري.

(٤٧) ابن المعتز (طبقات الشعراء): ٤١١.

١٦. خلاصة البحث:

إن أبرز ما ينبغي تدوينه من سمات شعر الموسوسين ارتباط ذلك الشعر بالحكايات الطريفة، حتى لكأن تلك الأشعار نظمت لتأكيد الحكايات، أو أن الحكايات نسجت لتأييد الأشعار، وفي الحالين تريح تلك الأشعار مزية تمكنها من الاستقرار في الذاكرة الأدبية، وتنبع طرافة من ذلك التآخي بين الأشعار والحكايات في تراث الموسوسين من خلال وحدة الهدف وإبراز المعنى الشعري الذي تشف عنه الحكايات والأشعار في وقت واحد، بيد أن هنالك مفارقة تنجم عن ارتباط الحكايات بالشعر عند الموسوسين مفادها أن أولئك كانوا يخلطون في أقوالهم وتصرفاتهم، ولا يخلطون في أشعارهم، وهذا ما دفع أديباً كابن المعتز إلى الظن بأن الموسوسين قد نظموا أشعارهم قبل أن يلهم بهم داء الوسوسة^(٤٨)، وهذا مجرد ظن، لأن سير الموسوسين لا تعضده لاقتران الحكايات بالشواهد حتى لكأنها بالفعل مسببة لها أو ناجمة عنها، وأمر آخر أن منبع الطرافة في الحكايات يتمثل بتخليط الأقوال والأفعال، وهنا مكمن الطرافة ومصدر الإضحاك، ثم تحدث المفارقة مع مجيء الشاهد الشعري وهو في غاية الانضباط والروعة، وهنا تتمثل قيمة الحكايات التي رويت عن الموسوسين، وقد احتفت بسيرهم كتب الأدب كل هذا الاحتفاء لا لطرافتها فحسب، بل لانطوائها على المفارقة الأدبية التي تريد أن تشير إلى موطن الحكمة في حياة هؤلاء الناس الذين كانوا خليين من التعقل، وليسوا خليين من الحكمة، وليس ببعيد أن تكون تسميتهم بعقلاء المجانين يصب في هذه الفكرة

(٤٨) المصدر السابق.

ذاتها، بمعنى أن غياب العقل عند هؤلاء كان غياباً ظاهرياً كما يقول محيي الدين بن عربي: « إن جنونهم ما كان سببه فساد مزاج عن أمر كوني من غذاء أو غير ذلك، وإنما كان عن تَجَلُّ إلهي لقلوبهم، وفجأة من فجآت الحق، فجأتهم فذهبت بعقولهم، وعقولهم محبوسة عنده، منعمة بشهوده، عاكفة في حضرته، متنزهه في جماله، فهم أصحاب عقول بلا عقول، عرفوا في الظاهر بالمجانين أو المستورين عن تدبر عقولهم، فلهذا سموا عقلاء المجانين »^(٤٩).

لقد اعتقدت العرب أن الجنون لا يضر بالشعر، لا بل قد يزيد من اتقاده وتوجهه كما هو الشأن عند مجنون بني عامر، وليس ذلك فحسب بل هنالك علاقة بين الشعر والجنون، تتفق من خلال علاقة أخرى بين الشعر والجن كذا قد أشرنا إليها في مقدمة هذا البحث، إذ تألف الجنون والإبداع مما يثبت فكرة الإلهام، فإذا كانت تلك الفكرة صحيحة، كان الجنون بمعنى الاضطراب في السلوك شيئاً، والشعر شيئاً آخر، بمعنى أن قوة الشاعر تصدر عن قوة أخرى غير قوة الإدراك والعقل، وهذا ما يوضح المفارقة الناجمة عن الاختلاف بين السلوك والكلام المنظم اللذين كان يصدران عن الموسوسين في وقت واحد.

ب . من الملاحظ أن أكثر الشعراء الموسوسين الذين أتى على ذكرهم البحث، أصيبوا بداء الوسوسة بعدما أسنوا، وهذا لا يعني أن تلك العاهة قد حجبته عن النظم، بل على العكس تماماً، ذلك لأن سيرهم كانت موضع اهتمام بعد وسوستهم، وليست هنالك أخبار تذكر عن أحوالهم قبل الوسوسة، إلا ما كان يوضح حال الوسوسة التي أصبحوا عليها، فصارت الوسوسة عاملاً لشهرتهم

(٤٩) ابن عربي (الفتوحات المكية): ٥٢٢ / ٢.

واهتمام الأدباء بهم، وليس ذلك فحسب بل إن الوسوسة أسهمت في تألق أشعارهم من الجهة التي تدل على تفرد الموضوعات التي تناولوها، وهي موضوعات تصب في تهذيب السلوك أو تفسيره، بغية نقله من الغرابة إلى الألفة.

ج. امتاز الشعراء الموسوسون بحضور الجواب، وبيان الخطاب، وصفاء القرينة، وجودة النظم، ورقة الشعر وعمق المعاني وسموها بغير ابتذال ولا إسفاف في اللفظ.

د. كانت خيالات الموسوسين قد بهرت النقاد، كخيالات أبي حية النميري مثلاً، الذي قيل عنه: هو أكذب الناس تارة، وهو أجن الناس وأشعرهم تارة أخرى.

هـ. لبعض شعراء الوسوسة أقوال تحفظ وآراء يشار إليها في كتب الأدب كالذي روي عن مصعب الموسوس.

و. اهتم نفرٌ من الموسوسين بفن الإجازة وما يستلزمه ذلك الفن من مهارات في النظم ومعرفة بصناعة الشعر، وانتباه لتتيمم المعاني وتوسيع الأفكار.

ز. شغل كثير من الموسوسين بالذم والتهكم، وهو موضوع يدخل ضمن إطار النقد الاجتماعي الذي يرمي إلى تصحيح السلوك وتهذيبه، وهذا كان من طبعهم، لأنهم لم يتزلفوا ولم يمدحوا ولم يتقربوا إلى أهل السلطان، كما أن موضوعات شعرهم تكاد تنحصر في الجانب الذاتي الذي يصف السلوك ويجسد اللحظة التي تبرز مواطن الظرف والمتعة، وهو أمر ليس فيه غرض سوى التعبير عن حال الموسوس في أثناء تفاعله مع الأحداث التي تجري من حوله.

ح. العالم الشعري الذي يحيط بأشعار الموسوسين محدد ومحصور في مجال الطرافة

الأدبية، وهذه المسألة تجسد أهم غايات الأدب وهي الإمتاع، من أجل ذلك نجد أن تلك الأشعار والحكايات المرتبطة بها يمكن أن تكون أساساً للدراسات الجمالية المعاصرة، ذلك لأنها كما قلت لا تهدف إلى شيء أكثر من المتعة الفنية واللذة العقلية.

مِصْنَائُورُ وَمِراجِعُ البَحْثِ

- ١ - الأغاني - أبو الفرج الأصفهاني - تح. إبراهيم الأبياري - دار الشعب بالقاهرة - ١٩٦٩ م.
- ٢ - بغية الطلب في تاريخ حلب - ابن العديم - دار الفكر - دمشق - ١٩٨٤ م.
- ٣ - البيان والتبيين - الجاحظ - تح. عبد السلام هارون - مكتبة الخانجي - مصر - ١٣٨٤ هـ.
- ٤ - الحيوان - الجاحظ - تح. عبد السلام هارون - القاهرة - ١٩٤٥ م.
- ٥ - طبقات الشعراء - ابن المعتز - تح. أحمد فراج - دار المعارف - مصر - ١٩٦٥ م.
- ٦ - العقد الفريد - ابن عبد ربه - طبعة بولاق - القاهرة - ١٨٧٥ م.
- ٧ - عقلاء المجانين - النيسابوري - تح. عمر الأسعد - دار الفكر - دمشق - ١٩٨٧ م.
- ٨ - الفتوحات المكية - ابن عربي - تح. عثمان يحيى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٥ م.
- ٩ - المبهج - ابن جنبي - تح. حسن هندراوي - دار الفكر - دمشق - ١٩٨٧ م.
- ١٠ - مختصر تاريخ دمشق - ابن منظور - دار الفكر - دمشق - ١٩٨٤ م.
- ١١ - الوافي بالوفيات - الصفدي - نشر جمعية المستشرقين الألمان - د. ت.

العولة والعربية... علاقة تفاعلية

د. عادل الفريجات (*)

العولة، أو الكوكبة، أو الكوننة، مصطلح ينطوي على دلالات مختلفة وأشكال متعددة. فثمة عولة اقتصادية، وعولة سياسية، وعولة اجتماعية، وعولة ثقافية، وعولة تقنية. وتعني العولة عامة اندماج أسواق العالم في حقول التجارة والاستثمارات المباشرة، وانتقال رؤوس الأموال والقوى العاملة والثقافة، وهذا الشأن قد يفضي إلى تعميم نمط حضاري يخص بلدًا بعينه على بلدان العالم أجمع. وقد عدل هذا المفهوم فيما بعد كما سنرى. ولكن المنزع السابق للعولة ينطوي على تهديد للهويات الثقافية للشعوب أو محاولة لتذويبها في النموذج المقترح. وحديثنا القادم سيتمحور حول تحديد المصطلح وتطور دلالاته، وحول العربية والعولة والتكنولوجيا، وستلث عند نماذج من خدمة العربية على الشبكة، معنيين في النهاية بأمرين: هما المصطلح، والمعجم التاريخي للغة العربية.

وقد يكون أول من أطلق مصطلح «العولة» هو عالم الاجتماع (مرشال ماك لوهان) في نهاية عقد الستينيات من القرن العشرين. وتنبأ بأن أمريكا ستخسر الحرب في فيتنام، لأنها تحولت إلى حرب تلفزية لا تسمح بمواصلة قصف ذاك البلد، دون نتائج سلبية على القوة القاصفة.

(*) عضو الهيئة التدريسية في كلية الآداب بجامعة دمشق.

ولكن العولمة صارت مصطلحاً مُدَوِّياً في عقد التسعينيات من القرن العشرين. ويرى (كوزكينمي) أن غاية العولمة هي تنميط العالم بالنمط الغربي الأمريكي خاصة، وأن مخاطر العولمة على سيادة الدول تتمثل بانكماش مبدأ السيادة بسبب الأنشطة العابرة للحدود، وتنامي نزعة التفكيك، وبروز حرب تدعى حرب البيئة. ويرى (توماس فريد مان) أن العولمة تجسدت في ستة جوانب هي: السياسات والثقافة والتّقانة (التكنولوجيا) والمال والأمن القومي والبيئة^(١). أما بخصوص البيئة مثلاً، فهناك سبع دول صناعية تطلق سبعين بالمئة من غاز ثنائي أكسيد الكربون. وأمريكا التي يكوّن سكانها أربعة بالمئة من سكان العالم تطلق أكثر من ٢٥ بالمئة من الغازات المسببة للاحتباس الحراري وأبرزها الغاز المذكور. وقد رفضت التوقيع على اتفاقية (كيوتو) لمعالجة سخونة الأرض. وإذا تأمل المرء في انضغاط المكان بالزمان عن طريق الرحلات الجوية بين البلدان البعيدة، وفي إنجازات تقانة (تكنولوجيا) المعرفة، وفي تقلص المسافة ما بين إسبانيا والمكسيك مثلاً، من عدد الكيلومترات، إلى عدد ساعات الطيران بين البلدين، ولاحظ تشابه الأنظمة التي تحكم بناء المطارات وطرائق التعامل فيها، بدءاً من الوصول إليها وحتى باب الخروج منها، إذا فعل ذلك، شعر بالطابع المعولم لكوننا المعاصر. وكما قهرت التقانة (التكنولوجيا) المعاصرة، وهي عنوان رئيسي للعولمة، المسافات المادية بين الشعوب، فمن شأن العولمة أن تقهر المسافات الثقافية أيضاً^(٢).

(١) انظر: مادة العولمة في الموسوعة العربية، دمشق، مج ١٣ ص ٦٢٣ وما بعدها.

(٢) انظر جون، توملينسون: العولمة والثقافة، الكويت، ٢٠٠٨، سلسلة عالم المعرفة،

إن التدقيق في هوية أصحاب إنجازات العولمة، ومعطياتها، وطرائق العمل في ثمراتها، يفضي إلى الخلوص إلى أن العولمة في سِنينها^(٣) الأخيرة لم تعد هيمنة غربية ساحقة. ويلاحظ المتتبع اليوم لمجريات الأحداث الكبرى في العالم ولطرائق إدارة الأزمات أن المركزية الأمريكية والأوربية أيضًا بدأت تهتز وتتداعى، لمصلحة أقطاب دولية أخرى، سياسية واقتصادية، مثل روسيا والصين والهند وجنوبي إفريقية واليابان والبرازيل وكوريا الجنوبية، فالرابح بدأ يخسر تدريجيًا، وباتت العولمة مسألة غير متوطنة. ينقل مؤلف كتاب «العولمة والثقافة» البريطاني عن (سيرجي لاتوش) قوله: «أنا أحلل الغرب على أنه ضرب من الآلات العملاقة التي أصبحت الآن مجهولة الهوية ولا متوطنة ومقتلعة من جذورها التاريخية والجغرافية... فالغرب لم يعد يعني أوروبا لا جغرافيًا ولا تاريخيًا، إنه لم يعد حتى مجموعة من الأشخاص المتفرقين على سطح الأرض. وأنا أراها كآلة لا شخصية، ولا روح فيها. وفي أيامنا هذه لا سيد لها، والتي أثرت في الجنس البشري ليخدمها»^(٤). ولكن هل تلاشت الآثار السلبية للعولمة في بلدان العالم الثالث، وخاصة في المجال الثقافي؟

في الإجابة نقول: يكشف تقرير للبنك الدولي نتيجة استطلاع شمل / ٢٠ / ألف شخص من / ٢٠ / دولة قلقًا متزايدًا من تأثير العولمة في الثقافة عامة، وفي حقوق الإنسان والبيئة والعدالة الاجتماعية. وأظهرت تقارير منظمة الأغذية

(٣) بلا تشديد الياء، لأن الأصل قبل الإضافة: سِنين! هذا إذا عُدَّت الكلمة ملحقة بجمع المذكر السالم، ولكن في لغة بني عامر يجمعون السنة على (سنين) مع ثبات النون في الرفع والنصب والجر والإضافة... مثل كلمة (تِين) مثلًا، وعلى هذا يمكن القول: ... في سِنينها الأخيرة! والقول: ... ومَرَّتِ السِّنِينُ... بدلًا من: ومَرَّتِ السنون!. (المجلة).

(٤) العولمة والثقافة، الكويت، ع ٣٥٤، ٢٠٠٨، ص ١٢٥.

والزراعة أن العولمة والتحرر الاقتصادي يزيدان من التصحر والتلوث. فالعولمة، في بدايتها، وفي جانب منها، استلاب ثقافي وتهديد للهويات القومية. ولكنها، في جانب آخر، تتسم بمنافع لا تنكر، ولا سيما على الصعيد الثقافي والتعليمي والمعرفي عامة. وواضح أن ثمة فجوة كبيرة بين المجتمع المتقدم والمجتمع المتخلف. وقد أطلق على الأول «مجتمع المعلومات» وهو الذي تقود فيه تقانة (تكنولوجيا) المعلومات والاتصالات الاستعمال والإنتاج المتسارع. والمعرفة بحد ذاتها قوة فاعلة وحاسمة أيضًا. وفي هذا المعنى قال الإمبراطور الصيني (صان تسو) عن المعرفة: «هي القوة التي تمكّن العاقل من أن يسود، والقائد من أن يهاجم بلا مخاطر، وأن ينتصر بلا إراقة دماء، وأن ينجز ما يعجز عنه الآخرون»^(٥). إن تقانة المعرفة تظهر قابلية عالية للتوجيه السياسي والاقتصادي والعسكري، وذلك لمرورها الهائلة في المنح والمنع. وهي تقانة سلمية وودودة، وليس لها آثار سلبية، كما غيرها من إنجازات العلم المادي الملموس. ولكنها حاسمة في مواكبة العصر ومماشة التقدم. وقد رأى (نبيل علي) أن مشكلة العرب الثقافية أصبحت مشكلة بقاء، وليست مشكلة استقلال أو تبعية. وفي نظر هذا الباحث «لأول مرة في التاريخ البشري تتغير ثقافات العالم بهذه السرعة... وقد أسهمت الثقافة إسهامًا مباشرًا في هذه العولمة بفضل نفوذها إلى كل مناطق العالم من جهة، ونفوذها إلى كل مجالات النشاط الإنساني، والمنتج الفكري والعملي، والتحكم فيها كمياً وكيفياً، ثم توفير سرعة تبادل واستغلال المعلومات وتأثيرها السريع في الإدراك الإنساني»^(٦).

(٥) العرب وعصر المعلومات، لنبيل علي، ص ٣٠٢.

(٦) العرب وعصر المعلومات، لنبيل علي، ص ١٦٨.

العربية والعولمة وتقانة (تكنولوجيا) المعرفة:

للعولمة في هذا الباب وجهان متباينان، فكما نرى لها إنجازات ومزايا، نرى لها سلبيات وضحايا. ونرجى الحديث عن المزايا الآن، لنقول: إن العولمة اكتسحت في طريقها الكثير مما تحتاجه البشرية لصيانة تنوعها البشري.

وافتراد اللغة بحد ذاته كفيل بالقضاء على الأمة، فاللغة ليست أداة تواصل فحسب، بل وعاء للفكر والعقيدة والثقافة.

ونظراً لقيمة اللغة، فإن الفرنسيين الذين احتلوا الجزائر في العام ١٨٣٠ أغلقوا في البداية المدارس التي تتكلم العربية وأنشؤوا جامعتهم الفرنسية. ثم أصدروا في ٨ آذار من العام ١٩٣٨ أمراً ينص على اعتبار العربية الفصحى لغة أجنبية في الجزائر^(٧).

وكذلك كان أول القرارات التي اتخذها القائد الأمريكي بعد هزيمة اليابان في الحرب العالمية الثانية يقضي بتحويل الكتابة اليابانية إلى الحروف اللاتينية، لاعتقاده بأن الروح العدوانية عند اليابان سببها عزلة لغتهم.

ونظراً لإدراك الكوريين لأهمية لغتهم، فإنهم بعد أن استقلوا عن اليابان التي استعمرتهم ستين عاماً، كان أول مرسوم في أول عدد من جريدتهم الرسمية يحظر تداول اللغة اليابانية. وتم لهم ذلك بالجهد والاجتهاد.

ووعياً من فرنسا بأهمية اللغة في حياة شعبها، أصدرت الجمعية الوطنية فيها في العام ١٩٩٤ قراراً ينص على عدم السماح بعقد المؤتمرات العلمية الناطقة

(٧) انظر مقال عبد السلام المسدي: الثقافة العربية والعولمة، في كتاب مستقبل الثقافة العربية في

بالإنكليزية على الأرض الفرنسية. ولا شك في أن الحمية الوطنية كانت وراء هذا القرار^(٨).

ويبدو خطر العولمة أكبر إذا عرفنا أنه يموت في العالم لغة كل اثني عشر يوماً. وموت اللغة يعني موت آخر الناطقين بها. ويقدر عدد اللغات في العالم بـ / ٦٨٠٠ / لغة. وربما يختفي ما نسبته خمسون إلى ستين بالمئة من اللغات مع نهاية القرن الحادي والعشرين.

ولكن العربية، فيما يبدو، ليست في خطر حقيقي. وقد تنبأ الأديب الإسباني النوبلي (كاميليو جوزي سيلا) بأن أربع لغات لن تموت وهي: الإنجليزية، والإسبانية والصينية والعربية^(٩).

ومع ذلك، فإن هناك تحديات جمّة تواجه عربيتنا في زمننا المعولم، الذي يشيع فيه التعاطي مع الشبكة (الإنترنت) على نحو واسع جداً. إن حضور العربية على تلك الشبكة الدولية للمعلومات لا يمثل أكثر من واحد بالمئة من مجموع اللغات التي يستعملها العارفون بطرق التعامل مع هذه الشبكة، علماً بأن سكان الوطن العربي يمثلون خمسة بالمئة من سكان العالم. والنسبة السابقة ضئيلة جداً، إذا قيست بسيطرة اللغة الإنكليزية على معظم مواقع الإنترنت. ونسبتها ٦٨ بالمئة. أما اليابانية، ٩.٥ بالمئة، والألمانية ٥.٨ بالمئة، والصينية ٣.٩، والإسبانية ٤.٢.

(٨) انظر محمود السيد: تمكين اللغة العربية، مجلة المجمع بدمشق، مج ٨٣/٢، ص ٣٠١ وما بعدها.

(٩) انظر المسدي: الثقافة العربية والعولمة في كتاب مستقبل الثقافة العربية في القرن الحادي والعشرين، ص ٣٢١.

أما نسبة مستعملي الشبكة (الإنترنت) من العرب فكانت، بداية، ١.٤ بالمئة. وجُلُّهم يتعاطى مع مواقع غير عربية. وتعد تلك النسبة واحدة من مقاييس الفجوة الرقمية ما بين مجتمع المعلومات المتقدم، والمجتمع العربي المتخلف. ومن تلك المقاييس أيضًا عدد الهواتف الثابتة لكل فرد، وعدد خطوط الهاتف المحمول، وعدد الحواسيب لكل مئة ألف فرد، وعدد الحواسيب المضيفة للشبكة / الإنترنت/. ومن الإحصاءات التي تقدم فكرة عن الواقع العربي أن مستعملي الشبكة في سورية هم / ٣٦ / مستعملًا من كل / ١٠ / آلاف مواطن. وهذه نسبة ضئيلة جدًا إذا قيست بنسب مستعملي الشبكة في دول العالم المتقدمة. وهذه النسبة تتطور في كل يوم. وقد كتب محمد الناصر شام منذ العام ١٩٩٨ يقول: في كل دقيقتين يرتبط حاسوب بالشبكة العالمية التي يُطلق عليها اسم (الشبديلة) ونطلق عليها نحن في سورية اسم (الشابكة). ومما ذكره شام أنه كان يوجد في العالم سنة ١٩٩٧ / ٥٠ / ألف شبكة متنوعة مرتبطة إحداها بالأخرى بوساطة الشبكة. أما عدد العناوين الإلكترونية فهو ١٢٠ ألف عنوان، في العام ١٩٩٧. وتوقع لها الدارسون أن تصل إلى ٢٠٠ مليون في العام ٢٠٠٠. أما اليوم / ٢٠١٢ / فلا شك أن الرقم قد تضاعف مرات ومرات^(١٠).

والمعروف اليوم أن الأمية هي الأمية الثقافية التي قد يعاني منها المرء مع تكوينه الأكاديمي والشهادات التي يحملها. وهي أمية أخطر من أمية القراءة والكتابة التي يعاني منها مجتمعنا العربي الذي يضم بين بنيه، وفق تقارير اليونسكو

(١٠) انظر مقال شام: الثقافة العربية والإنترنت، في كتاب مستقبل الثقافة العربية، تونس

في العام ١٩٩٥ / ٦١ / مليوناً من الأميين. وقد ترتفع الأمية بمرور الزمن، ولا تتقلص^(١١). أما مقدار ما يسهم به العرب من محتوى الشبكة (الإنترنت) اليوم (٢٠١٢) فيقدره المتابعون بما لا يتجاوز أكثر من ٣ بالمئة من محتوياتها.

بيد أن الصورة ليست قائمة تماماً، فثمة طفرة عربية في مسألة التعاطي مع الشبكة، بوصفها واحدة من ثمرات المعلومات وإنجازات العولمة. فدلّيل الإنترنت العربي يحتوي على ٢٤ ألف موقع عربي وفق بعض التقديرات التي لا شك أنها تتعدل يومياً، ومنها مثلاً أن عدد من يستعمل الشبكة/ الإنترنت/ اليوم صار نحو ستين مليوناً. ولكن ما يهنا هنا هو النطاقات والصور والأشكال التي خدمت فيها العربية على الشبكة / الإنترنت / .

والجدير ذكره أيضاً أن عدد الصحف العربية المتوفرة على الشبكة/ الإنترنت/ قد بلغ /٧٦/ صحيفة. وهذا يمثل ٥٤ بالمئة من مجموع الصحف العربية. وهذا العدد قد يزداد في كل يوم، فنحن أمام هيولات متحركة ومتبدلة باستمرار... والمعروف أن أولى الصحف الإلكترونية دخلت الشبكة هي صحيفة الشرق الأوسط اللندنية، وذلك في العام ١٩٩٥، وتلتها صحيفة النهار البيروتية في العام ١٩٩٦. ولا ريب في أن حضور الصحافة العربية على الشبكة يمثل تعزيراً للعربية، ودعمًا لوجودها الكوني على صفحات الشبكة الدولية، وارتياحاً لكل الناطقين بها من الشعوب العربية وغير العربية.

نماذج من خدمة العربية على الشبكة:

(١١) انظر عبد العزيز غرمول: الثقافة العربية والتقانة، في كتاب مستقبل الثقافة العربية، ص

إن دليل الإنترنت العربي يحتوي على أكثر من ٢٤ ألف موقع^(١٢) ومن هنا، فإن استقصاء جميع تلك المواقع، أو البحث فيها عما يخدم العربية وعما لا يخدمها، شأن فوق طاقتنا... ولكن ما يُدرك كله لا يُترك جُلُّه. ففي موقع (كنوز) مثلاً نصادف «موسوعة اللغة العربية» وفيها العديد من الأبواب، منها مثلاً: فوارق لفظية وتعبيرات لغوية وألفاظ عامية لكنها فصيحة. ومنها: أسماء الأسود، وأسماء الذئب، وأسماء الأمراض والعلل. ومنها: مراتب الحب في اللغة، ومراتب السرور، ومراتب البخل. ومنها: أسماء الجماعات المختلفة، وأسماء السيوف وصفاتها، وأسماء الخمرة.

ولو توقفنا عند أسماء الأسود مثلاً، لوجدنا مدخل المادة يسوق / ٦٥ / اسماً، منها: الهمام والحيدرة والطحطاح والأشهب والبيهس والدرباس... إلخ. أما أسماء الذئب فهي هناك / ١٨ / اسماً منها: السرحان والأوس والنهشل والسيد والعملس والأطلس... إلخ. أما أسماء الخمرة فهي / ٢٦ / اسماً منها: المدام والراح والرحيق والسلاف والخرطوم والخندريس والصهباء والشمول^(١٣).

ولما كان البحث في الشبكة (الإنترنت) عن العربية وعلومها وآدابها يشبه البحث في بحر لا ساحل له، فسأتابعها هنا الإشارة إلى نماذج مما وقعت عليه في هذا الباب، وهذا أمرٌ فيه خدمة للعربية وللعاملين بها على صعيد تقانة المعرفة والتقانات الإلكترونية. وأول تلك النماذج ما يعاينه الباحث في موقع (الباحث العربي / arabiclinguistic) الذي يقدم خدمة البحث في أهم القواميس والمراجع

(١٢) انظر: www.dalel.Com.

(١٣) انظر: www.konouz.com.

اللغوية العربية. ويحتوي الموقع على أكثر من ٣١٠٠٠ مادة وأكثر من (٤٠٠٠٠٠٠) أربعة ملايين كلمة مجموعة من أهم المعاجم اللغوية المتوفرة في العالم العربي. وهذه الخدمة مجانية ولا تستدعي التسجيل أو الاشتراك. والموقع الثاني هو (المكتبة العربية الشاملة: www.shamela.w.s) وهي مكتبة تضم نحو ٤٤٧٦ كتاباً عربياً موزعة على عشرات الأقسام، وتعتمد على جهود المتطوعين. وبرنامجها يعمل مجاناً وصالح لاستقبال النصوص الجديدة. وقد نهضت به شركة مصرية. ولكن للأسف يصعب هنا التحقق من دقة الإدخال، ومن صحة النصوص المدخلة، التي صارت محفوظة في هذه المكتبة الشاملة. وربما كان هذا العيب ينطبق أيضاً على موسوعة الشعر العربي التي تضم نحو مليونين ونصف المليون من الأبيات، والتي أصدرها المجمع الثقافي في أبوظبي منذ سنوات. واحتفلت في العام ٢٠٠٩ بإصدارها الرابع عن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم. وتعد أكبر موسوعة للشعر العربي. وتحوي، في صورتها الأخيرة، أكثر من ثلاثة ملايين بيت من الشعر، لما يزيد على ثلاثة آلاف شاعر، من العصر الجاهلي حتى العصر الحديث. وتضم تلك الموسوعة ٥٩١ كتاباً أدبياً، وأربعة معاجم شعرية، و٢٦ تسجيلاً صوتياً. وعدد صفحاتها / ٦٧٦ / ألف صفحة. فأي إنجاز هذا؟

بيد أن تعجبنا الكبير من هذا الإنجاز الإلكتروني، ربما يشوش عليه ما يشوب تلك الموسوعة من ترخص في التوثيق، ومن احتواء على العديد من الأغلاط في الضبط وغير الضبط، وهذا يؤثر في سلامة النص الشعري. ومن أغلاط في الفهرسة أو نقص فيها، وغير ذلك مما يصعب حصره ها هنا... إلخ. ولعل أعظم عمل حاسوبي يخدم العربية هو إطلاق المدونة اللغوية العربية

التابعة لمدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية بالرياض^(١٤). والمعروف أن المملكة العربية السعودية قد رفعت المحتوى العربي للشابكة / الإنترنت / إلى خمسة أضعاف ما كان عليه فيما سبق. وربما كانت تلك المدونة التي تضم / ٧٠٠ / مليون كلمة واحدة من مكونات ذلك المحتوى. فقد دُشن في المملكة العربية السعودية، وفي معرض الكتاب للعام ١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢ م مدونة لغوية عربية من العصر الجاهلي حتى العصر الحديث. ويرمي موقع هذه المدونة إلى الوصول إلى مليار كلمة عربية. وتنوعت أوعية النشر في تلك المدونة ما بين مخطوطات وصحف وكتب ومجلات ودوريات علمية. وروعي في التصميم الترتيب الزمني والجغرافيا والوعاء المعلوماتي والمجال المعرفي والتصنيف الموضوعي. وهي ليست مكتبة إلكترونية لاستعراض النصوص وقراءتها، بل نموذج ممثل للغة تميزت بحسن التصميم وتنوع المجالات. وهي أول مدونة عربية بهذا الحجم والتنوع والتبويب والإحصاءات. وستكون متاحة للعامة والمتخصصين. وتمثل أساساً مهماً وبنية أساسية لكثير من الأعمال التي تتعلق باللغة العربية، كالمناهج الدراسية، وبناء المعاجم، ودراسة اللغة العربية وحوسبتها، ومعالجة النصوص، والترجمة الآلية. و يبدو أن هذه المدونة تتكامل مع مشروع الذخيرة اللغوية الذي اقترحه الدكتور الجزائري (عبد الرحمن الحاج صالح) ووافق عليه المجلس التنفيذي للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في ديسمبر من العام ١٩٨٨^(١٥). والذخيرة العربية

(١٤) انظر: www.aeabeagrag.ahlamontade.com.

(١٥) انظر: الصالح، ورقة توضيحية حول الذخيرة العربية، مجلة اللسان العربي، المغرب

هي بنك معلومات آلي قبل كل شيء، أو قاعدة من المعلومات تجمع إنتاج الفكر العربي القديم والحديث. وهي بنك نصوص لا بنك مفردات. ولم يبق هذا المشروع حبراً على ورق، بل بُدئ باتخاذ خطوات عملية لتنفيذه، ونُصّب لأجل ذلك مجلس للذخيرة العربية برئاسة الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح في الجزائر في ٢٧/٦/٢٠٠٩ ضم عدداً من العلماء والباحثين من مختلف الأقطار العربية، كان بينهم الدكتور محمد مكي الحسني الجزائري الأمين العام لمجمع اللغة العربية بدمشق^(١٦).

العربية والمصطلحات المحوسبة:

في تفصيل آخر لتحديات العربية لتقانة (لتكنولوجيا) المعلومات اعثني جيداً بقضية المصطلح الذي طالما عُقدت لمناقشته الندوات والمؤتمرات واللقاءات، وسُوِّدت في دراسة مسائله وشؤونه الآلاف من الصفحات. وأظهرت بعض الدراسات أن خمسين بالمئة من مفردات لغات البلدان تتكون من مفردات المصطلحات العلمية. وبعض تلك المصطلحات يستعمل على نطاق عالمي. ولا شك أن قضية المصطلح العربي تعد أولية من أوليات خدمة العربية التي تعاني أزمة حادة في هذا الباب. لأن المصطلحات يولدها في لغته من يخترع ما تشير إليه. ونصيب العرب من المخترعات في زماننا ضئيل جداً.

وكتب (عبد الرحمن بن عبد العزيز الفاضل) يقول: إنه في العام ١٩٨٧ كان يوجد ربع مليون مصطلح غير مدون في المعاجم العربية. وأنه يتولد في كل يوم نحو /٥٠/ مصطلحاً جديداً، أي /١٨٠٠٠/ ثمانية عشر ألف مصطلح في العام

(١٦) للتوسع في ذلك، انظر: w.w.w.son-al-dr.com.

الواحد في مختلف المعارف الإنسانية. وتلك المصطلحات لا تتولد في لغتنا، فمن يولّد المصطلح يعطيه جسده اللغوي. ومن هنا تبقى عملية الترجمة للمصطلحات قاصرة عن الشأو المرتجى^(١٧).

ونظرًا لما تقدم ظهرت الحاجة في عالمنا العربي لتأسيس بنوك آلية للمصطلحات تُدار بواسطة الحاسوب. وهذا شكل آخر من استجابة العربية لثورة المعرفة التي أفرزتها العولمة. وهنا لا بد من الإشارة إلى ما يسمى بتقانة (تكنولوجيا) اللغة، وتشمل هذه التقانة (التكنولوجيا) تقنيات التواصل بين الإنسان والآلة، مثل تعرّف الكلام آليًا وتركيب الكلام بوساطة الحاسوب، كما تشتمل على معالجة اللغة الطبيعية آليًا، حيث يقوم الحاسوب بالمعالجات الصرفية والنحوية والدلالية آليًا، وتشتمل أخيرًا على تقنيات الترجمة الآلية بمساعدة الحاسوب من اللغة العربية وإليها^(١٨).

وأشار الباحثان محمد مراياتي ومروان البواب إلى أن المعرفة لها أشكال أربعة هي: معرفة المعلومة، أو معرفة ماذا؟ ومعرفة العلة، أو معرفة لماذا؟ ومعرفة الكيفية، أو كيف؟ ومعرفة أهل الاختصاص، أو معرفة من؟ وفي كل هذه الأشكال يعد المصطلح حجر الأساس في جمع أو تحصيل المعرفة وخبزها وإدخالها في الحاسوب، ثم معالجتها فهرسةً وبحثًا وتصنيفًا، وأخيرًا في استرجاعها ونشرها واستعمالها.

(١٧) انظر: مقال عبد الرحمن الفاضل البنك السعودي للمصطلحات باسم، مجلة اللسان

العربي، الرباط، ١٩٩٨ مج ٤٧ ص ٨٠.

(١٨) انظر: محمد مراياتي ومروان البواب: التكنولوجيا الحديثة والمصطلح العلمي، مجلة المجمع

بدمشق، ٢٠٠٠، مج ٧٥/ج ٣ ص ٦٥٨.

ويشير الباحثان إلى صلة المصطلح بالاقتصاد الحديث، فيقولان: «باستناد الاقتصاد الحديث إلى المعرفة واستناد تداول المعرفة بكل عملياتها إلى المصطلح، وباتجاه المجتمع نحو مجتمع المعلومات، أصبح المصطلح ضرورة اقتصادية واجتماعية ملحة»^(١٩).

ولمّا كان نجاح تفاعل الأمة مع اقتصاد المعرفة مرهوناً بالتعامل معه باللغة الأم، برزت الحاجة لتأسيس بنوك مصطلحات عربية تهتم بالمصطلح وبخدمته ونشره وتداوله.

يوجد، في حدود علمنا، حتى اليوم، خمسة بنوك آلية للمصطلحات. وقد تحدث عن أربعة منها الكاتب محمود إسماعيل صيني في مادة له بعنوان «بنوك المصطلحات الآلية»^(٢٠). وتلك البنوك هي:

١- بنك المعربي /lexar/ في الرباط وهو الأقدم بين البنوك الأربعة، والأكبر مادة لغوية وجهازاً إدارياً. ولديه مليون وحدة معجمية مخزنة في ذاكرة حاسوبه باللغات العربية والإنكليزية واللاتينية. وتشمل جوانب المعرفة الإنسانية والاجتماعية والعلمية والتقنية.

٢- بنك «باسم» السعودي: حوى في العام ١٩٩٣ نحو /٢٩٢/ ألف كلمة ولغاته أربع، وهي العربية والإنكليزية والفرنسية والألمانية. وتشمل المعلومة فيه المصطلح المعربي والمصطلح الأجنبي والتصنيف والتعريف ومصادر المصطلح ومعلومات نحوية. ومررت بنا من قبل إشارة إلى دراسة حوله في مجلة اللسان المعربي.

(١٩) مجلة المجمع بدمشق، مج ٧٥ ج ٣ ص ٦٥٢-٦٥٣.

(٢٠) نجدتها في الرابط (www.atida.Org).

٣- بنك «قمم»، أو قاعدة المعطيات المصطلحية. وأنشئ في تونس في العام ١٩٨٦. وهو ينسق ويتعاون مع بيت الحكمة، الذي يناظر المجامع اللغوية في الأقطار العربية.

٤- بنك مجمع اللغة العربية الأردني للمصطلحات: وأسس في العام ١٩٨٨، ومن شأنه:

- جمع المصطلحات ومعالجتها ونشر المصطلحات الموحدة بشتى الطرق.

- لدى هذا البنك / ٤٣٠ / ألف مدخل للمصطلحات، ولغاته ثلاث، العربية إحداهما.

وقد سجل الباحث (صيني) ملاحظاته على بنوك المصطلحات العربية، فذكر التالي:

- لا بد أن تفيد تلك البنوك من الأقراص المرنة / videodisks / التي تخزن الصور والرسوم التوضيحية والمصورات الجغرافية، ولا تقتصر على القرص المضغوط / CD / .

- خدمات تلك البنوك غير مفتوحة للجميع، ومعظمها موصد الأبواب أمام طالبي الفائدة.

- بنوك المصطلحات تكرر الجهود ذاتها، مع بعض الإضافات، لذا لا بد من التنسيق فيما بينها.

- يؤمل أن ترتبط تلك البنوك بشبكة واحدة تتيح خدماتها للجميع أينما كانوا في الوطن العربي.

وأغفل الباحث (صيني) بنك المصطلحات الذي أنشأه ورعاه مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

وقرأتُ على الشابكة / الإنترنت / أن مقر الألكسو في تونس شهد في ٦/ آذار (مارس) ٢٠١٢ توقيع اتفاقية شراكة بين المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم من جهة، والوكالة الألمانية للتعاون الدولي (giz) من جهة أخرى، لإنجاز قاموس تقني تفاعلي رباعي اللغة متاح على شبكة الإنترنت. واللغات التي ستعتمد هي العربية والألمانية والفرنسية والإنكليزية. ولا ريب في أن هذا المعجم يعضد معاجم المصطلحات المشار إليها سابقاً، ويدخل في نطاق التعليم ويُسهم في النهوض باللغة العربية للتوجه نحو مجتمع المعرفة.

المعجمية وتقانة (تكنولوجيا) المعرفة :

ويشير الباحث (عبد الرحمن بن حسن العارف) إلى أن العمل باللسانيات الآلية في أمريكا جرى، أول مرة، في العام ١٩٥٤، أي بعد اختراع الحاسوب بست سنوات. أما في أوروبا فكانت أقدم محاولة لدراسة اللغة بواسطة الحاسوب قد جرت في العام ١٩٦١.

وعلى الصعيد العربي، يبدو أن (إبراهيم أنيس) هو الذي اقترح على الدكتور (علي حلمي موسى) أستاذ الفيزياء النظرية في جامعة الكويت في العام ١٩٧١ الاستعانة بالحاسوب في إحصاءات الحروف الأصلية لمواد اللغة العربية. ورحب الدكتور (علي حلمي موسى) بالفكرة، وخطط لها، ونفذها في العام ذاته. وكان من ثمره ذلك صدور الدراسة الإحصائية للجذور الثلاثية لمعجم «الصحاح» للجوهري. وكانت خطوات العمل تتمثل بثلاث مراحل، أولها إدخال المواد اللغوية في ذاكرة الحاسوب، وثانيها وضع برنامج بإحدى لغات الحاسوب، وثالثها التنفيذ العملي لهذا البرنامج^(٢١).

وتبع ذلك صدور دراسة ثانية لإحصاء جذور معجم «لسان العرب» لابن منظور، وذلك في العام ١٩٧٢. ودراسة ثالثة لإحصاء جذور «معجم تاج العروس» للزبيدي في العام ١٩٧٣. وصدرت تلك الأعمال كلها عن جامعة الكويت، وكانت ابتكارًا لم يسبق إليه من قبل. وتبع ذلك جهد علمي آخر هو «إحصاء الأفعال العربية في المعجم الحاسوبي» وهو من صنيع الباحثين السوريين مروان البواب ومحمد المراياتي ومحمد حسان الطيان، ونشر في بيروت في العام ١٩٩٦^(٢٢).

وتطورت المسألة تدريجيًا، وظهرت مؤلفات حول العربية والحاسوب، وأهمها كتاب نبيل علي «اللغة العربية والحاسوب» (١٩٨٨) الذي يعد حجر الزاوية في مسيرة البحث اللغوي العربي. وكتاب نهاد موسى «العربية - نحو توصيف جديد في ضوء اللسانيات الحاسوبية (٢٠٠٠)». وأقيمت ندوات لذلك عديدة في مختلف الأقطار العربية. ووضعت برامج ونظم لحوسبة العربية. وأنشئ قسم خاص لعلم اللغة الحاسوبي، كما هي الحال في جامعة الأمير سلطان الأهلية بالرياض.

وواضح أن إنجازات العربية المحوسبة هي ثمرة للتعاون ما بين اللغويين والحاسوبيين. وقد تنوعت تلك الإنجازات ما بين الأنشطة الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية. وبرز في هذا الميدان أسماء عربية عديدة منها محمد الصالح الضالع (جامعة الإسكندرية) والدكتور سمير استيتية (جامعة اليرموك) والدكتور سالم غزالي (مدير مخبر معالجة الكلام العربي بالمعهد الإقليمي لعلوم الإعلام والاتصال عن بعد (تونس) والدكتور منصور الغامدي (مركز علوم وتقنية الأصوات بمدينة الملك عبد العزيز (الرياض)... ومحمد مراياتي ومروان البواب من سورية... إلخ.

ويهمنا هنا أن نتوقف عند الجهود الحاسوبية في خدمة المعجمية العربية. ويبدو أن مساحة الإفادة من الحاسوب في المعجمية واسعة جدًا. وبدأ يبرز فرع مستقل من فروع علم اللغة الحاسوبي يدعى «علم المعجم الحاسوبي».

ويعدد الباحث (عبد الرحمن بن حسن العارف) الذي أفدنا كثيرًا ها هنا من دراسته «توظيف اللسانيات الحاسوبية في خدمة الدراسات اللغوية العربية»^(٢٣)، يعدّ نماذج من الجهود العلمية في هذا المجال، فيذكر الدكتور محمد الحناش (المغرب) صاحب مشروع علمي عمل عليه سنوات طويلة، وتوّجه بإصداره كتاب «المعجم التركيبي للغة العربية - مقدمات في المعالجة الحاسوبية للغات الطبيعية».

ومن المشاريع العلمية ضمن هذا التوجه ما قام به معهد اللغة العربية بجامعة الملك سعود بالرياض من إصدار المكنز الوجيز «معجم في المترادف والمتوارد» و«معجم التعبيرات الاصطلاحية» بإشراف د. محمود إسماعيل صيني. والكنز الكبير «معجم شامل للمجالات والمترادفات والمتضادات» تأليف أحمد مختار عمر، ونشر في السعودية في العام ٢٠٠٠.

وهناك مؤسسات بذلت جهودًا في مكننة المعجم العربي كما في مشروع الشركة العالمية للبرامج (صخر) بالكويت، ومشروع الشركة العالمية لبرامج الحاسوب بالقاهرة، ومشروع المركز العلمي لشركة آي. بي. إم بالقاهرة لتطوير قاعدة بيانات معجمية.

ولا بد لنا، ونحن نتدارس المعجمية الحاسوبية، من وقفة قصيرة عند المعجم التاريخي الذي تعمل الجامعات العلمية للغة العربية على إنجازه.

المعجم التاريخي للغة العربية:

المعجم التاريخي للغة العربية هو المعجم الذي يرصد تطور دلالات الألفاظ وعلاقتها بعضها ببعض صرفياً ودلالياً. وتاريخ ظهور المفردة وتغيراتها الصوتية والدلالية. وتعد المعجمات التاريخية للغات عنواناً من عناوين تقدمها وتطورها. لأنها تسجل تاريخها الفكري والحضاري والعلمي. ومع وجود نحو / ١٥٠٠ / معجم في اللغة العربية من مختلف الأصناف، فإن المعجم التاريخي الذي يعمل عليه اليوم اتحاد المجامع العربية، يبقى هو الأهم وهو الأعظم. والمعجم اللغوي مثل الصحاح ولسان العرب وتاج العروس ليست إلا روافد من روافده، في حين روافده الأخرى هي كل ما أنتجه العرب في مختلف فروع الأدب والفن والمعارف والعلوم.

وقد اعتمد مجمع اللغة العربية في القاهرة منذ تأسيسه فكرة تأليف هذا المعجم، وعياً منه بأهميته وأثره في خدمة اللغة والحضارة العربيتين. وجاء في المادة (٢)، الفقرة (ب) من مرسوم بإنشاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الصادر في سنة ١٩٣٢ م ما يلي: «أن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية، وأن ينشر أبحاثاً دقيقة في تاريخ بعض الكلمات، وتغيير مدلولاتها». ولهذا حين أسند معهد الاستشراق الألماني لـ (أوغست فيشر) العمل بهذا المشروع، أُلّف مجمع القاهرة لجنة لمعاونته في العام ١٩٣٦. ومن الجدير بالذكر أن (فيشر)، وهو أستاذ بجامعة ليزر الألمانية، كان ينوي وضع معجم تاريخي للغة العربية حتى نهاية القرن الثالث الهجري. وبعد أن بدأ بالعمل، عرض بعض عمله على اللجنة، فسجلت عليه بعض الملاحظات، وأهمها عدم فهمه الدقيق لبعض المعاني، وخلطه بين الحقيقة والمجاز، فهو عندما يقف عند الآية الكريمة: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] يقول: تأخذه، بمعنى تنومه.

ومعناها الصحيح تغلبه. وهذا يفضي إلى الاستنتاج أن الأولى بعمل المعجم الذي نتحدث عنه هم أبناؤه الخالص ذوو السلائق السليمة، والإحساس الفطري بدقة المعاني وبأطيافها المحيطة. ومع ذلك فقد عمل فيشر، قبل وفاته في العام ١٩٤٩، جزءاً من حرف الألف ينتهي عند مادة (أبد). وكان (فيشر) يرى أن كل كلمة وجدت في اللغة ينبغي أن تدخل المعجم وتعرض حسب وجهات النظر السبع التالية: التاريخية والاشتقاقية والتصريفية والتعبيرية والنحوية والبيانبة والأسلوبية.

وبدهي أن وراء مشروع «فيشر» الذي لم يتم، إعجاباً شديداً بثناء العربية وغناها النادرين، وهو القائل: «إذا استثنينا الصين، فلا يوجد شعب يحق له الفخار بوفرة كتب علوم لغته غير العرب»^(٢٤).

وفي أواسط الثمانينيات من القرن العشرين أُسِّست في تونس جمعية المعجمية العربية، واهتمت بمشروع المعجم التاريخي للغة العربية، وخصته بندوتها العلمية الثانية في العام ١٩٨٩. وأنشئ في العام ١٩٩٠ مشروع المعجم العربي التاريخي بتمويل من الحكومة التونسية، ثم توقف. وأعيد العمل به في العام ١٩٩٦. وأخيراً قرر اتحاد الجامعات العربية إنشاء مؤسسة مستقلة تتفرغ لتأليف المعجم التاريخي للغة العربية، وأسند إلى مجمع اللغة العربية بدمشق وضع الخطة المتبعة لإنجازه، ففعل. وقُدمت للعمل في هذا المعجم خطة بتوقيع الدكتورين شاكر الفحام وإحسان النص، وهي إحدى وثائق المجمع بدمشق. ولدى اطلاعي عليها وجدتها تتحدث بداية عن الغاية من تأليف المعجم التاريخي، والفوائد المتوخاة منه، ثم تتوقف عند فقرة عنوانها الخطة المقترحة لهذا المعجم. وهي ما يهمننا هنا، وترى في بدايتها أن هذا المعجم ينبغي

(٢٤) انظر: مجمع اللغة العربية في خمسين عاماً، لسوقي ضيف، ص ١٥١ وما بعدها.

أن يحتوي على جميع ألفاظ اللغة وتراكيبها، إضافة إلى الألفاظ والمصطلحات المستحدثة، ولا بد من البحث عن الأصول التي ترجع إليها هذه اللغة. وهذا الأمر يقتضي الوقوف على مقابلات ألفاظ اللغة العربية في أخواتها الساميات، لمعرفة أيها الأقدم والأسبق وجوداً، ومعرفة دلالات هذه الألفاظ في اللغات الأخرى. أما الأسلوب الذي ينبغي اتّباعه في إثبات مداخل المعجم فيتضمن النقاط التالية، وفقاً لورقة الدكتورين إحسان النص وشاكر الفحام المذكورة سابقاً.

أولاً - يقوم منهج وضع المعجم التاريخي على الأخذ بمبدأ تسلسل الأصول اللغوية أو الجذور بعد تجريدتها من الزوائد وفق الحروف الأولى في الألفاظ، ويستثنى من ذلك الألفاظ الدخيلة والمعربة التي لا يمكن معاملتها معاملة الألفاظ العربية المشتقة من الجذور اللغوية... فمثلاً كلمة (منجنيق) المعربة إذا أردنا إرجاعها إلى الجذر الذي اشتقت منه لا ندرى أهو (مجن) أو (جنق) أو (مجنق). فإذا أخذنا بمبدأ الحروف الأولى نرجع إليها في الجذر الثلاثي (منج).

ثانياً - تثبت مداخل المعجم والجذور اللغوية بعدد من الزوائد على ترتيب حروف المعجم ووفق أوائلها تَوَخُّياً لسهولة المراجعة، ثم يذكر في المدخل جميع الألفاظ المشتقة من الجذر طبقاً لأصول الاشتقاق العربية.

ثالثاً - يثبت الجذر ويذكر معه جميع الألفاظ المشتقة منه كاسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة والمصدر الميمي وصيغ المثني والجمع من المذكر والمؤنث.

رابعاً - يبحث عن كل لفظ في النصوص التراثية وفق التابع الزمني منذ العصر الجاهلي حتى العصر الحاضر، وتسجل دلالاته المختلفة باختلاف العصور والبيئات، وتذكر الشواهد التي ورد فيها هذا اللفظ في القرآن الكريم والحديث

الشريف الصحيح وفي النصوص الثرية و الشعرية. ولا بد من استقراء جميع ما ورد في كتب التراث وفي النقوش العربية وكتب الغريب والمترادف والأضداد والمشارك اللفظي والمعجم العامة ومعجم المعاني وكتب المتأخرين الذين عنوا بالمصطلحات والألفاظ المستحدثة.

خامساً - تذكر الألفاظ التي طرأ عليها ما غير صيغة الأصل بسبب الإعلال والإبدال وتعاد إلى الجذور الأولى التي اشتقت منها.

سادساً - يعنى المعجم التاريخي بذكر تعريفات مستفيضة واضحة للألفاظ التي وردت في المعجمات ولم توضح دلالاتها بدقة، مثل تعريف بعضها لأنواع النبات بقولها: نبات أو معروف. وينبغي عند الاقتضاء الاستعانة بالمعطيات العلمية فنورد بإيجاز التراكيب الكيميائية، كتعريف الماء والصوت والضوء واللون... إلخ.

سابعاً - تثبت في المعجم الألفاظ الدخيلة والمعربة مع ذكر اللغة التي أخذت منها، ومتى عرّبت ودلالاتها الأصلية والمستحدثة.

ثامناً - تذكر في المعجم المصطلحات التي أقرتها الجامعات اللغوية والمؤسسات الأخرى، كالمعجم الطبي الذي أصدره وزراء الصحة العرب، ويذكر إلى جانبها مقابلاتها الإنكليزية والفرنسية.

تاسعاً - لا بد من استعمال الوسائل الحديثة كالحاسوب، لدى جمع مداخل المعجم وألفاظه ثم تخزين هذه الألفاظ وتصنيفها وتنسيقها بهذه الوسائل.

ومن المهم أن يكون لهذا المعجم موقع على الشبكة (الإنترنت) وأن يكون مفتوحاً للراغبين في المشاركة ضمن شروط محددة.

صحيح أن المهندسين اللغويين لهم دور حاسم في هذا المجال، ولكن العمل

في هذا المعجم قد يستغرق عشرات السنين. وقد ذكر علي القاسمي أن معجمًا تاريخيًا لإحدى اللغات غير المشهورة استمر العمل به مئة عام كاملة. إن صناعة المعجم بأي لغة كانت، هي صناعة ثقيلة بالمعايير العلمية، وصناعة المعجم التاريخي هي في المقدمة منها. ومن هنا لا يقوى على تنفيذ متطلباته إلا مؤسسة ضخمة لها ميزانيتها المالية الكبيرة، ولها ملاكها العلمي المناسب، ولها متطلباتها التقنية الضرورية. ولهذا السبب أخذ اتحاد الجامعات العربية على عاتقه تنفيذ تلك المهمة الكبيرة. وهكذا يتضح لنا أن لغتنا العربية قد تفاعلت مع ثورة المعلومات وثمار التّقانة (التكنولوجيا)، فأستت لها بنوگًا للمصطلحات، وأصدر العاملون في خدمتها العديد من الموسوعات الشعرية، وخبزنوا الكثير من أمهات الكتب، كما قام بعض العارفين بالحاسوب وهندسة اللغات بإنشاء المدونة اللغوية العربية التي تضم /٧٠٠/ مليون مفردة. وهي اليوم تسعى جاهدة لصنع معجمها التاريخي الذي يعد مكنزًا عظيمًا لحضارة الأمة وصورة حقيقية لمسيرة حياتها بجوانبها المختلفة.

مراجعات البحث

- ١- الموسوعة العربية، دمشق، مج ١٣ (مادة العولمة).
- ٢- توملينسون، جون: العولمة والثقافة، ترجمة إيهاب عبد الرحيم محمد، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، ٢٠٠٨، رقم ٣٥٤.
- ٣- علي، نبيل: العرب وعصر المعلومات، الكويت، ١٩٩٤، سلسلة عالم المعرفة، رقم ١٨٤.
- ٤- المسدي، عبد السلام: الثقافة العربية والعولمة، دراسة في كتاب: مستقبل الثقافة العربية في القرن الحادي والعشرين، تونس ١٩٩٨.

- ٥- السيد، محمود: تمكين اللغة العربية، مقال في مجلة المجمع بدمشق، مج ٨٣/ج ٢.
- ٦- شمام، محمد الناصر: الثقافة العربية والإنترنت، ضمن كتاب: مستقبل الثقافة العربية في القرن الحادي والعشرين، مصدر سابق.
- ٧- غرمول، عبد العزيز: الثقافة العربية والتقانة، ضمن كتاب: مستقبل الثقافة العربية، مصدر سابق.
- ٨- www.dalel.com
- ٩- www.konouz.com
- ١٠- www.arabiclinguistic.net
- ١١- www.chamela.w.s
- ١٢- www.aobeograg.ahlomontade.com
- ١٣- الحاج صالح، عبد الرحمن: ورقة توضيحية حول الذخيرة العربية، مجلة اللسان العربي، الرباط، ١٩٩٨، مج ٤٧.
- ١٤- الفاضل: عبد الرحمن بن عبد العزيز: البنك الآلي السعودي للمصطلحات باسم، مجلة اللسان العربي الرباط، ١٩٩٨، مج ٤٧.
- ١٥- مراياتي، محمد، والبواب، مروان: التكنولوجيا الحديثة والمصطلح العلمي، مجلة المجمع بدمشق، ٢٠٠٠، مج ٧٥/ج ٣.
- ١٦- صيني، محمود إسماعيل: بنوك المصطلحات الآلية في الرابط: www.atida.org
- ١٧- العارف، عبد الرحمن: توظيف اللسانيات الحاسوبية في خدمة الدراسات اللغوية العربية، مجلة المجمع بالأردن، عمان، ٢٠٠٧، ع ٧٣.
- ١٨- ضيف، شوقي: مجمع اللغة العربية في خمسين عامًا، القاهرة، ١٩٨٤.

من مظاهر الافتراق الأسلوبي بين القرآن والحديث مستوى الألفاظ أنموذجاً

الدكتور خليل محمد أيوب (*)

هذه الدراسة - كما يدلّ عنونها - تدور حول أسلوبي القرآن والحديث، وما بينهما من افتراقٍ أسلوبي لا يكاد يُحصى، يجعل لكلٍّ منهما هيئةً تختلف عن الأخرى، فما هذا الافتراق؟ وما معالمة؟ ولم كان؟ وعلام يدلّ؟ جملةً من الأسئلة أحاول أن أجيب عنها في هذه الدراسة. ولكن من الحسن قبل الشروع في تناولها أن أُبين عن المراد من الافتراق موضوع الدراسة؛ إذ الافتراق الأسلوبي بين القرآن والحديث على ضربين: أولهما: افتراق في النظم. وبه صار القرآن آية النبوة، وهو غير مقتصر على الكلام النبوي، وإنما يشمل كلّ كلام بشري، ومدار الكلام فيه على الفرق بين ما هو إلهي، وبين ما هو بشري. وثانيهما: افتراق في الألفاظ والتراكيب وطريقة القصّ وغير ذلك^(١)، وهو افتراق لا يتصوّر وقوعه لو كان النبي ﷺ منشئاً للقرآن؛ وذلك

(*) باحث في اللغة والتراث من سورية.

(١) انظر ما كتبه أستاذي العلامة الدكتور إبراهيم عوض حفظه الله في كتابه الفدّ «القرآن والحديث مقارنة أسلوبية» وقد عرض فيه لمئات من أوجه الافتراق الأسلوبي التي تقرر استحالة أن يكون القرآن والحديث من لدن مؤلف واحد. ولكن الطبيعة الوصفية للدراسة حالت دون الوقوف على تفسيرات أخرى لبعض أوجه الافتراق لا تتعارض مع النتيجة الوحيدة والكبرى التي انتهت إليها الدراسة، وإنما تكملها، وتسير بموازاتها.

لأنّ الإنسان لا يستطيع أن ينخلع من إنسانيته، ولا يستطيع أن ينفكّ من أسلوبه؛ إذ (الأسلوب هو الرجل) (٢).

وهذا الافتراق الأخير هو موضوع الدراسة، وسيكون كلامي فيه مقصوراً على مستوى الألفاظ، وسأكتفي بالتمثيل له بأربعة أوجه؛ وذلك لاستيفاء الكلام عليه ما أمكن، ودرسه درساً مفصلاً معللاً؛ فالنظير يغني عن نظيره، والشبيه يدلّ على شبيهه. وهذه الأوجه هي ما يلي:

أولاً- اللفظان مختلفان، والمعنى واحدٌ.

ثانياً- تطابق اللفظ والمعنى، واختلاف الصيغة والحال.

ثالثاً- اللفظ واحدٌ، والمعنى مختلفٌ.

رابعاً- اللفظ في الحديث، ولا وجود له في القرآن.

أولاً- اللفظان مختلفان والمعنى واحد (٣):

أ - القذف والرمي في التعبير عن الاتهام بالزنا ظلماً وعدواناً.

إنّ من يستقري هذا المعنى في القرآن والحديث يلحظ افتراقاً تاماً بينهما في

التعبير عنه؛ فقد عبّر عنه القرآن بلفظ الرمي، وذلك ما لم يستعمله الحديث النبوي؛

إذ استعمل لفظ القذف. فمن أمثلة الحديث في استعمال لفظ القذف ما يلي:

(٢) دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، الدكتور أحمد درويش، ص ١٨.

(٣) ويندرج هذا الوجه تحت ما يُسمّى بموضوع الترادف، وقد ذهب أهل العلم في شأنه قديماً

وحديثاً مذهبين مختلفين متغايرين، فقال قوم بوجوده، وقال آخرون بعدم وجوده. انظر ما

كتبته الدكتورة عائشة عبد الرحمن حول هذا الموضوع في كتابها: الإعجاز البياني للقرآن،

ص ٢١٠-٢٣٧. وما كتبه الدكتور أحمد مختار عمر عن الترادف وأشبه الترادف في القرآن

الكريم في كتابه: دراسات لغوية في القرآن الكريم وقراءاته، ص ١٠١-١٢٩. وما كتبه الدكتور

حمود توفيق سعد في كتابه دلالة الألفاظ على المعاني عند الأصوليين، ص ٥٣٧-٥٦٢.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال أبو القاسم عليه السلام: «مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ، وَهُوَ بَرِيءٌ مِمَّا قَالَ جُلِدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ»^(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي عليه السلام قال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوْبَقَاتِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ قَالَ الشَّرْكَ بِاللَّهِ وَالسَّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْعَافِيَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ»^(٥). وأما لفظ الرمي في القرآن للتعبير عن الاتهام بالخطيئة ظلماً وعدواناً فقد جاء في ثلاث آيات:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْعَافِيَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣].

ويقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤].
ويقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور: ٦]. وفي (التعبير عن الشتم بالزنا بالفعل (يرمي) إشارة إلى أن أثر اللسان لا يقل عن أثر السنان نكايته، بل هو أشد وأبقى. ولك أن تذهب إلى أن في الفعل (يرمي) استعارة تصور لك الحدث في صورة بصرية لا تكاد تغيب عن ناظر (يرمي) (٦). وقل مثل هذا في استعارة القذف وأكثر.

(٤) البخاري، ٦٤٦٦. مسلم، ١٦٦٠. واللفظ عندهما يكاد يكون واحداً. وأما بنيان الاستعارة فواحد في الروايتين.

(٥) البخاري، ٢٦١٥، ٦٤٦٥. مسلم، ٨٩. ولم يرد فعل الرمي في أي رواية من روايات هذا الحديث، وهذا يدل على أن لفظ القذف لفظ نبوي. فقد جاء عند أبي داود ٢٨٧٤، وجاء كذلك عند النسائي، ٣٦٧١.

(٦) دلالة الألفاظ على المعاني عند الأصوليين، د. محمود توفيق سعد، ص ٣٦٦.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: ؟ لم لم يدل القرآن على الاتهام بالزنا بلفظ القذف؟ ولم لم يدل الحديث على ذلك بالرمي؟ بمعنى آخر: لم كان ذلك الافتراق اللغوي بين الأسلوبين؟ وهل من فرق بين القذف والرمي؟ ثم لم شاع لفظ القذف على ألسنة المسلمين منذ الزمن الأول، وتوارى اللفظ الآخر حتى لكأنه اختفى؟ وحتى نجيب عن هذا السؤال إجابةً وافيةً تامةً فإنه لا بد أن نستقري لفظي القذف والرمي في الخطاب القرآني لنقف على دلالتها وسياق استعمالها. فإذا ما بدأنا بفعل القذف فإننا نلاحظ أنه قد جاء في تسع آيات، وهي:

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرِبُونَ بِيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صِيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب: ٢٦].

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ الأنبياء: ١٨. ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ﴾ [سبأ: ٤٨].

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ أَنْ اقْذِفِي فِي الثَّابُوتِ فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٨، ٣٩].

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٧].

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ

لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِفُونَ بِالْعَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكِّ مُرِيْبٍ ﴿٥٤﴾ [سبأ].

﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصفات]. وينتهي المتأمل لهذه الآيات إلى ما يلي:

أولاً: أُسند فعل القذف إلى الله تعالى في أربع آيات، وهي: الحشر، والأحزاب، والأنبياء، وسبأ. وأُسند إلى غير الله في ثلاث آيات هي: آيتا طه، وآية سبأ. وفي آية واحدة جاء الفعل فيها مبنياً لغير فاعله، وكان الإسناد فيها غير صريح، وهي آية الصفات.

ثانياً: إن الآيات الأربع التي أُسند فيها القذف إلى الله كان القذف فيها على سبيل المجاز، وما بقي من الآيات فعلى سبيل الحقيقة.

ثالثاً: لم يُستعمل مع فعل القذف ألفاظ الأسهم والحجارة، وغير ذلك مما جاء مع فعل الرمي - كما سترى - مما يُرمى من مكان قريب، وإنما استعمل معه لفظ الشهب كما في آية الصفات؛ وذلك لأن القذف لا يكون إلا من مكان بعيد. يقول الأصفهاني: «القذف: الرمي البعيد، ولا اعتبار البعد فيه قيل: منزل قذف وقذيف، وبلدة قذوف: بعيدة»^(٧).

رابعاً: جاء القرآن الكريم بفعل القذف في مقام الصراع مع الباطل، كما في الآيات التي أُسندت أفعالها إلى الله، وفي آيتي سبأ والصفات، وجاء به في مقام الحب الشديد للشيء، كما في آية أم موسى، ويكون المقذوف في هذه الحال ذا مكانة عند

(٧) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ج ٢، ص ٢٢٨.

القاذف، ولو تُرك إلى نفسه لما قذفه، فأُمّ موسى ما كانت لتلقي فلذة كبدها في اليمّ لولا أنّ الله أوحى إليها، ودفعها إلى ذلك دفعاً، وجاء به في مقام الرغبة في الخلاص ممّا تحبّ النفس؛ لأنّه ثقيل، وجاء من طريق غير صحيح، كما في آية قوم^(٨) موسى، فقد كان يتنازعهم شعوران: أولهما: الحبّ الشديد للحلي. وثانيهما: الإحساس بحرمة هذا الحلي؛ لأنّهم جاؤوا به من غير الطريق السوي الصحيح، وجاء به في مقام الاجترار والتطاول على ما لا قدرة للإنسان عليه، كما في آية القذف بالغيب؛ إذ يرمي الكفار ظنونهم في الغيب البعيد. وكأنّ بُعد الغيب عن معرفة الإنسان هو ما جعل القرآن يؤثر القذف على الرمي، الذي لا يكون إلا للمكان القريب.

وأما فعل الرمي فقد ورد في سبع آيات، نذكر أربعاً منها؛ لأنّ ثلاثاً قد

ذكرت من قبل، وهذه الآيات هي:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧].

﴿انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (٤٩) ﴿انْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ (٣٠) ﴿لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ (٣١) ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّ كَالْقَاصِرِ﴾ (٣٢) ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَاتٌ صُفْرٌ﴾ (٣٣) ﴿وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٣٤) ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ (٣٥) ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ (٣٦) ﴿وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٣٧) ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأُولَىٰ﴾ (٣٨) ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا﴾ (٣٩) ﴿وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٤٠) [المرسلات].

﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الفيل: ٤].

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾

[النساء: ١١٢]. ويخلص المتأمل في الآيات التي ورد فيها فعل الرمي إلى ما يلي:

(٨) انظر خبر قصة قوم موسى مع السامري تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج ٥، ص ٣٠٩-٣١٤.

أولاً: لم يُسند فعل الرمي في تلك الآيات إلى الله تعالى إلا في آية الأنفال، وكان في هذه الآية رمي من النبي ﷺ بخلاف أفعال القذف التي خلصت لله تعالى، ولكن ما أحدثته الرمية من أثر عظيم لا يبلغه رمي البشر جعل القرآن ينفي أن يكون حصل من النبي رمي. يقول الزمخشري في التعليق على هذه الآية: «وما رميت أنت يا محمد إذ رميت ولكن الله رمى» يعني أن الرمية التي رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة؛ لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمي البشر، ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم، فأثبت الرمية لرسول الله ﷺ؛ لأن صورتها وجدت منه، ونفاها عنه؛ لأن أثرها الذي لا تطيقه البشر فعل الله - عز وجل - فكأن الله هو فاعل الرمية على الحقيقة، وكأنتها لم توجد من الرسول عليه الصلاة والسلام أصلاً^(٩).

ثانياً: جاء القرآن بفعل الرمي في مواجهة الباطل ومحاسبتها، كما في آيات الأنفال والمرسلات والفيل، وجاء به كذلك في العدوان على الحق، نحو اتهام الناس ظلمًا بفعل لم يقربوه، كما في آيات الرمي بالزنا، وآية النساء.

ثالثاً: استعمل القرآن مع فعل الرمي في مقام المواجهة والمحاسبة ألفاظاً كمثلاً: السهم (ضمناً)، والحجارة، وشرر جهنم. وهذه كلها تكون من مكان قريب.

فإذا ما تفقدنا النتائج التي خلصنا إليها في استعمال القرآن لفعل الرمي والقذف وسياقهما فإننا ننتهي إلى ما يلي:

أولاً: إن في إسناد فعل القذف إلى الله دون الرمي في عدد من الآيات - إذا ما استثنينا آية الأنفال - دلالة بيّنة على أن في فعل القذف قوةً وحدّةً وتأثيراً أعلى مما في الرمي. ولذلك جيء به في المواجهات الكبرى كالتي بين الحق والباطل.

(٩) الكشاف، الزمخشري، ج ٢، ص ٥٦٧.

ثانياً: إنَّ في اختصاص القذف - كما ظهر - بالرمي البعيد دلالةً أخرى على أنَّ في القذف قوَّةً وشدَّةً لا يبلغها الرمي؛ إذ يحتشد الرامي لرميته، ويستجمع لها كلَّ قوَّته حتى يصيب المراد، ويبلغ الغاية.

ثالثاً: إنَّ المعاني التي جيء بفعل القذف من أجل التعبير عنها يناسبها فعل القذف أكثر من فعل الرمي، وذلك لما في القذف من قوَّةٍ وحزمٍ وشدَّةٍ وإكراهٍ لا يبلغها فعل الرمي.

رابعاً: لم يُستعمل فعلُ القذف في التعبير القرآني في الدلالة على العدوان على الناس، وإنَّما جعل ذلك لفعل الرمي. ولعلَّ السر في ذلك - في نور ما اهتدينا إليه، ووقفنا عليه - مردّه إلى أنَّ المرمي بالعيب والخطيئة والإثم يكون لحظة الرمي غافلاً عمّا يدبر له، ويُرَاد به، وحالٌ كهذه لا تستلزم من الفاعل أن يحتشد لرميته، ويستجمع لها عظيم قوَّته، وإنَّما يكفيه من القوَّة بعضُ القوة لتحقيق مآربه ومراداته - وذلكم يناسبه فعلُ الرمي، لا فعلُ القذف - إذ يصيب الرامي برميته المرميَّ بغتةً على نحو ما يصيب السهمُ الرميَّة. ويقوي هذا التوجيه أنَّ الرمي في القرآن وقع على أناسٍ ترى الغفلة في أحوالهم ظاهرةً كفلق الصبح؛ إذ وقع من الرجل يكيد لامرأته - من غير علمٍ منها - يريد تطليقها. ووقع على البريء الغافل عمّا يراد به، وكذلك وقع على المحصنات الغافلات المؤمنات.

ولكن قد يقال: إنَّ مثل هذا التوجيه يقتضي اطراد استعمال فعل الرمي، وأن لا يُستعمل لفظ القذف أبداً؛ وذلك لأنَّ حال من يرمى بالزنا ظلمًا واحدةً. وإذا كان ذلك كذلك فلمْ يستعمل النَّبيُّ ﷺ فعل الرمي مؤثراً عليه فعل القذف؟ والذي أراه - في نور ما سبق - أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان في اختياره القذف بدلاً من الرمي ناظرًا إلى ما

يُحَدِّثُ فِي نَفْسِ الْمَرْمِيِّ بِالزُّنَا ظُلْمًا وَعَدْوَانًا مِنْ أَدَى وَاسِعٍ عَرِيضٍ تَنْوُّءٌ بِحَمَلِهِ الْجِبَالَ الرَّاسِيَاتِ، وَلَمْ يَكُنْ لِحَالِ الْغَفْلَةِ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا الْمَرْمِيُّ لِحِظَّةِ الرَّمِيِّ - كَمَا كَانَ الْحَالُ فِي الْقُرْآنِ - أَيُّ اعْتِبَارٍ أَوْ نَظَرٍ. وَذَلِكَ حَالٌ يَنَاسِبُهَا فَعْلُ الْقَذْفِ، لَا فَعْلُ الرَّمِيِّ؛ لِأَنَّ فِي الْقَذْفِ - كَمَا ظَهَرَ - مِنَ الْقَهْرِ وَالْأَذَى وَالْإِكْرَاهِ مَا لَا يَبْلُغُهُ فَعْلُ الرَّمِيِّ.

يَقُولُ الرَّمَّانِيُّ فِي تَعْلِيْقِهِ عَلَى اسْتِعَارَةِ الْقَذْفِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨] «وإنما كانت الاستعارة أبلغ؛ لأن في القذف دليلاً على القهر؛ لأنك إذا قلت: قذف به إليه فإنما معناه: ألقاه إليه على جهة الإكراه والقهر»^(١٠).

وقد يكون في هذا الذي أقوله تفسيرٌ معقولٌ لسبب شيوع لفظ القذف على ألسنة الناس في كل زمان؛ وذلك لأن ما يعني الناس، وبهمهم ما يتولد عن تهمة الزنا ظلمًا من آلام عظامٍ تذبح المرمي بها. وواضح أن الافتراق الأسلوبي هنا مرده إلى الاختلاف في زاوية النظر، وواضح كذلك أن الاختلاف قد اطرّد اطرادًا تامًّا، ولا تفسير لذلك إلا أن منشئ الحديث لا يمكن أن يكون بحالٍ من الأحوال منشئًا للقرآن.

ب- العتق والتحرير والفك للدلالة على تخلص العبد من العبودية.

وعلى نحو ما افترق القرآن والحديث افتراقًا تامًّا في التعبير عن الاتهام بالزنا ظلمًا افتراقًا في التعبير عن تخلص العبد من عبوديته؛ إذ استعمل النبي ﷺ لفظ العتق عشرات المرات، وغلب على هذا اللفظ أن يأتي فعلاً، وأمّا الفكّ والتحرير فلم يأت بهما النبي ﷺ غير مرة واحدة، فجاء الأول بصيغة الأمر (فكّ)، والثاني بصيغة اسم

(١٠) النكت في إعجاز القرآن، علي بن عيسى الرماني، ص ٨٨.

المفعول (محرَّر)، وأما القرآن فلم يستعمل لفظ العتق «ولم يأتِ شيء من مادته فيه»^(١١)، واستعمل بدلاً من ذلك لفظي الفك والتحرير مضافين إلى الرقبة.

فمن أمثلة استعمال لفظ العتق في الحديث النبوي ما يلي:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ إِرْبٍ مِنْهَا إِرْبًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ»^(١٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: أَرَادَتْ عَائِشَةُ أَنْ تَشْتَرِيَ جَارِيَةً تُعْتِقُهَا، فَأَبَى أَهْلُهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْوَلَاءُ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «لَا يَمْنَعُكَ ذَلِكَ؛ فَإِنَّا الْوَلَاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ»^(١٣).

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَعْتَقَ شِرْكَاءَ لَهُ فِي عَبْدٍ، فَكَانَ لَهُ مَالٌ يَبْلُغُ ثَمَنَ الْعَبْدِ قَوْمَ عَلَيْهِ قِيَمَةُ الْعَدْلِ، فَأَعْطَى شِرْكَاءَهُ حِصَصَهُمْ، وَعَتَقَ عَلَيْهِ الْعَبْدَ، وَإِلَّا فَقَدْ عَتَقَ مِنْهُ مَا عَتَقَ»^(١٤).

وَعَنْ أَبِي عُمَرَ، قَالَ: أَتَيْتُ ابْنَ عُمَرَ، وَقَدْ أَعْتَقَ مَمْلُوكًا. قَالَ: فَأَخَذَ مِنْ الْأَرْضِ عُدًّا أَوْ شَيْئًا، فَقَالَ: مَا فِيهِ مِنَ الْأَجْرِ مَا يَسْوَى هَذَا، إِلَّا أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ لَطَمَ مَمْلُوكَهُ، أَوْ ضَرَبَهُ فَكَفَّارَتُهُ أَنْ يُعْتِقَهُ»^(١٥).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَكْتُ. قَالَ: مَا لَكَ؟ قَالَ: وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي،

(١١) القرآن والحديث مقارنة أسلوبية، الدكتور إبراهيم عوض، ص ١١٤.

(١٢) البخاري، ٦٣٣٧. مسلم، ١٥٠٩.

(١٣) البخاري، ٤٤٤، ٢٠٤٧. وقد تكرر هذا الخبر عند البخاري تسع عشرة مرة. مسلم، ١٥٠٤.

(١٤) البخاري، ٢٣٥٩. مسلم، ١٥٠١.

(١٥) مسلم، ١٦٥٧.

وَأَنَا صَائِمٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَلْ تَجِدُ رَقَبَةً تُعْتِقُهَا؟ قَالَ... (١٦) وإيقاع الإعتاق على الرقبة، أو العبد أو المملوك: (مشتق من قولهم: عتق الفرس إذا سبق ونجا، وعتق الفرخ إذا طار واستقل؛ أن الرقيق يتخلص بالعتق، ويذهب حيث شاء) (١٧).

وأما لفظا الفك والتحرير اللذان وردا في الحديث فهما:

عن البراء بن عازب قال: جاء أعرابيُّ إلى النبي ﷺ، فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ عَلَّمَنِي عَمَلًا يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ. فقال ﷺ: «... أَعْتَقَ النَّسَمَةَ، وَفَكَ الرَّقَبَةَ». فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَوْ لَيْسَتْ بِوَاحِدَةٍ قَالَ لَا؛ إِنَّ عِتْقَ النَّسَمَةِ أَنْ تَفْرَدَ بِعِتْقِهَا، وَفَكَ الرَّقَبَةَ أَنْ تُعِينَ فِي عِتْقِهَا» (١٨). وفي رواية ابن حبان «أن تعطي في ثمنها» (١٩).

(١٦) البخاري، ١٨٣٤، ١٨٣٥، ٢٤٦٠، ٥٠٥٣، ٥٧٣٧، ٥٨١٢، ٦٣٣١، ٦٣٣٣، ٦٤٣٥. مسلم، ١١١١. وقد روى البخاري الحديث من تسع طرق، كلها روت عن الزهري، عن حميد بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. وكل الروايات اتفقت على لفظة العتق، عدا ثلاث منها، ثنتان بلفظ: (تجد رقبة) وواحدة فقط بلفظ التحرير: (أتجد ما تحرر رقبة؟) وكذا روى مسلم الحديث من طرق عدة، كلها روت لفظة العتق عدا واحدة روت لفظ التحرير. ولا شك أن لفظ العتق دون أي لفظ آخر هو المروي باللفظ؛ وذلك لاتفاق معظم الروايات على هذا اللفظ؛ ولا طراد استعماله في لغة النبي ﷺ. وذلك معناه أن ما رواه الزهري عن حميد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ هو لفظ العتق، ومن روى لفظ التحرير فقد روى بالمعنى متأثراً باللفظ القرآني.

(١٧) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، ج ٥، ص ١٧٦. صحيح مسلم

بشرح النووي، يحيى بن شرف النووي، مج ٥، ج ١٠، ص ١٣١.

(١٨) أحمد، ١٨٦٤٧.

(١٩) ابن حبان، ٣٧٤.

وعن أبي نجيح السلمي رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ لَهُ عِدْلٌ مُحَرَّرٌ»^(٢٠). (أي: مثل أجر معتق)^(٢١).
وأما آيات القرآن في التعبير عن هذا المعنى باستعمال لفظي الفك والتحرير فهي ما يلي:

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُولِكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٩٢].

ويقول تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْإِيمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَوْ هَلِيكُمُ أَوْ كَسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩].

ويقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ٣].
ويقول عز وجل: ﴿فَكَ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: ١٣].

ويفسر ابن جرير الطبري رضي الله عنه قول الله تعالى: (أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ) بقوله: (أو فكَّ عبد من أسر العبودية وذلها)^(٢٢)، ذاهباً إلى أن (أصل التحرير الفكُّ

(٢٠) الترمذي، ١٦٣٨. النسائي، ٣١٤٣.

(٢١) تحفة الأحوذى، المباركفوي، ج ٥، ص ٢٦٨.

(٢٢) جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر الطبري، ج ١٠، ص ٥٥٢.

من الأسر)^(٢٣). والسؤال الذي يطرح نفسه بعد عرض الشواهد الدالة على افتراق القرآن والحديث في التعبير عن معنى تخلص العبد من عبوديته هو: لم كان ذلك الافتراق؟ وهل ثمة فرق دلالي اقتضاه؟ وإذا ما رحنا نتأمل الآيات والأحاديث التي وردت فيها ألفاظ التحرير العتق والفك فإننا نخرج بثلاث ملاحظات:

أولاً: دلّت لغة بعض الأحاديث على ملك المعتق للمعتق كمثل ألفاظ: (شرك، شركاء، مملوكه) وأمّا لغة الآيات التي ورد فيها لفظا التحرير والفك فلا تدلّ على شيء من ذلك.

ثانياً: دلّت بعض الأحاديث على أنّ العتق قد يقع، وقد لا يقع، إذا كان العبد شركة بين اثنين أو أكثر. ثالثاً: فرّق النبي ﷺ بين الإعتاق والفك في حديث: «أَعْتَقُ النَّسَمَةَ، وَفُكَّ الرَّقَبَةَ».

وفي ضوء ما سبق من ملاحظات يمكن القول: إنّ الفرق بين العتق والتحرير والفك كائن في أنّ العتق لا يُطلق إلا إذا كان المعتق مالكا لعبده؛ لأنّ العتق يقتضي (إزالة الملك)^(٢٤)، وهذا الملك إما أن يكون ملكاً خالصاً، فيقع العتق من المعتق على كامل الرقبة، وإما أن يكون فيه شركاء، وعندها إما أن يقع العتق على كامل الرقبة، وإما أن يقع على بعضها، على خلاف في ذلك بين الفقهاء. يقول الشافعي: (ولو أنّ عبداً بين رجلين، أعتق أحدهما نصيبه، وهو موسر، كان الخيار للآخر في قول أبي حنيفة رضي الله عنه... وكان ابن أبي ليلى رحمه الله تعالى يقول: هو حرّ كلّ... وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى... رأيت لو أنّ الشريك قال: نصيب شريكي منه حرّ، وأمّا

(٢٣) المصدر السابق، ج ١٠، ص ٥٥٢.

(٢٤) فتح الباري، ابن حجر، ج ٥، ص ١٧٦.

نصيبي فلا، هل كان يعتق منه ما لا يملك؟ وإذا أعتق منه ما يملك، فكيف يعتق منه ما لا يملك؟ وهل يقع عتق فيما لا يملك الرجل؟ قال الشافعي رحمه الله: وإذا كان العبد بين الرجلين، فأعتق أحدهما نصيبه منه، فإن كان موسرا بأن يؤدّي نصف قيمته فالعبد حرّ كله، والولاء للمعتق الأول، ولا خيار لسيد العبد الآخر، وإن كان معسرا فالنصف الأول حرّ، والنصف الثاني لملكه، ولا سعاية عليه^(٢٥)، وإذن فالإعتاق إمّا أن يكون من منفرد، أو من أكثر من واحد في حال الشراكة.

وأما الفكّ فلا يملك الفكّ المفكوك، وإنّما يشارك في فكّه بالإسهام في ثمنه. يقول الطيبي في التعليق على حديث: «أَعْتَقَ النَّسَمَةَ، وَفَكَ الرَّقَبَةَ»: (وجه الفرق المذكور أنّ العتق إزالة الرق، وذلك لا يكون إلّا من المالك الذي يعتق، وأما الفكّ فهو السعي في التخليص، فيكون من غيره، كمن أدّى النّجم عن المكاتب أو أعانه)^(٢٦).
أما التّحرير، وهو (تفعيل من الحرّية، أي جعل الرقبة حرّة)^(٢٧)، وذلك (بإيجاد سبب الحرية)^(٢٨)، فيشترك مع الإعتاق في التفرّد بالعتق، وإيقاعه على كامل الرقبة. يقول القرطبي: (وبعض الرقبة ليس برقبة...؛ لقوله تعالى: (فَتَحْرِيْرُ رَقَبَةٍ) يقتضي تحرير رقبة كاملة)^(٢٩)، ولكنّه يفترق عنه في أنّ المحرّر لا يلزم أن يكون ملكًا للمحرّر، وأنّ المعتق قد يقع عتقه في حال الشراكة على بعض الرقبة، وعندها لا يكون متفرّدًا كحال المحرّر.

(٢٥) الأم، الشافعي، ج٨، ص ٣٨٠، ٣٠٩.

(٢٦) الكاشف عن حقائق السنن، الطيبي، ج٨، ٢٤٢٦.

(٢٧) التّحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ج٥، ص ١٥٨.

(٢٨) تخريج الفروع على الأصول، محمود بن أحمد الزنجاني، ص ٣٥٤.

(٢٩) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج٦، ص ٢٨١.

ونخلص في ضوء ما سبق من تفرقة إلى أن القرآن والحديث اشتركا في الدلالة على معاني إعتاق كامل الرقبة، والانفراد، والإسهام في العتق من غير ملك، وأن الحديث تفرّد بمسألة الشراكة في عتق المملوك. لكنّ هذه التفرقة الدلالية بين ألفاظ العتق والفكّ والتحرير على أهميتها لا تكفي وحدها - فيما أرى - لتفسير الافتراق الأسلوبي التام الذي رأينا بين القرآن والحديث؛ إذ يظل السؤال قائماً: ولم لم يستعمل النبي لفظ التحرير فعلاً أو مضافاً إلى الرقبة، ولو مرة واحدة؟ وكذا لم لم يستعمل القرآن لفظ العتق، ولو مرة واحدة؟ ولا أجد تفسيراً لذلك إلا ما قلته من قبل، وهو أن منشئ الحديث لا يمكن أن يكون بحالٍ من الأحوال منشئاً للقرآن؛ إذ لو كانا من لدن مؤلفٍ واحدٍ لرأينا العتق حاضراً في القرآن حضوره في الحديث، ولرأينا التحرير حاضراً في الحديث حضوره في القرآن.

ثانياً - تطابق اللفظ والمعنى، واختلاف الصيغة والحال:

ونمثل لهذا الوجه من أوجه الافتراق الأسلوبي باستعارة لفظ (الختم) للدلالة على منع نور الهدى والحقّ من بلوغ الأسماع والقلوب، حتى تصير القلوب والأسماع في نور تلك الاستعارة كتاباً أحكم إغلاقه من ذلك الختم؛ إذ الختم في اللغة: الطبع. (قال الليث: ختمَ يُخْتَمُ أي: طَبَعَ^(٣٠)، والخاتِمُ: الفاعِلُ... والخِتَامُ: الذي يُخْتَمُ به على كتابٍ... وقول الله جلّ وعزّ: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ كقوله:

(٣٠) وفي المرادفة بين الختم والطبع كما يفعل أهل المعاجم شيء من المسامحة. وللوقوف على ما بينهما من فرق انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص ١٠٢. وانظر: معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، الدكتور محمد داود، ص ٢٣٢، ٢٣٣. وانظر: دراسات جديدة في إعجاز القرآن، مناهج تطبيقية في توظيف اللغة، الدكتور عبد العظيم المطعني، ص ١٨١-١٨٥.

﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾^(٣١). فلا ينفذ مع ذلك الختم إلى القلب شيء من الحق والنور، ولو كان شيئاً يسيراً (إلا بعد فضّه خاتمه وحلّه رباطه عنها)^(٣٢)؛ إذ الختم على القلوب والأسماع: (نظيرُ الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف، التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفضّ ذلك عنها ثم حلّها)^(٣٣).

وقد ورد هذا اللفظ في الحديث النبوي مرةً واحدةً بصيغة المضارع المقترن بنون التوكيد الثقيلة. فعن عبد الله وأبي هريرة رضي الله عنهما أنّ النبي ﷺ قال: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَن وُدِّهِمُ الْجُمُعَاتِ، أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ لَيَكُونَنَّ مِنَ الْعَافِينَ»^(٣٤).

وأما القرآن فورد فيه من صيغ هذا الفعل صيغتان: الماضي (ختم) وهذه آياته: يقول الله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧]. ويقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦].

ويقول تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

ووردت صيغة المضارع (يختم) مرة واحدة. يقول الله تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ

(٣١) تهذيب اللغة، الأزهرى، مادة (ختم)، ج٧، ص٣١٣.

(٣٢) جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر الطبري، ج١، ص٢٦١.

(٣٣) المصدر السابق، ج١، ص٢٦١.

(٣٤) مسلم، ٨٦٥.

افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يَخْتِمْ^(٣٥) عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [الشورى: ٢٤].

والقرآن الكريم لم يستعمل لفظ المضارع المقترن بنون التوكيد كما ورد في الحديث، والحديث لم يستعمل صيغ القرآن: (ختم، يختم) بالمعنى الذي بينته، وإنما استعملها بمعنى آخر، هو: معنى الآخرة والنهاية والتمام. ومن أمثلة هذا الاستعمال في الحديث ما يلي:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُيْتًا فَأَحْسَنَهُ... فَأَنَا اللَّيْنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ»^(٣٦) أَي آخِرِهِمْ.
وَعَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ

(٣٥) يقول الزمخشري في تفسير الختم في هذه الآية: (كأنته قيل: أيتم الكون أن ينسبوا مثله إلى الافتراء، ثم إلى الافتراء على الله الذي هو أعظم الفرى وأفحشها. (فإن يشأ الله يختم على قلبك) فإن يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم، حتى تفترى عليه الكذب فإنه لا يجترئ على افتراء الكذب على الله إلا من كان في مثل حالهم، وهذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله، وأنه في البعد مثل الشرك بالله، والدخول في جملة المختوم على قلوبهم)، الكشاف، ج ٥، ص ٤٠٧. وقال الألوسي في تفسيره: (وما أحسن التعريض بأثم مفترون، وأثمهم في هذه المقالة عن افتراءهم مفترون.) ج ٢٥، ص ٣٤ ونقل عن السمرقندي قوله: (المعنى: إن يشأ يختم على قلبك كما فعل بهم. فهو تسلية له عليه الصلاة والسلام، وتذكير لإحسانه إليه، وإكرامه له صلى الله عليه وسلم ليشكر ربه سبحانه، ويترحم على من ختم على قلبه، فاستحق غضب ربه، ولولا ذلك ما اجترأ على نسبته لما ذكر. فالتفريع بالنظر إلى المعنى المكتنى عنه، وحاصله: أنهم اجترؤوا على هذا؛ لأنهم مطبوعون على الضلال. انتهى. وفيه شمة مما ذكره الزمخشري. روح المعاني، ج ٢٥، ص ٣٥.

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْفَيِّ عَامٍ أَنْزَلَ مِنْهُ آيَاتٍ خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَلَا يُقْرَأُ فِي دَارِ ثَلَاثَ لَيَالٍ، فَيَقْرَبُهَا شَيْطَانٌ» (٣٧).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمَنَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمَنَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ» (٣٨).

يُضَافُ إِلَى مَا سَبَقَ ذَكَرَهُ أَنَّ الْقُرْآنَ وَالْحَدِيثَ فِي اسْتِعَارَةِ الْخْتَمِ لَمْ يَتَكَلَّمَا عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ، وَإِنَّمَا تَكَلَّمَا عَلَى حَالَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ؛ فَقَدْ تَكَلَّمَ الْقُرْآنُ عَلَى حَالِ الْكُفَّارِ، وَتَكَلَّمَ الْحَدِيثُ عَلَى حَالِ الْمُسْلِمِ مَرْتَكِبِ الْكَبِيرَةِ. وَالسُّؤَالُ هُنَا: لِمَ لَمْ يَسْلُكِ الْقُرْآنُ سَبِيلَ الْحَدِيثِ فِي اسْتِعَارَةِ الْخْتَمِ؟ وَلِمَ لَمْ يَأْتِ فِي أُسْلُوبِهِمَا بِالسَّيْلَيْنِ مَعًا؟

وَلَا بَدَّ مِنَ الْقَوْلِ ابْتِدَاءً - وَنَحْنُ نَجِيبُ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ - إِنَّ اخْتِلَافَ الصِّيغِ فِي الْقُرْآنِ، وَبَيْنَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ يُمْكِنُ أَنْ يُرَدَّ إِلَى اخْتِلَافِ الْمَقَامِ وَالسِّيَاقِ وَالْحَالِ. نَحْوُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ شَدِيدَ غَفْلَةٍ تَارِكِ الْجَمْعَاتِ اقْتَضَى أَنْ يُخْرَجَ الْكَلَامُ لَهُ مَخْرَجَ التَّشْدِيدِ فِي الْوَعِيدِ، وَالْمُبَالَغَةِ فِي التَّهْدِيدِ، حَتَّى يَفِيقَ مِنْ غَفْلَتِهِ، وَيَرَعُويَ عَنْ ضَلَالَتِهِ، فَيُنْبِي الْفِعْلَ عَلَى الْمَضَارِعِ، وَأُكِّدَ غَايَةَ التَّوَكِيدِ بِجَعْلِهِ جَوَابًا لِقِسْمٍ مَحْذُوفٍ مَقْدَرٍ، وَبَقَرْنَهُ بِنُونِ التَّوَكِيدِ الثَّقِيلَةِ الَّتِي تُوَكِّدُ وَقُوعَ الْفِعْلِ الْمَضَارِعِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ إِنْ لَمْ يَنْتَهَ ذَلِكَ الْغَافِلُ عَنْ وَدَعِ الْجَمْعَاتِ، وَنَحْوُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ غَرَضَ التَّعْلِيلِ مِنْ آيَةِ الْبَقَرَةِ اقْتَضَى أَنْ يُبْنَى الْفِعْلُ عَلَى الْمَاضِي، وَلَيْسَ الْمَضَارِعُ؛ إِذْ جَاءَتْ جَمَلَتُهُ عَقِبَ

(٣٧) الترمذي ٢٨٨٢.

(٣٨) مسلم، ٢٢٥٦.

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]. فهو (استئناف تعليلي لما سبق من الحكم وبيان لما يقتضيه أو بيان وتأكيد له)^(٣٩)، والغرض من ذلك أن (يدفع تعجب المتعجبين من استواء الإنذار وعدمه عندهم، ومن عدم نفوذ الإيمان إلى نفوسهم مع وضوح دلائله، فإذا علم أن على قلوبهم ختمًا، وعلى أسماعهم، وأن على أبصارهم غشاوة علم سبب ذلك كله، وبطل العجب)^(٤٠). ولكن هذا المذهب في تفسير اختلاف الصيغ لا ينفعنا في تبيان سبب افتراق طريقي القرآن والحديث في استعمال لفظ الختم، ولا ينفعنا أيضًا في تفسير عدم جمعها بين هذين الطريقتين.

وما أراه أن لا توجيه لذلك غير القول الذي قلته من قبل، وهو أن منشئ الحديث لا يمكن أن يكون منشئًا للقرآن؛ إذ لو كانا من لدن منشئ واحد لرأينا فعل الختم حاضرًا في حديث النبي حضوره في القرآن، ولا سيما أن الختم معنى يقتضيه حال الكفر والضلال الذي يكثُر الكلام عليه في القرآن والحديث؛ لأنَّ حال الإنسان إمَّا حال كفرٍ وضلالٍ، وإمَّا حال هدى وإيمان.

ولعلك تلحظ معي أن من أوجه الافتراق الأسلوبي بين آية البقرة مثلاً والحديث - إضافةً إلى ما ذكرنا من اختلاف صيغة الفعل والتوكيد وعدمه - أن الختم فيها لم يقتصر على القلوب، وإنما امتدَّ ليشمل الأسماع، وفي هذا دلالة على الضلال التام، واقتضى هذا السياق الذي جرت فيه الاستعارة القرآنية؛ إذ دار حول بيان سبب الكفر بالإيمان، وهذا يناسبه إيقاع الختم على أكثر من حاسة، وأمَّا

(٣٩) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، ج ١، ص ٦٤.

(٤٠) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ج ١، ص ٢٥٤.

الاستعارة النبوية فقد اقتصر فيها الختم على القلب دون السمع؛ وهذا لأن الاستعارة النبوية جاءت في سياقٍ مختلفٍ، ولغرضٍ مختلفٍ، إذ جاءت كجزء يُجزي به التارك للجمعات، ويكفي في مثل هذه الحال إيقاع الختم على القلب دون السمع؛ لأن ما يتسبب عن الختم هنا ليس الكفر، وإنما الضلال والغفلة عن الهدى: (ثم ليكونن في الغافلين).

ثالثاً- اللفظ واحدٌ، والمعنى مختلفٌ:

وسأمثل لهذا الوجه من أوجه الافتراق الأسلوبي باستعارة لفظ (الذوق) للتعبير عن معنى ما، فقد استعاره النبي ﷺ للتعبير عن الشعور بحلاوة الإيمان، واستعاره القرآن للتعبير عن معاناة الألم والعذاب. فمن أمثلة استعارة الذوق في حديث النبي ﷺ ما يلي:

عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ رسولاً»^(٤١).
وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يُحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار»^(٤٢).

وأما أمثلة استعارة الذوق في القرآن العظيم، فقد كثرت فيه كثرة ظاهرة. من ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَيِّنْ أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَيْفُوسٌ

(٤١) مسلم، ٣٤.

(٤٢) البخاري، ١٦، ٥٦٩٤، ٦٥٤٢. مسلم، ٤٣. وقد اتفقت كل الروايات على لفظ (حلاوة) ما خلا الرواية الثانية عند مسلم، فقد روت لفظة: (طعم). والرواي باللفظ ما اتفقت عليه معظم الروايات.

كُفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِن أَدَقْنَا نَعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءِ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَنَفْرِحُ فَخُورٌ ﴿[هود: ٩، ١٠].

ويقول الله تعالى: ﴿وَلَئِن أَدَقْنَا رَحْمَةً مِنَّا مِن بَعْدِ ضِرَاءِ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِن عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠].

ويقول الله تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٧]. ويقول الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وبيّن كلّ البيان أنّ فعل الذوق في القرآن العظيم لم يُستعمل للتعبير عن الشعور بلذة الإيمان كما هو الحال في الحديث النبوي، وإنّما استعمل للعذاب، وكثرت استعارته للعذاب كثرة عجيبة، واستعمل كذلك للرحمة في سياق الاختبار، والكلام على طغيان الإنسان وجحود نعم ربّه. يقول الراغب الأصفهاني: «الذوق: وجود الطعم بالفم، وأصله فيما يقلّ تناوله دون ما يكثر، فإنّ ما يكثر منه يقال له: الأكل. واختير في القرآن لفظ الذوق في العذاب؛ لأنّ ذلك - وإن كان في التعارف للقليل - فهو مستصلح للكثير، فخصّه بالذكر ليعمّ الأمرين، وكثّر استعماله في العذاب، وقد جاء في الرحمة... ويُعبّر به عن الاختبار»^(٤٣). ولا تفسير لهذا الافتراق التام في التعبير إلا ما قلته من قبل، وهو أنّ منشئ الحديث لا يمكن أن يكون منشئاً للقرآن؛ إذ لو كان القرآن والحديث من لدن منشئ واحدٍ لكنّا وجدنا الحديث قد استعمل الذوق في الكلام على العذاب، ولكنّا وجدنا الحديث استعمل الذوق في الكلام على حلاوة الإيمان.

(٤٣) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ج ١، ص ٢٧١.

رابعاً- اللفظ في الحديث، ولا وجود له في القرآن:

ونمثل لهذا الافتراق الأسلوبي بلفظ (الهم) يقول أستاذي الدكتور إبراهيم عوض حفظه الله: «لم يُذكر في القرآن (الهم) مع تكرار ذكره في الأحاديث كثيراً»^(٤٤). فمن ذلك ما يلي:

عن أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذُ بك من الهم والحزن...»^(٤٥).

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت الأخرة همّة جعل الله غناؤه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا، وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همّة جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأت من الدنيا إلا ما قدر له»^(٤٦).

ومن الألفاظ التي وردت في الحديث النبوي، ولا وجود لها في القرآن لفظ (العاني) أي الأسير:

فعن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «فكّوا العاني - يعني الأسير - وأطعموا الجائع، وعودوا المريص»^(٤٧).

(٤٤) القرآن والحديث مقارنة أسلوبية، الدكتور إبراهيم عوض، ص ١٢٩. وقد استشهد أستاذي العلامة الدكتور إبراهيم حفظه الله بهذين الحديثين، واستشهد بأحاديث أخرى. ولكن ما يؤخذ عليه في هذا الموضوع، وفي غيره استشهاده بأحاديث ضعيفة وضعيفة جداً. من ذلك استشهاده بحديث رواه الترمذي ٤٧٩، وابن ماجه ١٣٨٤: «...ألا تدع لي ذنباً إلا غفرته ولا هما إلا فرّجته...» والحديث ضعيف جداً كما قال الألباني.

(٤٥) البخاري، ٦٠٠٨.

(٤٦) الترمذي، ٢٤٦٥.

(٤٧) البخاري، ٢٨٨١.

وعن عَوْنِ صَالِحِ بْنِ يَحْيَى بْنِ الْمُقَدَّامِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: «أَنَا وَارِثُ مَنْ لَا وَارِثَ لَهُ، أَفُكُ عَائِنَهُ، وَارِثُ مَالِهِ، وَالْحَالُ وَارِثُ مَنْ لَا وَارِثَ لَهُ، يَفُكُ عَائِنَهُ، وَيَرِثُ مَالَهُ» (٤٨).

وأما اللفظ القرآني فلفظ (الأسير)، وقد جاء مفردًا وجمعًا:

يقول تعالى: ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أَسَارَى تَفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ [البقرة: ٨٥]. ويقول عز وجل: ﴿يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

وقد استعمل النبي ﷺ هذا اللفظ: فعن عائشة قالت: دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ - ﷺ - بِأَسِيرٍ، فَلَهُوتُ عَنْهُ، فَذَهَبَ، فَجَاءَ النَّبِيُّ - ﷺ - فَقَالَ: «مَا فَعَلَ الْأَسِيرُ؟...» (٤٩). ولعل الفرق بين اللفظين، أي بين الأسير والعاني هو أن الأسير منظور فيه إلى معنى شد الوثاق. يقول القرطبي في كلامه على لفظ الأسر: (واشتقاقه من الإسار، وهو: القيد الذي يُشدُّ به الأقتاب. يقال: أسرتُ القَتَبَ أسرا، أي: شدته وربطته، ويقال: ما أحسنَ أسرَ قَتَبِهِ، أي: شدته وربطه... ومنه الأسير؛ لأنه كان يُكْتَفَى بِالْإِسَارِ) (٥٠).

وأما العاني فمنظور فيه إلى معنى الخضوع والقهر والغلبة. يقول الزبيدي: (عنوتٌ للحقِّ (خضعتُ) وأطعتُ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١]. وقيل: كلٌّ خاضعٍ لحقٍّ أو غيره عانٍ، وقيل: معنى (عنوت الوجوه)

(٤٨) أبو داود، ٢٩٠١.

(٤٩) أحمد، ٢٤٣٠٤.

(٥٠) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج ٢١، ص ٤٩١.

استأسرت. وقيل: ذلت. ... (وأعنيته أنا)، أي: أبقيته أسيراً، وأخضعته.... (و) العنوة (القهر) يقال: أخذه عنوةً، أي: قسراً، وفُتحت هذه المدينة عنوةً أي: بالقتال، قوتل أهلها حتى غلبوا عليها، وعجزوا عن حفظها، فتركوها، وجلّوا... فالإجماع على أن العنوة هي: الأخذ بالقهر والغلبة^(٥١).

ونخلص من كل ما مضى درسه في هذا البحث إلى سبع نتائج، وهذه النتائج

هي ما يلي:

أولاً: بين البحث أن ما بين القرآن والحديث من افتراق أسلوبى لا تفسير له إلا القول: إن منسئ الحديث محمداً ﷺ لا يمكن أن يكون بحال من الأحوال منشئاً للقرآن؛ ذلك أنه وقع في مواطن لا يتصور أبداً وقوعه فيها لو كان مؤلف الكلامين واحداً؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن ينخلع من إنسانيته، ولا يستطيع أن ينفك من أسلوبه.

ثانياً: بين البحث إمكان التعليل المعنوي لبعض أوجه الافتراق الأسلوبى، وأن ذلك التعليل لا يتناقض مع التوجيه الأول، وإنما يسير بموازاته، وأكد أن التوجيه الأول عام شامل يشمل كل مظاهر الافتراق الأسلوبى.

ثالثاً: كشف البحث عما بين لفظي القذف والرمي في التعبير القرآنى من فروق دقيقة في الدلالة، وكشف أن لكل منهما في القرآن مقاماتٍ وسياقاتٍ، تقتضيها. وعليه فإنه لا يحسن الخلط بينهما، كأن يؤتى بالرمي في موضع القذف، أو يؤتى بالقذف في موضع الرمي.

رابعاً: وكشف البحث أيضاً عما بين ألفاظ العتق والفك والتحرير من فروق

(٥١) تاج العروس، الزبيدي، مادة: عنو.

في الدلالة، وبين أنّ القرآن لم يستعمل غير لفظي الفكّ والتحرير، وأمّا النبيّ فاستعمل لفظ العتق عشرات المرات، ولم يأت بلفظي الفكّ التحرير غير مرة واحدة، وجاءت لفظة التحرير في هذه المرة اسم مفعول، وليس مضافاً إلى الرقبة، أو فعلاً.

خامساً: وكشف البحث أنّ القرآن والحديث لم يتكلّما في استعارة الختم على حال واحدة، وإنما تكلّما على حالين مختلفتين؛ فقد تكلّم القرآن على حال الكفار، وتكلّم الحديث على حال المسلم مرتكب الكبيرة.

سادساً: كشف البحث أنّ لفظ (الذوق) استعير في القرآن والحديث لمعنيين مختلفين كلّ الاختلاف، فقد استعاره النبيّ ﷺ للتعبير عن الشعور بحلاوة الإيمان، واستعاره القرآن للتعبير عن معاناة الألم والعذاب.

سابعاً: كشف البحث أنّ لفظ العاني الذي ورد في الحديث لم يرد في القرآن، وأنّ ما استعمله القرآن هو لفظ الأسير، وكشف البحث عمّا بين هذين اللفظين من فرق في الدلالة.

مِصْرَاوْرُومِرْاجِعُ البَحْثِ

١- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود بن محمد العمادي

الحنفي، تح: عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، د.ت، د.ط.

٢- الإعجاز البياني، ومسائل ابن الأزرق، د. عائشة عبد الرحمن، دار المعارف،

القاهرة، ط ٢. د.ت.

- ٣- الأم، محمد بن إدريس الشافعي، تح: د. رفعة فوزي عبد المطلب، دار الوفاء، ط١، ١٤٢٢-٢٠٠١.
- ٤- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، سلسلة التراث العربي، وزارة الإعلام، الكويت.
- ٥- التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧.
- ٦- تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، محمد بن عبد الرحمن بن المباركفوري، تح: عبد الوهاب بن عبد اللطيف، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ط٢، ١٣٨٣-١٩٦٣.
- ٧- تخريج الفروع على الأصول، محمود بن أحمد الزنجاني، تح: د. محمد أديب صالح، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٣٩٨.
- ٨- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تح: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر، ط٢، ١٤٢٠-١٩٩٩.
- ٩- تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تح: عبد السلام هارون وآخرون، دار الصادق للطباعة والنشر. د.ط، د.ت.
- ١٠- جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير، أبو جعفر الطبري، تح: محمود محمد شاكر، وأحمد محمد شاكر، دار ابن تيمية، القاهرة، ط٢، د.ت.
- ١١- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله، محمد بن أحمد القرطبي، تح: عبد الله التركي، وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٧-٢٠٠٦.
- ١٢- دراسات جديدة في إعجاز القرآن، مناهج تطبيقية في توظيف اللغة، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١٧-١٩٩٦.
- ١٣- دراسات لغوية في القرآن الكريم وقراءاته، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط٢، ١٤٢٧-٢٠٠٦.

من مظاهر الافتراق الأسلوبى بين القرآن والحديث - د. خليل محمد أيوب ٨٠٥

١٤- دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، د. أحمد درويش، دار غريب، القاهرة،

ط١، ١٩٩٨.

١٥- دلالة الألفاظ على المعاني عند الأصوليين، د. محمود توفيق سعد، مكتبة وهبة،

القاهرة، ط١، ٢٠٠٩.

١٦- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود

الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د.ت.

١٧- سنن الترمذي، محمد بن عيسى، تحقيق وتخريج محمد ناصر الدين الألباني،

مكتبة المعارف، الرياض ط١، ١٤١٧.

١٨- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث، تحقيق وتخريج محمد ناصر الدين الألباني،

مكتبة المعارف، الرياض، ط٢، ٢٠٠٧.

١٩- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد، تحقيق وتخريج محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة

المعارف، الرياض، ط١، د.ت.

٢٠- سنن النسائي الصغرى، أحمد بن شعيب، حكم على أحاديث وآثاره وعلق عليه

محمد ناصر الدين الألباني، اعتنى بنشر الكتاب مشهور آل سلمان، مكتبة المعارف،

الرياض، ط١، ١٤٠٨-١٩٨٨.

٢١- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل، تح: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير،

دمشق، ط٣، ١٤٠٧-١٩٨٧.

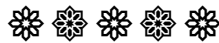
٢٢- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان البستي، تح: شعيب

الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٤-١٩٩٣.

٢٣- صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، تح: محمد فؤاد عبد

الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د.ت.

- ٢٤- صحيح مسلم بشرح النووي، يحيى بن شرف النووي، تح: رضوان جامع رضوان، المكتب الثقافي، القاهرة، ط١، ٢٠٠١.
- ٢٥- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، تح: عبد العزيز بن باز، دار التقوى للتراث، مصر، د.ط، د.ت.
- ٢٦- الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، تح: جمال عبد الغني مدغمش، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٢-٢٠٠٢.
- ٢٧- القرآن والحديث مقارنة أسلوبية، د. إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠.
- ٢٨- الكاشف عن حقائق السنن، شرف الدين الطيبي، تح: عبد الحميد هندراوي، مكتبة نزار الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٧-١٩٩٧.
- ٢٩- الكشف، جار الله محمود الزمخشري، تح: عادل عبد الموجود، علي معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤١٨.
- ٣٠- مسند الإمام أحمد، تح: شعيب الأرنؤوط، وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٦-١٩٩٥.
- ٣١- معجم الفروق الدلالية في القرآن، د.محمد محمد داود، دار غريب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨.
- ٣٢- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم، دمشق. د.ط، د.ت.
- ٣٣- النكت في إعجاز القرآن، علي بن عيسى الرماني، تح: محمد خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، د.ط، د.ت..



الجملة بين الإسناد والاستقلال الدلالي

د. عبدالحليم محمد عبدالله(*)

ينطلق هذا البحث إلى توضيح ماهية الجملة: أتقوم على الإسناد فقط؟ أم تقوم على الإسناد والاستقلال الدلالي؟ وبتعبير آخر: هل كل علاقة إسنادية جملة؟ أم الجملة هي الجملة المفيدة فقط؟

١. عند سيوييه (١٨٠ هـ)

عَرَفَ سيوييه مفهوم الجملة، لكنه عبّر عنه بغير مصطلحه الذي نضج فيما بعد، فالقارئ في كتاب سيوييه لا يقف فيه على حديث تأصيلي مباشر عن (الجملة)، ولا يقف على حدود هذا المصطلح، بل لا يلمح له وجوداً لغوياً ملموساً في حدوده الاصطلاحية تلك، وقد بات من المعروف لدى الدارسين^(١) أن سيوييه لم يستعمل في كتابه كلمة (الجملة) بالمعنى الاصطلاحي، بل استعملها بالمعنى

(*) باحث في اللغة والتراث من سورية.

(١) يُنظر: الجملة النحوية نشأة وإعراباً، عبدالفتاح الدجني، ط١: الكويت ١٩٨٧م، ص ١٩ - ٢٠ ومدخل إلى دراسة الجملة العربية، محمود أحمد نحلة، ط١: بيروت ١٩٨٨م، ص ١٧، وبناء الجملة العربية، محمد حماسة عبد اللطيف، ط١ القاهرة ١٩٩٦م، ص ١٨، ومعالم التفكير في الجملة عند سيوييه، محمد فلفل ط١: دار العصاء دمشق ٢٠٠٩ ص ١٠.

اللغوي الذي يوحى بالإجمال والإيجاز، وذلك في ستة^(٢) مواضع من كتابه. ومن هذا القبيل قوله في باب الإمالة: «فجملة هذا أن كل ما كانت له الكسرة ألزم كان أقوى في الإمالة»^(٣).

لكنه استعمل من المصطلحات ما قصد به مفهوم الجملة، وهو (الكلام أحياناً، والمسند إليه والمسند، والجواب، والصلة، والفعل...) ^(٤) وربما كان مصطلح الكلام أبرزها في الدلالة على ذلك المفهوم، حتى صارت دلالة (الكلام) الاصطلاحية موازية لدلالة الجملة^(٥)، وسارت هذه الدلالة في كتب النحاة كما سنرى، ومن ذلك حديث سيبويه عن الكلام والإحالة. يقول: «هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة فمنه مستقيم حسنٌ ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب، فأما المستقيم الحسن فقولك أتيتك أمسٍ وسأتيك غداً، وأما المحال فأن تنقض

(٢) يُنظر: الكتاب: ١: ٣٢ و ٢١٧ و ٣: ١١٩ و ٢٠٨ و ٤: ١٦ و ١٢٧ ومعالم التفكير في الجملة، ص ١٠.

(٣) الكتاب، سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تح: عبدالسلام هارون، ط ١: دار الجيل بيروت: ٤: ١٢٧.

(٤) وثمة أبدال أخرى عبر بها سيبويه عن مفهوم الجملة ودلت على معالم تفكيره بالجملة ك: المسند، والمسند إليه، والمبتدأ والمبني على المبتدأ = الخبر، والكلام = الجملة، والفعل والفاعل، والمحدث به، والمحدث عنه. يُنظر: معالم التفكير في الجملة عند سيبويه ص ١١-٤٢.

(٥) يُنظر: الجملة العربية ص ٢٨ وقد سار النحاة على خطا سيبويه واحتذوا حذوه في استعمال مصطلح الكلام للدلالة على المعنى الاصطلاحي للجملة المفيدة، وهذا ما سنجد في استعمال العلماء اللاحقين لسيبويه ممن سيتناولهم البحث، وهذا الاستعمال يشي بمفهوم الجملة المساوي للكلام المستغني لديهم.

أَوَّلَ كَلَامِكَ بِآخِرِهِ فَتَقُولُ: أَتَيْتَكَ غَدًا، وَسَأَتِيكَ أَمْسًا»^(٦)، حيث اقتصر سيبويه فيما ذكره تحت هذا العنوان على ذكر ما يساوي الجملة في الاصطلاح النحوي^(٧).

ويتضح ذلك في تسمية سيبويه لما يساوي مصطلح الجملة كلامًا في قوله: «بَلَّغْنَا أَنَّ بَعْضَ الْقُرَّاءِ قَرَأَ: ﴿مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَدْرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾»^(٨)، وذلك لأنه حمل الفعل على موضع الكلام، لأن هذا الكلام في موضع يكون جوابًا، لأن أصل الجزاء الفعل، وفيه تعمل حروف الجزاء، ولكنهم قد يضعون في موضع الجزاء غيره»^(٩)، فسبويه يفسر جَزَمَ الفعل (يذرهم) هنا بكونه معطوفًا على محل الكلام، أي على محل الجملة الواقعة جوابًا لشرط جازم مقترنة بالفاء، واللافت تسميته هذه الجملة كلامًا^(١٠). ولما كانت الجملة التي عبّر عنها بمصطلح الكلام جملة جواب شرط، فهذا يعني أحد أمرين هما:

إما أن يكون سيبويه قد عبّر عن مفهوم الجملة بمصطلح الكلام من دون قيد أو شرط، علمًا أن لمصطلح الكلام دلالات متعددة في كتاب سيبويه^(١١). وإما أن

(٦) الكتاب ١: ٢٥.

(٧) يُنظر: معالم التفكير في الجملة عند سيبويه ص ٣٢.

(٨) الأعراف: ٨: ١٨٦، وقراءة (يذرهم) بالياء والجزم تُنسب إلى ابن مُصْرَف، والأعمش، وأبي عمرو. يُنظر: البحر المحيط لأبي حيان، تح: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، ط ١: دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٣ م ٤: ٤٣٣.

(٩) الكتاب ٣: ٩٠.

(١٠) يُنظر: معالم التفكير في الجملة عند سيبويه ص ٣٣.

(١١) أحصى هذه الدلالات الدكتور محمد لفلل تحت عنوان (الكلام عند سيبويه) يُنظر: معالم التفكير في الجملة عند سيبويه ص ٣٢-٤٢.

يكون قد أضفى على مفهوم الجملة صفة الكلام الذي يشترط له الإسناد والاستقلال.

وفرق سيبويه بين جملة الجزاء وجملة الجواب عندما تحدث عن أدوات الشرط الجازمة، فهي تجزم الجملة التي تلي الجزاء، وجملة الجواب تجزم بما قبلها. يقول: «واعلم أن حروف الجزاء تجزم الأفعال، وينجزم الجواب بما قبله»^(١٢) وهنا يرى صاحب الجملة الشرطية أن سيبويه لم ينظر إلى الجملة الشرطية على أنها جملة. قال: «إن سيبويه مع أنه ينظر إلى الجملة الشرطية على أنها كلام تام، أو (كلام عمل بعضه ببعض)^(١٣) فإنه لا يعتبر هذا الكلام تركيباً واحداً، ولا جملة واحدة»^(١٤) من حيث الأصل^(١٥) ولكنه - إجرائياً - عدّ التركيب الشرطي جملة، وقعت موقع الخبر. إذ قال: «وإذا قلت: أزيد إن يأتك تضربه، فليس تكون الهاء إلا لزيد، ويكون الفعل الآخر جواباً للأول، ويدلّك على أنّها لا تكون إلا لزيد، أنك لو قلت: أزيد إن تأتكَ أمّة الله تضربها، لم يجز؛ لأنك ابتدأت زيداً، ولا بدّ من خبرٍ، ولا يكون ما بعده خبراً له، حتّى يكون فيه ضميره»^(١٦). فقد جعل سيبويه جملة الشرط خبراً للمبتدأ واشترط لجملة الخبر الضمير الذي يعود إلى المبتدأ، ف«التركيب الإسنادي الجملي يقوم عند سيبويه على

(١٢) الكتاب ٣: ٦٢.

(١٣) الكتاب ٣: ٨٢.

(١٤) الجملة الشرطية عند النحاة العرب، إبراهيم شمسان، ط: ١ مصر ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م، ص ٥٨.

(١٥) يقول إبراهيم شمسان: «سيبويه ينظر إلى الجملة الشرطية على أنها جملتان لا جملة واحدة»

المرجع السابق، ص ٥٧.

(١٦) الكتاب ١: ١٣٥.

الإسناد والاستقلال الدلالي والتكامل العضوي، لذلك نراه يصف ما يساوي الجملة بالكلام المستغني»^(١٧) لذا فالجملة لدى سيبويه تقوم على الإسناد والاستقلال الدلالي.

٢. عند الفراء (٢٠٧هـ)

عرّف الفراء مفهوم الجملة، وعرف أجزاءها، وسماها بمصطلحها، وربما كان أول من استعمل من النحاة المصطلح لها^(١٨)، قال: «وقوله: ﴿أَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾^(١٩)، يبيّن لهم إذا نظروا (كَمْ أَهْلَكْنَا) و(كَمْ) في موضع نصب لا يكون غيره. ومثله في الكلام: أو لم يبيّن لك مَنْ يعمل خيراً يُجْزَبَ به، فجملة الكلام فيها معنى رفع. ومثله أن تقول: قد تبيّن لي أقام عبدالله أم زيد؟، في الاستفهام معنى رفع. وكذلك قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾^(٢٠) بِرَفْعِ ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ فيه شيء لا يظهر مع الاستفهام. ولو قلت: سواء عليكم صمتكم ودعاؤكم تبيّن الرفع^(٢١)

(١٧) ينظر: معالم التفكير في الجملة عند سيبويه ص ٥٠.

(١٨) يذهب بعض الباحثين إلى أن المبرد (ت ٢٨٥هـ) أول من استعمل مصطلح الجملة. ينظر: مدخل إلى دراسة الجملة العربية، ص ١٩ والذي ثبت أن الفراء (ت ٢٠٧هـ) سبقه في ذلك.

ينظر: معاني القرآن للفراء ١: ١٣ و ١٦ و ٢: ١٩٥ و ٣٣٣ و ٣٨٨.

(١٩) الآية ﴿أَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ طه الآية ١٢٨.

(٢٠) الأعراف الآية ١٩٣.

(٢١) لنا أن نفهم مصطلح (الرفع) الذي ذكره الفراء في هذا الموضع بأحد فهمين: إما أن يكون الرفع للمفرد (سواءً) لأنه خبر مقدم أو مبتدأ والمقصود بالجملة المبتدأ والخبر، وإما أن يكون الرفع هو محل الجملة الفعلية (أدعوتموهم) لأنها مبتدأ خبره مقدم هو (سواء) على قول من قال بوقوع الجملة مبتدأ، ويكون المقصود بالجملة الجملة الفعلية التي وقعت مبتدأ.

الذي في الجملة^(٢٢). فالجملة التي قصدتها الفراء وتبين له فيها الرفع هي الجملة الاصطلاحية التي اتفق عليها النحاة فيما بعد لا الجملة اللغوية التي تعني جماعة الشيء.

وقال الفراء بمحلية الجملة وبين محلها. يقول: «وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا﴾^(٢٣) (كَمْ) في موضع رفع بـ (يَهْدِ) كأنك قلت: أولم تهدم القرون الهالكة. وفي قراءة عبدالله في سورة طه: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ مَنْ أَهْلَكْنَا﴾^(٢٤)، وقد يكون (كَمْ) في موضع نصب بـ أهلكنا وفيه تأويل الرفع فيكون بمنزلة قولك: سواءً عليّ أزيداً ضربت أم عمرو، فترفع (سواءً) بالتأويل. وتقول: قد تبين لي أقام زيد أم عمرو، فتكون الجملة مرفوعة في المعنى^(٢٥)؛ كأنك قلت: «تبين لي ذاك»^(٢٦)، فالجملة (أقام زيد أم عمرو) هي مرفوعة في المعنى؛ لأنها وقعت موقع الفاعل.

(٢٢) معاني القرآن للفراء ٢: ١٩٥.

(٢٣) سورة السجدة الآية ٢٦ وتامها ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾.

(٢٤) سورة طه الآية ١٢٨ وهي في رواية حفص ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾.

(٢٥) إذا كان النص السابق للفراء يقبل التأويل بأحد تأويلين، فهذا النص واضح لا يقبل التأويل، لأنه ينص صراحة على أن محل الجملة رفع لأن محلها فاعل، والتمثيل يبين ذلك. (وتقول: قد تبين لي أقام زيد أم عمرو، فتكون الجملة مرفوعة في المعنى، كأنك قلت: تبين لي ذاك) فـ (ذاك) التي وقعت الجملة موقعها هي فاعل، والجملة كذلك، وهذا على رأي من قال بوقوع الجملة فاعلاً، لأن جملي المتبداً والفاعل موضع خلاف بين النحاة.

(٢٦) معاني القرآن للفراء ٢: ٣٣٣.

ومما صرح به بمحلية الجملة الواقعة موقع النصب بعد الفعل قرأت. يقول: «تقول: قرأت من القرآن ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾»^(٢٧)، فيكون في الجملة في معنى نصبٍ ترفعها بالكلام»^(٢٨). فجملة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ جملة وقعت في موقع النصب على المفعولية لـ قرأت، وإن كانت (الحمد) مرفوعة في اللفظ. وحذا الفراء حذو سيبويه في تسميته الجملة كلامًا، وهذه الكلمة تدل الدلالة الواضحة على الإسناد والاستقلال الدلالي، ولنا أن نستأنس ببعض نصوصه. يقول الفراء: «ومثله ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾»^(٢٩)، فإذا أدخلت عليه (كان) ارتفع بها، والخبر منتظر يتم به الكلام، فنصبته لخلوته»^(٣٠)، فالمقصود بالكلام الذي يتم بالخبر ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، كما لو أدخلت عليه (كان) فلا يكتمل الكلام ويتم إلا بالخبر المنسوب.

ومصطلح الكلام حاضر لدى الفراء في غير موضع، يعبر فيه عن الجملة. يقول: «قوله: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُتِيٌّ فَهْمٌ لَا يَرَجِعُونَ﴾»^(٣١)، رُفِعَ وَأَسْمَاءُ هُنَّ فِي أَوَّلِ الْكَلَامِ مَنْصُوبَةٌ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ تَمَّ^(٣٢)، وانقضت به آية، ثم استؤنفت ﴿صُمُّ بُكْمٌ

(٢٧) الفاتحة الآية ٢.

(٢٨) معاني القرآن للفراء ٢: ٣٨٨.

(٢٩) سورة البقرة الآية ٢١٨.

(٣٠) معاني القرآن للفراء ١: ١٣.

(٣١) سورة البقرة الآية ١٨.

(٣٢) الكلام السابق الذي تم وانقضت به آية ﴿وَتَرَكَّهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ سورة البقرة الآية ١٧ فالوضع موضع نصب على المفعولية للفعل تركهم، لكنه لما تم الكلام استأنف

عُمِّي» في آية أخرى، فكان أقوى للاستئناف^(٣٣) فالجملة في الآية السابقة تمت،
فرفعت الأسماء في الجملة الجديدة على استئنافها.

لذا فالجملة عند الفراء قائمة على الإسناد والاستقلال الدلالي نظرًا لأنها
مساوية للكلام المستغني.

٣. عند الأخفش (٢١٥هـ)

عبًا الأخفش مصطلح الكلام بمفهوم الجملة، وعبر به في غير موضع عنها،
فالكلام المستأنف لديه هو الجملة الاستئنافية. يقول الأخفش: «وقال: ﴿وإن تُبَدُوا
مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَن يَشَاءُ﴾^(٣٤) فتجزم (يعفر) إذا
أردت العطف وتنصب إذا أضمرت (أن) ونويت أن يكون الأول اسمًا، وترفع على
الابتداء، وكل ذلك من كلام العرب. وقال: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ
وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾^(٣٥)، ثم قال: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ﴾^(٣٦) فرفع
(ويتوب)؛ لأنه كلام مستأنف ليس على المعنى الأول، ولا يريد: قاتلوهم يتب الله
عليهم، ولو كان هذا لجاز فيه الجزم^(٣٧). فجملة (يتوب الله) لا تكون معطوفة على

بكلام جديد فرفع.

(٣٣) معاني القرآن للفراء ١: ١٦.

(٣٤) سورة البقرة الآية ٢٨٤.

(٣٥) سورة التوبة الآية ١٤.

(٣٦) سورة التوبة الآية ١٥.

(٣٧) معاني القرآن، الأخفش الأوسط، سعيد بن مسعدة، تح: فائز فارس، ط ٢: الكويت

١٩٨١م، ص ٦٠.

(يعذبهم) لأن المعنى ليس مرتبطاً بالأمر في الجملة الأولى؛ لكنه استثناء، لأن الكلام الأول قد تم وانتهى.

فالكلام السابق يوحي بأن الجملة عند الأخفش قامت على الإسناد والاستقلال الدلالي، وذلك لمساواتها للكلام المستغني، لكن هذا الإيجاء يتناقص عند حديثه عن جملة جواب الشرط التي لا تستغني عمّا قبلها. يقول الأخفش: «وقال تبارك وتعالى: ﴿ومن عاد فينتقم الله منه﴾^(٣٨) فهذا لا يكون إلا رفعا، لأنه الجواب الذي لا يُستغنى عنه، والفاء إذا كانت جواب المجازاة كان ما بعدها أبداً مبتدأ^(٣٩)». فجملة الجواب لا يُستغنى عنها في الجزاء؛ ولذلك يبدو أن الجملة لدى الأخفش قائمة على الإسناد فقط.

٤. عند المبرد (٢٨٥هـ)

قدّم المبرد حديثاً ناضجاً عن الجملة، وفرّق بين نوعيها الفعلية والاسمية، وصرح بأن المبتدأ والخبر جملة، وأن الفعل والفاعل جملة أيضاً. قال: «لأن الابتداء والخبر كالفعل والفاعل لأنهما جملتان»^(٤٠).

والجملة التي ذكر المبرد أنها مكونة من مبتدأ وخبر، أو من فعل وفاعل، مثل لها في باب المسند والمسند إليه دون التصريح بذكرها. قال: «هذا باب المسند والمسند

(٣٨) سورة المائدة الآية ٩٥.

(٣٩) معاني القرآن للأخفش، ص ٦١. يبدو أن الأخفش قصد أن الفاء الرابطة لجواب الشرط لا تدخل على الفعل المضارع الممكن جزمه، ولأنها دخلت ههنا على الفعل ينتقم، والقياس فيه أن يجزم بدون اقترانه بالفاء، فجعلها تدخل على الابتداء المحذوف، والتقدير: فهو ينتقم.

(٤٠) المقتضب، المبرد تح: محمد عبد الخالق عزيمة، ط: عالم الكتب، بيروت ٣: ١٧٧.

إليه، وهما ما لا يستغني كل واحد من صاحبه، فمن ذلك: قام زيد، والابتداء وخبره، وما دخل عليه نحو: كان، وإنَّ، وأفعال الشك، والعلم، والمجازاة»^(٤١)، فلا تكون الجملة بكلمة واحدة^(٤٢)، بل بمسند ومسند إليه، حتى يستقيم المعنى ويستغني الكلام؛ «لأن اللفظة الواحدة من الاسم والفعل لا تفيد شيئاً، وإذا قرنتها بما يصلح حدث معنى، واستغني الكلام»^(٤٣).

والجملة لدى المبرد قرينة الفائدة، وما أمكن السكوت عليها. قال: «وإنَّها كان الفاعل رفعاً لأنَّه هو والفعل جملةٌ يحسن عليها السكوت وتجب بها الفائدةُ للمخاطب فالفاعل والفعل بمنزلة الابتداء والخبر إذا قلت: قام زيد فهو بمنزلة قولك: القائم زيد»^(٤٤) فالفاعل والفاعل، كالمبتدأ والخبر كلاهما جملة يحسن السكوت عليها، وتجب الفائدة بها للمخاطب.

وقد صرح المبرد بأن الجملة هي الكلام المستغني حينما تحدث عن الاستدراك بـ لكنَّ أو لكن. قال المبرد: «ويجوز في الثقيلة والخفيفة أن تستدرك بهما بعد الإيجاب

(٤١) المقتضب ٤: ١٢٦.

(٤٢) «زعم ابن طلحة أن الكلمة الواحدة قد تكون كلاماً؛ إذا قامت مقام الكلام كـ نعم و لا في الجواب، ورد بأن الكلام هو الجملة المقدرة بعدها، وزعم أبو علي الفارسي أن الاسم مع الحرف يكون كلاماً في النداء نحو: يا زيد، وأجيب بأن (يا) سدت مسد الفعل، وهو أدعو أو أنادي، وزعم بعضهم أن الفعل مع الحرف يكون كلاماً في نحو: ما قام، بناء على أن الضمير المستتر لا يعد كلمة» همع الهوامع ١: ٥٢.

(٤٣) المقتضب ٤: ١٢٦.

(٤٤) ابن السراج، المقتضب ١: ٨.

ما كان مستغنياً، نحو قولك: جاء زيد. فأقول: لكنَّ عمرًا لم يأت، وتكلم عمرو ولكنَّ خالدٌ سكت، فأما الخفيفة إذا كانت عاطفة اسماً على اسم لم يجوز أن تستدرك بها إلا بعد النفي، لا يجوز أن تقول: جاءني عمرو ولكنَّ زيداً، ولكن: ما جاءني عمرو لكنَّ زيداً، فإن عطفت بها جملة، وهي الكلام المستغني جاز أن يكون ذلك بعد الإيجاب كما ذكرت لك، تقول: قد جاءني زيد، لكنَّ عمرو لم يأتني»^(٤٥).

وكذلك حينما تحدث عن صلة الموصول. قال: «ولا تكون صلته [أي الذي] إلا كلاماً مستغنياً، نحو: الابتداء والخبر، أو الفعل والفاعل»^(٤٦)، فإطلاق المبرد على جملة الصلة أنها كلام مستغنٍ إطلاقاً مريب، يخلط فيه بين مفهومي الجملة والكلام، فجملة الصلة ليست كلاماً في عرف النحاة المتأخرين؛ لأنها غير مقصودة لذاتها، وإن قامت على الإسناد.

وذهب د. شمسان إلى أن المبرد نظر إلى أن الجملة الشرطية كلام عمل بعضه في بعض، لكنه لم ينظر إليها على أنها جملة واحدة^(٤٧)، على أن نصوص المبرد تثبت له القول بالجملة الشرطية، ومن ذلك حديثه عن جملة الصلة. إذ قال: «وقد أعلمتك أن (الذي) يوصل بالفعل والفاعل وبالابتداء والخبر والظرف ولا بد في صلة الذي من راجع إليه يوضحه، فإذا قلت: رأيت الذي قام، فاسمه في قام، وكذلك: رأيت

(٤٥) ابن السراج، المقتضب ٤: ١٠٨.

(٤٦) المقتضب ١: ١٥٧.

(٤٧) قال د. شمسان: «ينظر المبرد إلى الجملة الشرطية على أنها كلام لا يستغني بعضه عن بعض، وهذه هي النظرة النحوية منذ سيبويه لم تتخلف، لكن هذا لا يعني أنه نظر إليها على اعتبار أنها جملة واحدة» الجملة الشرطية عند النحاة العرب، ص ٦٦.

الذي في الدار، فإن كان الاستقرار والقيام لغيره، قلت: رأيت الذي في الدار أبوه، ورأيت الذي قام صاحبه، على ذلك يجري، كذلك: رأيت الذي إن يأتي آتته؛ لأن المجازاة جملة، وفيها ما يرجع إليه وإذا وصلت الذي بالذي فلا بد للثاني من صلة وخبر حتى يكون في صلة الأول ابتداءً وخبراً^(٤٨)، فالمبرد أشار إلى صلة الاسم الموصول (الذي) قد تكون جملة شرطية - كما استقر المصطلح فيما بعد - وأردف أن المجازاة جملة.

فجملة المبرد قرينة الكلام المستغني الذي يقوم على الاستقلال الدلالي، ويدل على ذلك وقوع الجملة الشرطية صلة، وتصريحه بأن المجازاة جملة.

٥. عند ابن السراج (٣١٦هـ)

تحدث ابن السراج عن محلية بعض الجمل وعدم محلية بعضها الآخر^(٤٩)، وأول تلك التي لها محل بالمفرد وتحدث عن موضعها. قال ابن السراج: «والجمل المفيدة على ضربين: إما فعل وفاعل، وإما مبتدأ وخبر، أما الجملة التي هي مركبة من فعل وفاعل، فنحو قولك: زيد ضربته، وعمرو لقيت أخاه، وبكر قام أبوه، وأما الجملة التي هي مركبة من ابتداء وخبر، فقولك: زيد أبوه منطلق، وكل جملة تأتي بعد المبتدأ فحكمها في إعرابها كحكمها إذا لم يكن قبلها مبتدأ ألا ترى أن إعراب (أبوه منطلق) بعد قولك (زيد) كإعرابه لو لم يكن (زيد) قبله ف(أبوه) مرتفع بالابتداء (ومنطلق) خبره، ف (زيد) مبتدأ أول، و(أبوه) مبتدأ ثانٍ، ومنطلق خبر الأب، و(الأب منطلق

(٤٨) المقتضب ٣: ١٣٠.

(٤٩) قال: (اعلم أن الجمل على ضربين: ضرب لا موضع له، وضرب له موضع) الأصول في النحو، ابن السراج تح: عبد الحسين الفتلي ط ٣: مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٨، ٢: ٦٢.

(خبر (زيد)، وموضع قولك (أبوه منطلق) رفع، ومعنى قولنا: الموضع، أي لو وقع موقع الجملة اسم مفرد لكان مرفوعاً^(٥٠)، ويلاحظ هنا أن ابن السراج تحدّث عن نوعين من الجمل: جمل مفيدة، وهي الجمل المستغنية التي يحسن السكوت عليها، وجمل أخرى لا تستقل بنفسها؛ لأنها تقع موقع المفرد، فتعرب إعرابه، وتكون جزءاً من الكلام، كتلك الجملة التي وقعت خبراً للمبتدأ.

وألح ابن السراج في أصوله على إطلاق مصطلح الكلام على الجمل المفيدة التي يحسن السكوت عليها، فالمبتدأ لا يكون كلاماً إلا بخبره. قال في حديثه عن خبر المبتدأ: «الاسم الذي هو خبر المبتدأ هو الذي يستفيده السامع، ويصير به المبتدأ كلاماً، وبالخبر يقع التصديق والتكذيب، ألا ترى أنك إذا قلت: عبد الله جالس، فإننا الصدق والكذب وقع في جلوس عبد الله لا في عبد الله؛ لأن الفائدة هي في جلوس عبد الله، وإنما ذكرت عبد الله لتسند إليه جالساً، فإذا كان خبر المبتدأ اسماً مفرداً فهو رفع^(٥١)، فإن كان خبر المبتدأ اسماً مفرداً فهو مرفوع، وإن كان الخبر جملة كان محلها الرفع. قال: «فإذا طال الحديث عن المبتدأ كل الطول، وكان فيه ما يرجع ذكره إليه جاز نحو قولك: (عبد الله قام رجل كان يتحدث مع زيد في داره) صار جميع هذا خبراً عن (عبد الله) من أجل هذه الهاء التي رجعت إليه بقولك (في داره) وموضع هذه الجملة كلها رفع من أجل أنك لو وضعت موضعها (منطلقاً) وما أشبهه ما كان إلا رفعاً، فقد بان من جميع ما ذكرنا أنه قد يقع في خبر

(٥٠) ابن السراج، الأصول في النحو ١: ٦٥.

(٥١) ابن السراج، الأصول في النحو ١: ٦٢.

المتبدأ أحد أربعة أشياء: الاسم أو الفعل أو الظرف أو الجملة»^(٥٢)، فالجملة وقعت موقع خبر المتبدأ، وهي مثله محلها رفع، وهي جملة مع أنها لم تستقلّ دلاليًا، ولم يكن الإسناد فيها مقصودًا لذاته.

ومثل هذا غير قليل لدى ابن السراج، فقد صرح غير مرة أن الجملة حال أو صلة أو خبر، لكن ماهية الجملة ظلت غائمة عند قارئه، ولا سيما أنه وصف الجملة بالمفيدة، ومما مثل به لجملة الخبر «(اللذان اختصما كلاهما أخواك) فاللذان ابتداء، و(اختصما) صلة لهما و(كلاهما) ابتداء ثانٍ، و(أخواك) خبره، وهذه الجملة خبر اللذين»^(٥٣)، ف(كلاهما أخواك) جملة وقعت موقع الخبر، علمًا أنها لم تستقلّ دلاليًا، ولم تكن مفيدة بنفسها.

وإذا أردنا تفسير ماهية الكلام بضوء نصوص ابن السراج فسرناه بالجملة المفيدة لمعنى يحسن السكوت عليه، ف«إذا قلت: إن تأتني، لم يكن كلامًا حتى تقول: آتك»^(٥٤)، ففي هذا التركيب جملة فعلية (تأتني) لكنها ليست كلامًا تامًا، فأسلوب الشرط لا يكتمل إلا بالجواب، فإن ذكر الجواب، كان القول كلامًا مفيدًا لمعنى يحسن السكوت عليه.

فإذا لم يكن ابن السراج قد صرح في النص السابق أن الكلام هو الجملة المفيدة لمعنى يحسن السكوت عليه، أو أن الجملة المفيدة هي الكلام، فقد صرح في موضع آخر أن الفعل والفاعل جملة تفيد معنى، ويحسن السكوت عليها، ويتم بها الكلام

(٥٢) الأصول في النحو ١: ٦٥.

(٥٣) الأصول في النحو ٢: ٣٥٧.

(٥٤) الأصول في النحو ٢: ١٥٨.

دون الحاجة إلى المفعول لأنه فضلة. قال: «فالاسم الذي يرتفع بأنه فاعل، هو والفعل جملة يستغني عليها السكوت، وتمت بها الفائدة للمخاطب، ويتم الكلام به دون مفعول، والمفعول فضلة في الكلام كالذي تقدم، فأما الفعل فلا بد له من فاعل، وما يقوم مقام الفاعل بمنزلة الابتداء والخبر، ألا ترى أنك إذا قلت قام زيد فهو بمنزلة قولك القائم زيد»^(٥٥).

وخلاصة القول إن الجملة لدى ابن السراج قامت على الإفادة والاستغناء.

٦. عند الفارسي (٣٧٧هـ)

قدّم الفارسي حديثاً ناضجاً جداً عن الجملة، فذكر مكوناتها، وقسمها قسمة مختلفة عما ساد لدى سابقيه من النحاة، فنسب إليه ابن يعيش أضرَب الجملة الأربعة: الفعلية والاسمية والظرفية والشرطية^(٥٦).

وقد قرن الفارسي الجملة بالكلام المستقل، وجعلها مساوية له. ومن ذلك قوله في: «باب ما ائتلف من هذه الألفاظ الثلاثة، كان كلاماً مستقلاً، وهو الذي يسميه أهل العربية الجمل: اعلم أن الاسم يأتلف مع الاسم يكون منهما كلام، وذلك نحو: زيدٌ أخوك، وعمروٌ ذاهب. والفعل مع الاسم، نحو: قام زيدٌ، وذهب عمروٌ، ويدخل الحرف على كل واحدة من هاتين الجملتين، فيكون كلاماً، وذلك نحو: هل زيدٌ أخوك؟ وإنَّ زيداً أخوك، وما عمروٌ منطلقاً. وكذلك يدخل الحرف على الفعل والاسم، كما دخل على الجملة المركبة من الاسمين، وذلك نحو: قام زيدٌ،

(٥٥) الأصول في النحو: ١: ٧٥ و٢: ١٥٨.

(٥٦) نسب ابن يعيش أنواع الجمل الأربعة إلى الفارسي وقال: (وهذه قسمة أبي علي)، يُنظر:

ويذهب عمرو، ولم يضرب زيد، فأما قولهم: زيد في الدار، والقتال في اليوم، فهو كلام مؤتلف من اسم وحرف، وليس على حدّ قولك إن زيداً منطلق، ولكنه من خبره الفعل والاسم أو الاسم والاسم^(٥٧). فالكلام - مثلما يوضحه النص السابق - إسناد اسم إلى اسم، أو فعل إلى اسم، أو حرف دخل على هذين الإسنادين، ولعله استعمل مصطلحي الكلام والجملّة في الإيضاح، إذ قال: «فالاسم يأتلف مع الاسم، فيكون كلاماً مفيداً، كقولنا: عمرو أخوك، وبشر صاحبك، ويأتلف الفعل مع الاسم فيكون كذلك، كقولنا: كتب عبدالله... ويدخل الحرف على كل واحد من الجملتين فيكون كلاماً، كقولنا: إن عمراً أخوك، وما بشر صاحبك»^(٥٨). فالجملّة والكلام قرينا التركيب والإفادة، ولذلك لم ينفِ الفارسي أن تتكون الجملّة من الحرف والاسم، وذلك في النداء فقط، إذ قال: «وما عدا ما ذكر مما يمكن ايتلافه من هذه الكلم فمطّرح إلا الحرف مع الاسم في النداء، نحو: يا زيد، ويا عبدالله. فإن الحرف والاسم قد ايتلف منهما كلام مفيد في النداء»^(٥٩). ورأي الفارسي في جملة النداء يدلنا على أنه تمسك بالفائدة، إذ جعل النداء جملة مكونة من حرف واسم دون أن يتحقق لها الإسناد، بيد أنها حققت الفائدة.

وانتهى الفارسي في تقسيمه لجملّة الخبر إلى أربعة أضرب، إذ قال: «وأما

(٥٧) المسائل العسكرية، الفارسي تح: علي جابر المنصوري ط: دار الثقافة، عمان، ٢٠٠٢م، ص ٦٣.

(٥٨) الإيضاح العضدي، الفارسي، تح: حسن شاذلي فرهاد، ط: ١: دار التأليف، مصر ١٩٦٩م، ص ٩.

(٥٩) الإيضاح العضدي، ص ٩.

الجملة التي تكون خبر المبتدأ فعلى أربعة أضرب، الأول: أن تكون جملة مركبة من فعل وفاعل، والثاني: أن تكون مركبة من ابتداء وخبر، والثالث: أن تكون شرطاً وجزاء، والرابع: أن تكون ظرفاً^(٦٠). والحقيقة أن اتجاه الفارسي في جعل الجملة الشرطية خبراً دليلاً دامغ على أن الجملة لديه تقوم على الاستقلال الدلالي لا الإسناد فحسب، ففي قوله: «(زيدٌ إن تكرمه يكرمه... فزيدٌ ابتداء وقولك: إن تكرمه يكرمه، جملة في موضع خبره، وقد عاد الذكر منها إلى المبتدأ، والجملة في موضع رفع لوقوعها موقع الخبر»^(٦١). فالفارسي جعل الجملة الشرطية من الشرط والجزاء جملة خبرية؛ لأن المعنى لا يتم من دون الجواب. ف«الفعل والفاعل في الشرط لا يُستغنى بهما، ولا يخلو من أن تضم الجملة التي هي الخبر إليه»^(٦٢)، فجملة الخبر لدى الفارسي أربعة أضرب: اسمية وفعلية وشرطية وظرفية.

لكن الجملة بوجه عام لديه تتعدى الأقسام الأربعة السابقة، إذ يضيف إليها الجملة القسمية^(٦٣) إذ قال: «وكذلك القسم، لا يكون كلاماً مستقلاً دون أن تضم إليه المقسم عليه والمقسم؛ لأنه ضرب من الخبر، يذكر ليؤكد به غيره»^(٦٤). وربما لم

(٦٠) الإيضاح العضدي، ص ٤٣.

(٦١) الإيضاح العضدي، ص ٤٧.

(٦٢) المسائل العسكرية، ص ٧٠-٧١.

(٦٣) أشار المحقق د. علي جابر المنصوري في دراسته التي قدّم بها للعسكريات إلى أن الجملة الخبرية لدى الفارسي أربعة أضرب، أما الجملة بوجه عام فهي ستة أضرب، اسمية وفعلية وشرطية وظرفية وجملة القسم وجملة النداء. يُنظر: المسائل العسكرية، ص ٥٠.

(٦٤) المسائل العسكرية، ص ٧١.

يعتدّ الفارسي بالإسناد أحياناً شرطاً للجملة؛ إذ تجاوز هذا الشرط في جملة النداء، فجملة النداء - لديه - جملة مع أنها لا تقوم على الإسناد، فقد تكونت من ائتلاف الحرف والاسم^(٦٥).

فالجملة لدى الفارسي فعلية واسمية وشرطية وظرفية وجملة القسم وجملة النداء ومن تكون الجملة لديه كذلك، فمؤكد أنها قامت على الاستغناء.

٧. عند ابن جني (٣٩٢ هـ)

صرح ابن جني بأن الكلام هو الجمل التامة، المستقلة بنفسها - وهو كذلك - عند حديثه عن الفعل (قال) الذي يقع بعده كلام، والكلام جمل تامة. قال: «الكلام هو الجمل المستقلة بأنفسها الغانية عن غيرها»^(٦٦) فالكلام هو الجمل التامة المستقلة بنفسها، المفيدة لمعنى يحسن السكوت عليه، وقد أشار ابن جني إلى ذلك، وأكد هذا

(٦٥) ينظر: الإيضاح العضدي ص ٩ علمًا أن جملة النداء عند النحاة جملة فعلية، وركناها مقدران أو نابت (يا) عن الفعل، وقد وضح القول فيها الرضي في شرح الكافية. قال: «في يا زيد، جملة، وليس المنادى أحد جزأي الجملة، فعند سيبويه جزء الجملة، أي الفعل والفاعل مقدران، وعند المبرد: حرف النداء سد مسد أحد جزأي الجملة أي الفعل، والفاعل مقدر، ولا منع من دعوى سده مسدهما، والمفعول به هاهنا على المذهبين واجب الذكر لفظاً أو تقديرًا، إذ لا نداء بدون المنادى». شرح الرضي ١: ٣٤٦ لكن الفارسي لم يشير إلى ذلك، مما دفع بعض النحاة إلى الرد عليه. قال السيوطي: «وزعم أبو علي الفارسي أن الاسم مع الحرف يكون كلامًا في النداء نحو: يا زيد، وأجيب بأن (يا) سدت مسد الفعل، وهو أدعو أو أنادي» همع المواع ١: ٥٢.

(٦٦) الخصائص، ابن جني، تح: محمد علي النجار، ط: عالم الكتب - بيروت ١: ١٩.

المعنى في موضع آخر حينما عرّف الكلام، فوصفه بأنه كل لفظ مستقل بنفسه مفيد بمعناه. قال: «أما الكلام فكل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه، وهو الذي يسميه النحويون الجمل»^(٦٧)، فابن جني في هذا النص ساوى بين الكلام والجمل دون قيد أو تخصيص، فقال: (وهو الذي يسميه النحويون الجمل) وراح يمثل بجمل فعلية واسمية وأسماء أفعال وأصوات ليربط الكلام بالإفادة «نحو: زيد أخوك، وقام محمدٌ، وضربَ سعيدٌ، وفي الدار أبوك، وصه، ومه، ورويد، وحاءٍ، وعاءٍ، في الأصوات، وحس ولب وأف وأوه، فكل لفظ استقل بنفسه، وجنيت منه ثمرة معناه فهو كلام»^(٦٨) وهو كذلك، إذ الكلام أخص من الجملة، وما ينطبق على الكلام ينطبق على الجمل المفيدة، لكن ابن جني حينما تحدث عن الجملة ذكر أنها الكلام المفيد. قال: «وأما الجملة فهي كل كلام مفيد مستقل بنفسه، وهي على ضربين: جملة مركبة من مبتدأ وخبر، وجملة مركبة من فعل وفاعل»^(٦٩)، وابن جني إن لم يختلف في تعريفه السابق للكلام مع النحاة المتأخرين، فإنه اختلف معهم في تعريفه للجملة، إذ عرّفها بأنها كل كلام مفيد مستقل بنفسه، ولعل هذا النص لابن جني يؤكد أن الجملة قائمة عنده على الفائدة.

لقد ساوى ابن جني بين الجملة والكلام، وكل ذلك شرطه الإفادة في المعنى،

فكأن الجملة لديه تقوم على الإسناد والاستقلال.

(٦٧) الخصائص ١: ١٧.

(٦٨) الخصائص ١: ١٧.

(٦٩) اللمع في العربية، ابن جني، تح: فائز فارس، ط: دار الكتب الثقافية - الكويت ١٩٧٢م،

٨. عند عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ أو ٤٧٤ هـ)

تتكون الجملة لدى الجرجاني من مسند ومسند إليه من فعل وفاعل أو مبتدأ وخبر «ومختصر كل الأمر أنه لا يكون كلاماً من جزء واحد وأنه لا بد من مسندٍ ومُسندٍ إليه^(٧٠)، أما الجملة الشرطية فتتكون من جملتين جملة الشرط وجملة الجزاء ولا تستغني إحداهما عن الأخرى، ولا تستقل، وكلاهما فعلية^(٧١). يقول الجرجاني: «الجملة من الفعل والفاعل، والجملة من المبتدأ والخبر، لأن الشرط والجزاء يكون من فعل وفاعل نحو إن تضرب أضرب، غير أنه لما خالف الظاهر حيث جرى الجملة فيه مجرى الجزء من امتناعها من أن تستقل بنفسها حتى تنضم إليها الثانية عدت ضرباً مفرداً وذلك أنك لا تقول: إن تضرب، من دون أضرب، ولا أضرب من دون أن تضرب، لأن المعنى الذي وضع عليه اقتضى جملتين ترتبط إحداهما بصاحبتهما وهو أنه شرط وجزاء، ومعلوم أن الشرط من دون الجزاء والجزاء من دون الشرط لا يفيد»^(٧٢).

وتابع الجرجانيُّ أبا علي الفارسي في الجملة، فكانت عنده أربعة أضرب: فعلية واسمية وظرفية وشرطية. إذ قال: «اعلم أن الجمل على أربعة أضرب كما ذكر، فالأول: نحو زيد منطلق، وأخوه خارج، وهو الجملة من المبتدأ والخبر، والثاني نحو خرج أبوه، وقام غلامه، وهذا هو الجملة من الفعل والفاعل، والثالث: إن تضربه

(٧٠) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني تح: محمد التنجي، ط ١: دار الكتاب العربي -

بيروت ١٩٩٥م، ص ١٦.

(٧١) الأصل في جملة الجواب أن تكون فعلية، غير أنها قد ترد اسمية كما هو معروف.

(٧٢) المقتصد، ص ٢٧٨.

يضربك، وهو الجملة من الشرط والجزاء، والرابع نحو: في الدار وخلفك ويوم الجمعة، وهو الجملة من الظرف، وكون هذا الضرب جملة يقع فيه كلام من بين الجميع»^(٧٣).

أما إعرابها فإذا وقعت الجملة موقع المفرد قدر إعرابها بتقدير ذلك المفرد. يقول الجرجاني: «كل جملة وقعت موقع المفرد قدر في موضعها ما يستحق المفرد في ذلك الموضع من الإعراب»^(٧٤)، ومع أن الجرجاني قال بوقوع الجملة موقع المفرد - وهذا يعني أنها غير مستقلة دلاليًا، وأنها غير مقصودة لذاتها - فقد ساوى بين الجملة والكلام. قال: «اعلم أن الواحد من الاسم والفعل والحرف يسمى كلمة، فإذا ائتلف منها اثنان فأفادا نحو: خرج زيدٌ، سمي كلامًا، وسمي جملة»^(٧٥)، على أنه يجب الانتباه إلى قوله: (فأفادا) في النص السابق، فالجملة إذا كانت مفيدة كانت كلامًا، ولأن الجملة عنده على أربعة أنواع، منها الشرطية، فالجملة عنده تقوم على الإسناد والاستقلال الدلالي معًا، فالإسناد عنده شرط لازم غير كاف وحده لتسمية المركب اللغوي جملة، لذلك عد التركيب الشرطي جملة مع اشتماله على أكثر من عملية إسنادية.

٩. عند الزمخشري (٥٣٨ هـ)

رسم الزمخشري نظرتة رسمًا أوضح من سابقه، فالكلام لديه هو ما تركب من

(٧٣) المقتصد في شرح الإيضاح، عبد القاهر الجرجاني، تح: كاظم بحر مرجان - ط: دار

الرشيد - العراق ١٩٨٢ م، ص ٢٧٤ ويُنظر: دلائل الإعجاز ص ٤٤.

(٧٤) المقتصد، ص ٢٩٢.

(٧٥) الجمل في النحو، عبد القاهر الجرجاني، تح: علي حيدر، ط: دمشق ١٩٧٢ م، ص ٤٢.

كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى. قال: «والكلام هو المركب من كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى، وذلك لا يتأتى إلا في اسمين كقولك: زيد أخوك، وبشر صاحبك، أو في فعل واسم نحو قولك: ضرب زيد، وانطلق بكر، وتسمى الجملة»^(٧٦)، وهذا الكلام المسند بعضه إلى بعضه الآخر، لا يكون إلا بين اسم واسم، أو بين فعل واسم، ولعل هذا يلمح إلماحاً إلى أن الجملة تقوم على ما يقوم عليه الكلام: الإسناد والاستقلال الدلالي (الإفادة).

على أن هذا الاستنتاج المتعجل لا يعدو أن يكون ضرباً من التجوّز المبالغ فيه، ولا سيما أن الكلام أخص من الجملة، فكل كلام جملة على اختلاف الآراء، لكن الذي يرجح الاستنتاج السابق، ويؤيده خير تأييد تمسك الزمخشري بقسمة الفارسي لأنواع الجملة، إذ قال، كما قال الفارسي بأربعة أنواع: هي الفعلية، والاسمية، والظرفية، والشرطية. كما في حديثه عن أنواع الخبر، إذ قال: «والخبر على نوعين: مفرد وجملة... والجملة على أربعة أضرب: فعلية واسمية وشرطية وظرفية. وذلك: زيد ذهب أخوه، وعمرو أبوه منطلق، وبكر إن تعطه يشكرك، وخالد في الدار»^(٧٧). فالخبر الذي تتم به الجملة في قوله: بكر إن تعطه يشكرك، هو الجملة الشرطية (إن تعطه يشكرك) علماً أن الجملة الشرطية في رأي نحاة آخرين ليست جملة واحدة، بل جملتان، لكن الذي دفعه إلى قوله بها تمسكه بالمعنى المفيد الذي يجب أن تكتمل به جملة الخبر.

(٧٦) المفصل في صنعة الإعراب، الزمخشري، تح: علي بو ملحم ط ١: مكتبة الهلال -

بيروت ١٩٩٣م، ص ٢٣.

(٧٧) المفصل، ص ٤٤.

ولذلك فالجملة لدى الزمخشري تقوم على ما يقوم عليه الكلام: الإسناد والاستقلال الدلالي (الإفادة).

١٠. عند ابن يعيش (٦٤٣هـ)

حدّ الجملة لدى ابن يعيش أن تقوم على فائدة، فإذا دخل الاستفهام عليها دخل مستفهمًا عن تلك الفائدة. قال: «إن جملة الاستفهام قبل دخول الاستفهام تدل على فائدة، فدخل الاستفهام سؤالاً عن تلك الفائدة»^(٧٨)، فالفائدة المنشودة هي الوجه الآخر للجملة، ولذلك فإن المتتبع لشرحه سيجد إصراراً منه على التمسك بالفائدة والاستقلال المشار إليهما سابقاً، وقد صرح بهذا الفهم للجملة في غير موضع. إذ قال: «الجملة عبارة عن كل كلام تامّ قائم بنفسه»^(٧٩)، وفي هذا التعريف للجملة يظهر مذهب ابن يعيش في تعامله مع الجملة، فالجملة بالمعنى السابق الذي ساقه تماثل الكلام وتساويه، إذ شرطها لديه الاستقلال والإفادة، ولا غرابة إذن في أن نجده يعكس المعادلة في موضع آخر فيعرف الكلام ويشرحه بالجملة. قال: «اعلم أن الكلام عند النحويين عبارة عن كل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه ويسمى الجملة. نحو: زيدٌ أخوك، وقام بكرٌ»^(٨٠).

ورأى ابن يعيش عند حديثه عن خبر اسم الشرط أن جملة الشرط والجزاء هما الخبر. قال: «تقول أيُّهم يأتي آت، وأيُّهم يحسن إلي أحسن إليه، ترفع أيًّا

(٧٨) شرح المفصل، ابن يعيش، ط: إدارة الطباعة المنيرية مصر ١: ٨٢.

(٧٩) شرح المفصل ٣: ١٥١ ويقول في موضع آخر: «لأن الجملة كل كلام مستقل قائم بنفسه»

١: ٨٨.

(٨٠) شرح المفصل ١: ٢٠.

بالابتداء وما بعدها من الشرط والجزاء خبر^(٨١)، لأن جملة الشرط وحدها غير مفيدة، ولا يحسن السكوت عليها؛ لتكون خبراً، إذ الخبر ما أفاد معنى، ولا تتم الفائدة هاهنا إلا بالشرط والجواب معاً. فالجملة لديه تقوم على الإسناد والاستقلال الدلالي.

غير أن ابن يعيش قال في موضع آخر قولاً يفيد أن الجمل مختلفة عن الكلام. قال: «إن الكلام عبارة عن الجمل المفيدة، وهو جنس لها، فكل واحدة من الجمل الفعلية والاسمية نوع له، يصدق إطلاقه عليها^(٨٢). واللافت في هذا النص شيان: أولهما أنه جعل الكلام هو الجمل المفيدة، وهذا إطلاق معقول ومقبول، والآخر تصنيفه الكلام على أنه جنس، وأن الجمل نوع، وكأنه يريد أن الجملة بنوعها المفيدة وغير المفيدة من أضرب الكلام، لأن النوع من أفراد الجنس، وفي هذا إشارة إلى أنها ليسا متطابقين.

١١. عند الرضي الأستراباذي (٦٨٦هـ)

ربما كان الرضي من النحاة القليلين الذين فرقوا بين الكلام والجملة في هذا الوقت، إذ قامت الجملة عنده على الإسناد الأصلي فقط، وقام الكلام على الإسناد الأصلي المقصود لذاته، وبهذا الفهم للجملة والكلام تكون الجملة أعم من الكلام، لأن الكلام مستقلٌ دلاليًا. قال الرضي: «والفرق بين الجملة والكلام أن الجملة ما تضمن الإسناد الأصلي، سواء كانت مقصودة لذاتها أو لا، كالجملة التي هي خبر المبتدأ وسائر ما ذكر من الجمل فيخرج المصدر، وأسماء الفاعل والمفعول والصفة

(٨١) شرح المفصل ٧: ٤٤.

(٨٢) شرح المفصل ١: ٢١.

المشبهة والظرف مع ما أسندت إليه. والكلام ما تضمن الإسناد الأصلي، وكان مقصوداً لذاته، فكلّ كلام جملة ولا ينعكس»^(٨٣).

فالكلام عنده هو التركيب المتضمن إسناداً أصلياً مقصوداً لذاته، له استقلال بنفسه، مؤدٍ معنى مفيداً يحسن السكوت عليه، والكلام أخص من الجملة، فكل ما سُمي كلاماً كان جملة أو أكثر، أما العكس فلا يصدق.

١٢. عند ابن هشام الأنصاري (٧٦١هـ)

ذهب ابن هشام في مغني اللبيب مذهب الرضي ففرّق بين الكلام والجملة، وجعل الكلام ما كان مفيداً بالقصد، والجملة ما قام على الإسناد الأصلي. يقول: «الكلام هو القول المفيد بالقصد والمراد بالمفيد ما دل على معنى يحسن السكوت عليه»^(٨٤)، والجملة عبارة عن الفعل وفاعله ك قام زيد، والمبتدأ وخبره ك زيد قائم، وما كان بمنزلة أحدهما نحو: ضرب اللص، وأقائم الزيدان؟ وكان زيد قائماً وظنته قائماً، وبهذا يظهر لك أنهما ليسا مترادفين كما يتوهمه كثير من الناس، وهو ظاهر قول صاحب المفصل فإنه بعد أن فرغ من حدّ الكلام قال: ويسمى جملة،

(٨٣) شرح الرضي على الكافية، تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر، ط ٢: جامعة قارون،

بنغازي ١٩٩٦م، ١: ٣٣.

(٨٤) وعرف ابن هشام الكلام من قبل في شرح قطر الندى بقوله: الكلام لفظ مفيد. ص ٥٦ وفي أوضح المسالك بقوله: الكلام في اصطلاح النحويين عبارة عما اجتمع فيه أمران: اللفظ والإفادة. ١: ١١ ولكن ابن هشام في الشذور اشترط مع الإفادة القصد. بقوله: الكلام قولٌ مفيدٌ مقصود. شذور الذهب، ص ٢٧ وهذا يبين تطور آراء ابن هشام النحوية بين شرح قطر الندى ومغني اللبيب. ينظر: تطور الآراء النحوية عند ابن هشام الأنصاري، حسن موسى الشاعر، ط ١: عمان دار البشير ١٩٩٤م، ص ١٥-١٦.

والصواب أنها أعم منه إذ شرطه الإفادة بخلافها، ولهذا تسمعهم يقولون جملة الشرط جملة الجواب جملة الصلة وكل ذلك ليس مفيداً فليس بكلام»^(٨٥)، فالكلام أخص من الجملة إذ شرطه الإفادة والإسناد الأصلي، والجملة أعم إذ شرطها الإسناد الأصلي فقط؛ ولذلك لم تكن جملة الشرط وجملة الجواب وجملة الصلة كلاماً لأنها غير مقصودة لذاتها. ولذلك فهو يرى أن خبر أسماء الشرط التي تقع مبتدأ جملة الشرط لا جملة الجواب^(٨٦).

ويبدو أن هذا التمييز لماهية الجملة، أتقوم على الإسناد الأصلي فحسب أم تقوم على الإسناد والاستقلال الدلالي؟ كان له صداه لدى المتأخرين من النحاة واللغويين، وإن كان أنصار الفريق الثاني أخذوا بالازدياد، وصارت دلالة الجملة الاصطلاحية الجديدة (القائمة على الإسناد الأصلي فقط) تُعتمد في كتب المصطلحات المتأخرة نسبياً كتعريفات الشريف الجرجاني (٨١٦هـ) الذي عرف الجملة في كتابه بأنها «عبارة عن مركب من كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى سواء أفاد كقولك زيد قائم أو لم يفد كقولك: إن يكرمني، فإنه جملة لا تفيد إلا بعد مجيء جوابه فتكون الجملة أعم من الكلام مطلقاً»^(٨٧).

(٨٥) مغني اللبيب ص ٤٩٠.

(٨٦) يقول د. المبارك معقّباً: «غير خاف أن جعله الجملة بمعنى الكلام، وكون الكلام عندهم هو المفيد، هو الذي دفعه وغيره إلى جعل فعل الشرط وجوابه معاً خبر اسم الشرط؛ لأن المعنى لا يتم إلا بالجواب» رسالة المباحث المرضية، ابن هشام، تح: مازن المبارك، ط: دار ابن كثير، دمشق ١٩٨٧م، ص ٤٩.

(٨٧) التعريفات، علي الجرجاني تح: إبراهيم الأبياري، ط ١: دار الكتاب العربي - بيروت ١٤٠٥هـ، ص ١٠٦.

١٣. عند المحدثين :

عرفت الجملة العربية اهتمامًا كبيرًا لدى الباحثين المحدثين، ومن هؤلاء: د. عبده الراجحي الذي عرّف الجملة تعريفًا نقله عن النحاة القدامى. قال: «الجملة في تعريف النحاة: هي الكلام الذي تتركب من كلمتين أو أكثر وله معنى مفيد مستقل»^(٨٨).

ومثل هذا التعريف كان تعريف د. عباس حسن. قال فيه: «الكلام أو الجملة: هو ما تتركب من كلمتين أو أكثر وله معنى مفيد مستقل»^(٨٩)، وكلا التعريفين السابقين لم يخرج عن تعريف النحاة القدامى للجملة في رأي من قال بوجوب الإسناد والاستقلال الدلالي للجملة، وبمساواة الجملة للكلام.

ومن الباحثين المحدثين الذين عنوا بالجملة العربية ريمون طحان الذي رأى بأن الجملة «تركيب يتألف من ثلاثة عناصر أساسية: المسند والمسند إليه والإسناد»^(٩٠).

أما د. مهدي المخزومي فقد عرّف الجملة بأنها «الصورة اللفظية الصغرى للكلام المفيد في أية لغة من اللغات»^(٩١).

(٨٨) في التطبيق النحوي والصرفي، عبده الراجحي، ط: دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٢م، ص ٧٧.

(٨٩) النحو الوافي، عباس حسن ط: دار المعارف، القاهرة. ١: ١٥.

(٩٠) الألسنية العربية، ريمون طحان، ط: دار الكتاب، بيروت ١٩٨١م، ٢: ٥٤.

(٩١) في النحو العربي، نقد وتوجيه، مهدي المخزومي، ط: المكتبة العصرية، بيروت ١٩٦٤م، ص ٣١.

وعرّفها د. إبراهيم أنيس بأنها «أقل قدر ممكن من الكلام يفيد السامع معنى مستقلاً بنفسه، سواء تركيب هذا القدر من كلمة واحدة أو أكثر»^(٩٢).

وعرّفها د. خليل عمارة «أنها الحد الأدنى من الكلمات التي تحمل معنى يحسن السكوت عليه»^(٩٣).

ورأى د. تمام حسان أن الجملة هي وحدة الكلام، وأن الأصل في الجملة الإفادة، فإذا لم تتحقق الإفادة فلا جملة، وتتحقق الإفادة بالقرائن حين يؤمن اللبس^(٩٤).

أطلق سيبويه على الجملة لفظ الكلام فأثر في النحاة اللاحقين حتى خلط بينهما أغلبهم، وورد تعريف الكلام والجملة في كتبهم متماثلين أحياناً، وناب فيها أحد المصطلحين عن الآخر إلى زمن غير قصير، وهو القرن السابع الهجري تقريباً، إلى أن فرّق رضي الدين الأستراباذي بينهما، وتابعه ابن هشام، وجماعة من المتأخرين. وصار النحاة في هذه المسألة على فرق:

الفريق الأول: هو القائل بالترادف بين الكلام والجملة، فمفهوم المصطلحين واحد لا يختلف، وقد وقفنا على هذا الرأي لدى الفراء والمبرد وابن جنبي والفراسي وعبد القاهر الجرجاني والزمخشري وابن يعيش، وناظر الجيش، والكافيجي^(٩٥)، ومن المحدثين عبده الراجحي.

(٩٢) من أسرار العربية، إبراهيم أنيس، ط: مطبعة البيان العربية، القاهرة. ص ١٣١.

(٩٣) في نحو اللغة وتراكيبها، خليل عمارة ص ١٧٠.

(٩٤) يُنظر: مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، ط: مطبعة الرسالة، القاهرة ١٩٥٥م، ص ١٩٥.

(٩٥) يُنظر: همع الهوامع ١: ٥٦.

الفريق الثاني: هو القائل بكون الجملة أعمّ من الكلام، وقد اختار هذا الرأي الرضي الأستراباذي، وابن هشام في مغني اللبيب والشريف الجرجاني، والسيوطي^(٩٦)، ومن المحدثين ريمون طحان، والجملة لدى هذا الفريق قامت على إسناد أصلي سواء أكانت مقصودة لذاتها أم لا، أما الكلام فهو ما قام على إسناد أصلي، وكان مقصودًا لذاته، أي: أفاد معنى مستقلًا بنفسه يحسن السكوت عليه.

الفريق الثالث: القائل بجملة غير إسنادية ومعيّار الجملة عنده الفائدة، حتى لو تحققت الفائدة بكلمة واحدة، ومن هؤلاء: أبو علي الفارسي في جملة النداء، وابن أبي طلحة^(٩٧) وتمام حسان، وإبراهيم أنيس، وخليل عمّارة.

(٩٦) يُنظر: همع الهوامع ١: ٥٦.

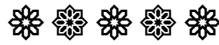
(٩٧) يُنظر: همع الهوامع ١: ٥٢.

مِصْرَاوَرُومِرِاجِمَعُ الْبَحْتِ

١. الأصول في النحو، أبو بكر ابن السراج، تح: عبدالحسين الفتلي، ط: ١: بيروت ١٩٨٥ م.
٢. الألسنية العربية، ريمون طحان، ط: دار الكتاب، بيروت ١٩٨١ م.
٣. أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ابن هشام الأنصاري، ط: ٥: دار الجيل - بيروت ١٩٧٩ م.
٤. الإيضاح العضدي، أبو علي الحسن بن أحمد بن عبدالغفار الفارسي، تح: حسن شاذلي، ط: ١: دار التأليف، مصر ١٩٦٩ م.
٥. البحر المحيط لأبي حيان، تح: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، ط: ١: دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٣ م.
٦. بناء الجملة العربية، محمد حماسة عبد اللطيف، ط: ١ القاهرة ١٩٩٦ م.
٧. تطور الآراء النحوية عند ابن هشام الأنصاري، حسن موسى الشاعر، ط: ١: عمان دار البشير ١٩٩٤ م.
٨. التعريفات، علي الجرجاني تح: إبراهيم الأبياري، ط: ١: دار الكتاب العربي - بيروت ١٤٠٥ هـ.
٩. الجمل في النحو، عبدالقاهر الجرجاني، تح: علي حيدر، ط: دمشق ١٩٧٢ م.
١٠. الجملة الشرطية عند النحاة العرب، إبراهيم شمسان، ط: ١: مصر ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م.
١١. الجملة النحوية نشأة وإعراباً، عبدالفتاح الدجني ط: ١: الكويت ١٩٨٧ م.
١٢. الخصائص، ابن جني، تح: محمد علي النجار، ط: عالم الكتب - بيروت.

١٣. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني تح: محمد التنجي، ط ١: دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٩٥ م.
١٤. رسالة المباحث المرضية، ابن هشام، تح: مازن المبارك، ط: دار ابن كثير، دمشق ١٩٨٧ م.
١٥. شرح الرضي على الكافية، الرضي الأستراباذي، تح: يوسف حسن عمر، ط: جامعة قاريونس، بنغازي ١٩٩٦ م.
١٦. شرح قطر الندى لابن هشام، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ١١: المكتبة التجارية، القاهرة ١٩٦٣ م.
١٧. شرح قواعد الإعراب للكافيحي، تح. د. فخر الدين قباوة، ط ٢ دمشق ١٩٩٣ م.
١٨. شرح المفصل، ابن يعيش، ط: إدارة الطباعة المنيرية مصر.
١٩. في التطبيق النحوي والصرفي، عبده الراجحي، ط: دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٢ م.
٢٠. في النحو العربي: نقد وتوجيه، مهدي المخزومي، ط ١: المكتبة العصرية، بيروت ١٩٦٤ م.
٢١. الكتاب، سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق عبدالسلام هارون، ط ١: دار الجيل بيروت.
٢٢. اللمع في العربية، ابن جنبي، تح: فائز فارس، ط: دار الكتب الثقافية - الكويت ١٩٧٢ م.
٢٣. مدخل إلى دراسة الجملة العربية، محمود أحمد نحلة، ط ١: بيروت ١٩٨٨ م.
٢٤. المسائل العسكرية، الفارسي تح: علي جابر المنصوري، ط: دار الثقافة - عمان، ٢٠٠٢ م.
٢٥. المسائل العضديات، الفارسي تح: علي جابر المنصوري، ط ١: عالم الكتب - بيروت ١٩٨٦ م.

٢٦. معالم التفكير في الجملة عند سيبويه، د. محمد عبدو فلفل، ط ١: دار العصماء - دمشق ٢٠٠٩م.
٢٧. معاني القرآن، الفراء أبو زكريا يحيى بن زياد، ط ٣: بيروت عالم الكتب ١٩٨٣م.
٢٨. معاني القرآن، الأخفش الأوسط، سعيد بن مسعدة، تح: فائز فارس، ط ٢: الكويت ١٩٨١م.
٢٩. مغني اللبيب عن كتب الأعراب، جمال الدين ابن هشام الأنصاري، تحقيق مازن المبارك وزميله ط ٢: دار الفكر.
٣٠. المفصل في صنعة الإعراب، الزمخشري، تح: علي بو ملحوم ط ١: مكتبة الهلال - بيروت ١٩٩٣م.
٣١. المقتصد في شرح الإيضاح، عبدالقاهر الجرجاني، تح: كاظم بحر مرجان - ط: دار الرشيد - العراق ١٩٨٢م.
٣٢. المقتضب، المبرد، تح: محمد عبد الخالق عزيمة، ط: عالم الكتب، بيروت.
٣٣. من أسرار العربية، إبراهيم أنيس، ط: مطبعة البيان العربية، القاهرة.
٣٤. مناهج البحث في اللغة، د. تمام حسان، ط: مطبعة الرسالة، القاهرة ١٩٥٥م.
٣٥. النحو الوافي، عباس حسن، ط: ٣ دار المعارف ١٩٦٦م.
٣٦. همع الهوامع، جلال الدين السيوطي، تحقيق أحمد شمس الدين، ط ١: دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٨م.



الوقف وأثره في التأويل النحويّ عند أبي حيّان في البحر المحيط

أ. آيات إسماعيل الصالح(*)

لَمَّا كان المعنى النحويّ نسيجًا تتعاضد لتكوينه عناصر عديدة، فإنّ الوقوف على هذا المعنى والإمام به لا يكون إلاّ بتمييز كلّ ما من شأنه أن يرسم خطأً لتشكيله، أو يصيب سهماً في تحصيله. ويعدّ الوقف معطًى أدائيّاً مهمّاً في التحليل النحويّ الدلاليّ، إذ طالما أثر موضع الوقف في دلالة الآية القرآنيّة، وكثيراً ما اختلف الإعراب باختلاف وصل الآيات أو فصلها.

وستكون الدراسة في هذا البحث منصّبة على أثر تلك القرينة الصوتيّة في دفع النحاة إلى اللوذ بعباءة التأويل النحويّ، وتقدير كلام جديد يناسب المعنى ويراعي الوقف. وسيكون البحر المحيط لأبي حيّان الأندلسي^(١) ميدان هذه الدراسة.

(*) باحثة في اللغة العربيّة.

(١) أبو حيّان محمّد بن يوسف بن حيّان الأندلسي، إمام حافظ، شيخ العربيّة والأدب والقراءات، صاحب تفسير البحر المحيط، توفي بالقاهرة سنة ٧٤٥هـ. ينظر: الصفديّ، صلاح الدين خليل ابن ابيك، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ط ١، (لبنان، بيروت، دار إحياء التراث العربيّ، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م)، ١٧٥ / ٥ وما بعدها.

الوقف:

يقول ابن فارس (ت ٣٩٥هـ): «الواو والقاف والفاء أصل يدل على تمكّث في شيء... وحقى الشيباني (ت ٢١٣هـ): «كَلَّمْتُهُمْ ثُمَّ أَوْقَفْتُ عَنْهُمْ. أَي: سَكَّتْ. وَكَلَّ شَيْءٌ أَمْسَكَتْ^(٢) عَنْهُ فَإِنَّكَ تَقُولُ: أَوْقَفْتُ»^(٣). والوقف: مصدر: (وَقَفَ) متعدياً، ويُقال: وَقَفْتُ الدابة، وَوَقَفْتُ الكلمة وَقْفًا^(٤). وكأنّ هذه المعاني تتلخّص في الحبس والكفّ، كما نرى.

أمّا اصطلاحاً فقد وُجد لهذا المصطلح مكان عند النحويين منذ بداية وضع علم النحو، فمثلاً نجد سيبويه (ت ١٨٠هـ) يسمّي البناء على السكون وقفاً، هذا ما يُفهم من كلامه حين يقول: «وأما الفتح والكسر والضمّ والوقف فللأسماء غير المتمكّنة... والوقف نحو: مَنْ وَكَمَ وَقَطَّ وَإِذْ»^(٥).

(٢) ورد في كتاب الجيم للشيباني: «أَي: أَمْسَكَتْ. وَكَلَّ شَيْءٌ تَمَسَّكَ عَنْهُ تَقُولُ: أَوْقَفْتُ». ينظر: الشيباني، أبو عمرو، كتاب الجيم، تحقيق: عبد الكريم العزباوي، مراجعة: عبد الحميد حسن، د.ط، (مصر، القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م)، ٢٩٠ / ٣.

(٣) ابن فارس، أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، د.ط، (لبنان، بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م)، مادة (وقف)، ١٣٥ / ٦.

(٤) ينظر: الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، (طبعة مصوّرة عن طبعة بغداد)، مادة: (وقف)، ٢٢٣ / ٥.

(٥) سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط٣، (مصر، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م)، ١٥ / ١.

وتابعه في ذلك المبرّد في كتابه المقتضب (٢٨٥هـ)^(٦)، والسيرافيّ (٣٨٥هـ)^(٧)، والزجاج (٣١١هـ) إذ قال: «وقرأ حمزة: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمُكْرُ السَّيِّءُ﴾^(٨) [قرأها (السيئ) بسكون الهمزة]، على الوقف، وهذا عند النحويّين الحدّاق لحن، ولا يجوز...»^(٩).

ففي البداية، إذن، كان علماء النحو يستعملون مصطلح الوقف على أنّه من علامات البناء، غير أنّنا نجد في كتب النحو المتأخّرة تعريفاً أكثر دقّة للوقف، إذ قالوا: إنّ «قطع النطق عند إخراج آخر اللفظ»^(١٠). أو «قطع الكلمة عمّا بعدها»^(١١).

(٦) ينظر: المبرّد، أبو العباس محمّد بن يزيد، المقتضب، تحقيق: محمّد عبد الخالق عضيمة، د. ط، (مصر، القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، لجنة إحياء التراث الإسلاميّ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م)، ١٩/٣.

(٧) ينظر: السيرافيّ، أبو محمّد يوسف بن المرزبان، شرح أبيات سيبويه، تحقيق: محمّد الريح هاشم، ط ١، (لبنان، بيروت: دار الجليل، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م)، ٢/٢٦١.

(٨) فاطر: ٣١.

(٩) الزجاج، أبو إسحق إبراهيم بن السريّ، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، ط ١، (لبنان، بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م)، ٤/٢٧٥.

(١٠) ينظر: أبو حيّان، محمّد بن يوسف، ارتشاف الضرب من لسان العرب، تحقيق: رجب عثمان محمّد مراجعة: رمضان عبد التّوّاب، ط ١، (مصر، القاهرة: مطبعة المدنيّ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م) ٢/٧٩٨.

(١١) ابن الحاجب، جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر، الشافية في علم التصريف، تح: حسن أحمد العثمان، ط ١، (لبنان، بيروت: دار البشائر الإسلاميّة، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م)، ص ٦٣.

أمّا علماء الأداء والقراءات فنجد أنّهم قد اعتنوا عناية فائقة بالوقف، وأفردوا له المؤلفات، غير أنّنا لا نكاد نعثر في كتب المتقدمين منهم كابن الأنباري (ت ٣٢٨هـ)^(١٢) والنحاس (ت ٣٣٨هـ)^(١٣) والداني (ت ٤٤٤هـ)^(١٤) على تعريف لمصطلح الوقف، وإن كانوا قد ذكروا أقسام الوقف، وتبعوا مواضعه موضعاً موضعاً. إلى أن جاء ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) وحدّ الوقف في كتاب النشر في القراءات العشر بأنه: «قطع الصوت على الكلمة زمناً يتنفس فيه عادة بنية استئناف القراءة»^(١٥). فالقارئ لا بدّ أن يقف لانقطاع نفسه، فإن وقف مختاراً فعليه أن يتخير الوقف الحسن، ويحسن الابتداء، لما لذلك من أثر جيّ في المعنى.

وقد كان اهتمام النبي ﷺ^(١٦) وصحبه، رضوان الله عليهم^(١٧) بالوقف واضحاً منذ نزول الوحي، باعتباره قرينة صوتية أدائية تعين على استكناه المعنى، وتفسير

(١٢) وكتابه هو: إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عزّ وجلّ.

(١٣) وضع النحاس كتاباً في الوقف والابتداء سمّاه القطع والائتناف.

(١٤) مصنّف الداني هو: المكتفى في الوقف والابتداء.

(١٥) ابن الجزري، أبو الخير محمد بن محمد، النشر في القراءات العشر، تحقيق: محمد عليّ الضباع، د.ط، (لبنان، بيروت: دار الكتب العلميّة، د.ت)، ١/ ٢٤٠.

(١٦) أخبرت أمّ سلمة أنّ النبي ﷺ «كان يقطع قراءته آية آية» ينظر: ابن حنبل، أحمد بن محمد، المسند، شرحه وصنع فهارسه: حمزة أحمد الزين، ط ١، (مصر، القاهرة: دار الحديث، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م)، ١٨ / ٢٦٩، الحديث رقم: ٢٦٤٦٢.

(١٧) ينظر: باب من تعلّم من الصحابة في القطع والائتناف، النحاس، القطع والائتناف، النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل، القطع والائتناف، تحقيق: عبد الرحمن بن إبراهيم المطروقي، ط ١، (السعودية، الرياض: دار عالم الكتب، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م)، ص ١٤.

غموضه، وتَحَرُّرُ عن الوقوع في المشكلات^(١٨). فلَمَّا جاء أمر الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [الزمر: ٤] امثل المسلمون لهذا الندب. ورُوي عن سيدنا عليّ، كَرَّمَ اللهُ وجهه، قوله: «الترتيل تجويد الحروف ومعرفة الوقوف»^(١٩).

وفسر ابن عباس رضي الله عنه الآية بقوله: «بيِّنه تبيينًا»^(٢٠). وذكر بعضهم أن من التبيين «تفصيل الحروف، والوقف على ما تمَّ معناه منها»^(٢١). واشتهر اعتناء السلف بالوقف والابتداء حتى عُدَّ اعتناؤهم به متواترًا^(٢٢).

وإذا كان تجويد كتاب الله عزَّ وجلَّ يؤدِّي إلى كمال اللفظ وعذوبته، فإنَّ الوقف الصحيح يؤدِّي إلى الفهم الصحيح للمعنى، ممَّا يكشف عن جلاله ودقَّته. ولأهميَّة الوقف في إيضاح معاني الآيات القرآنيَّة، وتحقيق ما يريه القارئ من التلاوة قسَم العلماء الوقف إلى أنواع عدَّة، تفاوتت بين الوجوب والمنع، والاستحسان والقبح، ولم يتفقوا على عددها، فكان الوقف عند بعضهم نوعين، وعند الآخر ثلاثة، وربَّما جعله بعضهم أربعة أنواع، و زاد بعضهم الآخر على ذلك حتى وصلت أنواع الوقف عنده إلى ثمانية.

(١٨) ينظر: الزركشي، بدر الدين محمَّد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمَّد أبو الفضل إبراهيم، د.ط، (مصر، القاهرة: مكتبة دار التراث، د.تا)، ١/٢٣٩.

(١٩) ابن الجزريّ، النشر في القراءات العشر، ١/٢٢٥.

(٢٠) ينظر: ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمَّد بن إبراهيم، المصنَّف، تحقيق: حمد بن عبد الله الجمعة، ومحمَّد بن إبراهيم اللحيان، تقديم: سعد بن عبد الله آل حميد، ط ١، (الرياض، مكتبة الرشد: ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م)، ٣/٦٠٨، الحديث رقم: ٨٨٠٩.

(٢١) النحاس، القطع والائتناف، ص ١.

(٢٢) ينظر: ابن الجزريّ، النشر في القراءات العشر، ١/٢٢٥.

غير أن أكثر العلماء على أن الوقف أربعة أنواع، وهي^(٢٣):

- ١- التام المختار: وهو الذي لا يتعلّق بها بعده، فيحسن الوقف عليه والابتداء بها بعده.
- ٢- الكافي الجائز: وهو منقطع في اللفظ متعلّق في المعنى، فيحسن الوقف عليه والابتداء أيضًا بها بعده.
- ٣- الحسن المفهوم: وهو الذي يحسن الوقوف عليه، ولا يحسن الابتداء بها بعده، لتعلّقه به في اللفظ والمعنى.
- ٤- القبيح المتروك: وهو الذي لا يُفهم منه المراد.

وأياً كانت تقسيمات الوقف التي اعتمدها علماءنا الأوّل، فإنّ غايتهم ما كانت تدور إلّا في فلك المعنى القرآنيّ، وضرورة تحصيله صحيحاً خالصاً من كلّ لبس. وهذا ما لا يقدر عليه إلّا عالم جمع أطراف العلوم كافّة، فوظّفها في معرفة تمام الوقف الذي لا يخلّ بالمعنى، ولا يلبس التركيب. ورؤي عن ابن مجاهد قوله: «لا يقوم بالتمام إلّا نحويّ عالم بالقراءات، عالم بالتفسير، عالم بالقصص وتخليص بعضها من بعض، عالم باللغة التي نزل بها القرآن»^(٢٤). وقد تتبّع علماء الوقف والابتداء آيات الله عزّ وجلّ آية آية، ومحصّوا جمل القرآن العزيز جملة جملة، فبيّنوا ما يصلح الوقف عليه منها، وحدّدوا مواضع امتناع الوقف، وأكّدوا أهمية هذه القرينة الصوتيّة في توجيه المعنى والتأثير فيه. وكثيراً ما كان الحكم على موضع الوقف يعتمد على التوجيه النحويّ المستند إلى المعنى الذي يروونه صحيحاً.

(٢٣) ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ١/٣٥٠.

(٢٤) النحاس، القطع والائتناف، ص ١٨. وينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ١/٣٤٣.

ولم يقتصر جهدهم في هذا المجال على رصد مواضع الوقف في كتاب الله، بل تجاوز ذلك إلى «بيان ميدانيّ لأثر الوقف في المعنى في كلّ موضع، وهو عمل تطبيقيّ فريد، يتجاوز مرحلة تحليل المقال إلى التطبيق الكامل لأثر ظاهرة تنتمي إلى مستوى الأصوات في مستويات لغويّة أخرى (مستوى التركيب، ومستوى الدلالة)، ورصد قيمتها في تراكيب نصّ بكماله هو القرآن الكريم»^(٢٥).

وأبو حيّان (ت ٧٤٥هـ)، كأكثر النحاة والمفسرين، أدرك قيمة هذه الظاهرة في تحصيل المعنى الدلاليّ، فجعل لها أثرًا واضحًا في تحليله النحويّ عامّة، وفي التأويل منه بوجه خاصّ^(٢٦). ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿فَسَبَّصِرْ وَيَبَّصِرْ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾﴾ [القلم]، إذ يؤدّي اختلاف مواضع الوقف إلى اختلاف في توجيه المعنى، ممّا يستتبع تعدّدًا في إعادة بناء الأوجه النحويّة. إذ يتوقّف معنى الآية، وإعراب (بأيكم المفتون) على القول بالوصل أو الفصل. وقد تعدّدت أقوال النحاة في هذه الباء، فمنهم من رأى أنّها زائدة، ومنهم من وجد أنّها ليست كذلك. وتفصيل هذا أنّه إذا عدّ الكلام ههنا جملتين، ووقّف عند قوله عزّ من قائل:

(٢٥) حبّص، محمّد يوسف، أثر الوقف على الدلالة التركيبيّة، (مصر، القاهرة: دار الثقافة العربيّة، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م)، ص ١٩.

(٢٦) التأويل النحويّ هو «صرف الكلام عن ظاهره إلى ما يحتاج إلى تقدير وتدبّر» وذلك بوسائل منها: الحذف، والزيادة، والتقديم والتأخير، والتضمين. ينظر: عيد، محمّد، أصول النحو العربيّ في نظر النحاة ورأي ابن مضاء وعلم اللغة الحديث، ط ٤، (مصر، القاهرة: عالم الكتب، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م)، ص ١٥٥. والحموز، عبد الفتّاح أحمد، التأويل النحويّ في القرآن الكريم، ط ١، (السعوديّة، الرياض، مكتبة الرشد، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م)، ١ / ١٢٣ وما بعدها.

(ويبصرون)، كانت الباء زائدة. وقد زيدت في المبتدأ (أي)، كما زيدت في (حسبك) من قولهم: (بحسبك درهم)، أي: حسبك درهم^(٢٧). وكان قوله تعالى: (أيكم المفتون) استفهاماً «يراد به الترداد بين أمرين، ومعلوم نفى الحكم عن أحدهما، ويعينه الوجود، وهو المؤمن ليس بمفتون، ولا به فتون»^(٢٨).

أما إذا أُدِّيت الآيتان دونها فصل، فإنّ هذه الباء لا تؤوّل بالزيادة، وإنّما هي أصلية، متعلّقة بما قبلها، غير أنّها لا تحمل المعنى الأصلي للباء، الذي هو الإلصاق، وإنّما تؤوّل بجعلها للسببية، أو بحملها على معنى (في) الظرفية، وكلّ تأويل من هذه التأويلات يجرّ للآية معنى معيّنًا، ممّا يدفع النحويّ إلى تقدير تركيب يتواءم مع المعنى الذي فهمه. فإنّ جعلت الباء سببية، كان الكلام على حذف مضاف، والتقدير: بأيكم فتن المفتون؟ وهنا قد أقيم المضاف إليه مقام المضاف^(٢٩). وإن قرّر أنّها على معنى (في) الظرفية، ولهذا ما يؤيّده من القراءات القرآنية^(٣٠)، كان التقدير: «في أيّ فرقة وطائفة منكم المفتون؟»^(٣١).

(٢٧) أبو حيّان، محمّد بن يوسف، البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعليّ محمّد معوّض وآخرين، ط ١، (لبنان، بيروت، دار الكتب العلميّة، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م)، ٣٠٣/٨.

(٢٨) أبو حيّان، البحر المحيط، ٣٠٣/٨.

(٢٩) ينظر: أبو حيّان، البحر المحيط، ٣٠٣/٨.

(٣٠) قرأ ابن أبي عبلّة: (في أيكم). ينظر: الفراء، أبو زكريّا يحيى بن زياد، معاني القرآن، تحقيق: محمّد عليّ النجّار وأحمد يوسف نجاتي، ط ٣، (لبنان، بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م)، ١٧٣/٣.

(٣١) أبو حيّان، البحر المحيط، ٣٠٣/٨. وينظر: الفراء، معاني القرآن، ١٧٣/٣.

وكذلك فإنّ اختلاف الوقف يؤدّي إلى اختلاف الإعراب، ومن ثمّ توجيه دقّة المعنى بما يتناسب مع ذلك الإعراب، فمثلاً في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨] يختلف إعراب (ما) الثانية تبعاً لاختلاف مواضع الوقف في هذه الآية. فقد ذهب الزجاج (ت ٣١١هـ) والنحّاس إلى أنّ الوقف على قوله تعالى: (ويختار) وقف تامّ^(٣٢). وبناء على ذلك تكون (ما) نافية، ويكون المعنى: ليس لهم الخيرة، إنّما هي لله تعالى. وهذا ما رجّحه أبو حيّان^(٣٣).

وذهب الطبريّ (ت ٣١٠هـ) متابِعاً ابن عبّاس رضي الله عنه إلى أنّ (ما) اسم موصول بمعنى (الذي)، وجملة (كان لهم الخيرة) صلة الموصول، وقد حُذِفَ منها العائد، والتقدير: (ما كان لهم فيه الخيرة)^(٣٤). وعلى هذا الإعراب لا يوقف على (يختار)، وإنّما يكون الوقف على (ما كان لهم الخيرة)، والكلام متصل بعبئه ببعض. أمّا تأويل المعنى فهو: «ويختار من الرسل والشرائع ما كان خيرة للناس، كما لا يختارون هم ما ليس إليهم، ويفعلون ما لم يؤمروا به»^(٣٥).

وجوز ابن عطية (ت ٥٤٦هـ) أن تكون (كان) تامّة، و(ما) في محل نصب مفعول به. وعلى هذا الإعراب يوقف على (كان). أي: وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان.

(٣٢) ينظر: النحّاس، القطع والائتناف، ص ٥١٤.

(٣٣) ينظر: أبو حيّان، البحر المحيط، ٧/ ١٢٤.

(٣٤) الطبريّ، أبو جعفر محمّد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله بن

عبد المحسن التركيّ، ط ١، (مصر، القاهرة: دار هجر، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م)، ١٨/ ٢٩٩.

(٣٥) أبو حيّان، البحر المحيط، ٧/ ١٢٤.

ثم يستأنف الكلام. والمعنى: إنَّ «الله تعالى يختار كلَّ كائن، ولا يكون شيء إلاَّ بإذنه»^(٣٦).

ولأنَّ المعنى النحويِّ الدلاليَّ إنما ينشأ عن العلاقة بين وحدات التركيب، وما يحيط بالكلام من عوامل خارجيَّة، فإنَّه من النادر أن يتحكَّم في تحديد هذا المعنى وتوجيهه عنصر واحد من عناصر الدلالة، والوقف ما هو إلاَّ عنصر من العناصر التي توجَّه دلالة التركيب، أو تدفع إلى القول بالتأويل النحويِّ، وكثيراً ما نرى قرائن أخرى تشارك الوقف في التأثير في الدلالة التركيبيَّة، وتقدير الوجه المؤوَّل. ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] اختار بعض النحويِّين والقراء أن تؤوَّل جملة (يضلُّ به كثيراً) بمفرد يُعرب صفة لـ (مثل)، ويكون المعنى على هذا التأويل: «ماذا أراد الله بهذا مثلاً يفرق به الناس إلى ضلال وإلى هداية؟»^(٣٧) ويتبع ذلك أن يكون الكلام قد صدر من الذين كفروا، وهو استكمال لما سبق هذه الآية، ومتابع له، إذ قال الله تعالى في آية سابقة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢ - ٢٣]

(٣٦) ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق:

عبد السلام عبد الشافي محمد، ط ١، (لبنان، بيروت، دار الكتب العلميَّة، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م)،

٢٩٦/٤.

(٣٧) أبو حيَّان، البحر المحيط، ١ / ٢٧٠. وينظر: الفراء، معاني القرآن، ١ / ٢٣.

غير أن أبا حيان قد رفض هذا الاختيار الذي ورد من بعض النحاة حين لحظ حال الكفار الذين سألوا رسول الله ﷺ، ورسم في ذهنه صورة لموقفهم من هذا المثل الذي ضربه الله عز وجل، فرأى أن سؤالهم إنما كان سؤال استهزاء، وليس فيه اعتراف بأن هذا مثل (يضلّ به كثيراً ويهدي به كثيراً)^(٣٨). وبناء على هذا الفهم، وذاك التصوّر للمعنى يوقف على كلمة (مثلاً) وقفًا تامًّا، وقيل: كافيًا^(٣٩)، ثم يستأنف ليبيّن بهذا الوقف أن كلام الكافرين قد انتهى، وأن الجملة الجديدة «ابتداء إخبار من الله عز وجل جوابًا لهم»^(٤٠). فأبو حيان يرى أن تقدير التركيب على هذا القول، ومن ثمّ تحديد موضع الوقف، يتناسب مع سياق حال الكفار، وما خبره من صفاتهم التي عرفها من كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ.

ويتغيّر تركيب الآية ومن ثمّ معناها بتغيّر مكان الوقف الذي رآه ابن عطية، إذ جوّز أن يوقف على قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾، ليؤدّي الكلام على دفتين، الأولى جملة صدرت من الكفار، وهي في موضع صفة للمثل، وتنتهي بقوله عز وجل: كثيراً. والثانية من كلام الله تعالى وهي قوله: ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾، وتكون جملة مستأنفة^(٤١). ويرفض أبو حيان هذا الرأي معتمداً على جمال نظم الكلام، وعلى اعتقاده الراسخ بترفع كتاب الله عز وجل عن كلّ نظم ملتبس. فرأى صاحب

(٣٨) ينظر: أبو حيان، البحر المحيط، ١/ ٢٧٠.

(٣٩) ينظر: النحاس، القطع والائتناف، ص ٤٧.

(٤٠) أبو حيان، البحر المحيط، ١/ ٢٧٠. وينظر: الأشموني، أحمد بن محمد بن عبد الكريم، منار الهدى في بيان الوقف والابتداء، علق عليه: شريف أبو العلا العدويّ، ط ١، (لبنان،

بيروت: دار الكتب العلميّة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م)، ص ٩٠،

(٤١) ينظر: ابن عطية، المحرّر الوجيز، ١/ ١١٢.

المحرّر الوجيز يلبس التركيب بجعل بعض الكلام من الله سبحانه وبعضه الآخر من الكفار من غير ما دليل، وهذا ما ينزّه عنه كتاب الله جلّ ثناؤه^(٤٢).

وكذلك يتخذ الفقهاء من قرينة الوقف مطية يتوصلون بها إلى المعنى الفقهي، وكثيراً ما كانت، وحدها أو متضافرة مع غيرها، سبباً في اختلاف الأحكام الفقهية. كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ (١٠١) وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ (١٠٢) [النساء: ١٠١-١٠٢].

إذ يختلف الحكم الفقهي في هذه الآية بين جواز قصر صلاة السفر للآمن وعدم جواز ذلك، بناء على الاختلاف في الوصل والوقف، إذا ما تضافرت هذه القرينة الصوتية مع قرائن أخرى. فقد ذهب طائفة من الفقهاء والنحويين إلى أن إباحة القصر مشروطة بالخوف المذكور في الآية الكريمة^(٤٣). وذلك على اعتبار الكلام جملة واحدة، وأن قوله تعالى: (إن خفتهم) متعلق بقصر الصلاة. ويكون جواب الشرط محذوفاً، يمكن تقديره من سياق الآية السابق: إن خفتهم فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة. «والمشروط بالشيء عدماً إن عدم ذلك الشيء»^(٤٤).

(٤٢) ينظر: أبو حيان، البحر المحيط، ١/ ٢٧٠.

(٤٣) ينظر: ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله، أحكام القرآن، راجع أصوله وخرجه أحاديثه وعلق عليه: محمد عبد القادر عطا، ط ٣، (لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ/

٢٠٠٣م)، ١/ ٦١٧.

(٤٤) أبو حيان، البحر المحيط، ٣/ ٣٥٣.

فأصحاب هذا الرأي يعتمدون في تقرير هذا الحكم الفقهيّ على وصل الكلام بعضه ببعض، وعلى خصائص معنى باب من أبواب النحو، هو باب الشرط. إضافةً إلى استنادهم إلى أثرٍ ورَدَ عن عائشة، رضي الله عنها، إذ ذُكرَ أمّا كانت تقول في السفر: «أتمّوا صلاتكم. فقالوا: إنّ رسول الله ﷺ يصليّ في السفر ركعتين. فقالت: إنّ رسول الله ﷺ كان في حرب، وكان يخاف، هل تخافون أنتم؟»^(٤٥)

وذهب آخرون إلى أنّ الآية تضمّنت قضيتين وحكيمين، وأنّه يجوز للمسافر الآمن قصر صلاته^(٤٦)، وأنّ كلام الله تعالى مفصول إلى جملتين، تنتهي الأولى عند قوله: (من الصلاة). ثم يستأنف الكلام، ويبدأ الحديث عن فريضة أخرى، فقدّم الشرط. ويكون التقدير على هذا: وإن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا، وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة. والواو هاهنا زائدة، أمّا جواب الشرط فهو: (فلتقم طائفة منهم معك)، ويكون قوله عزّ وجلّ: (إنّ الكافرين كانوا لكم عدوّاً مبيناً) اعتراض^(٤٧). وقد استقى أصحاب هذا الرأي حجّتهم من أمور عدّة، منها، السنّة النبويّة، وأسباب نزول الآيات المرويّة عن الثقات، والاعتداد بمحذورات القول بالنسخ عند العلماء، فضلاً على اعتمادهم على مسألة الوقف والابتداء التي ذكرناها آنفاً.

(٤٥) الطبريّ، أبو جعفر محمّد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، حقّقه وعلّق حواشيه: محمود محمّد شاكر، راجعه وخرّج أحاديثه: أحمد محمّد شاكر، ط ٢، (مصر، القاهرة: مكتبة ابن تيمية)، (طبعة مصوّرة عن طبعة دار المعارف بمصر)، ١٢٩/٩.

(٤٦) الطحاويّ، أبو جعفر أحمد بن محمّد بن سلامة، أحكام القرآن، تحقيق: سعد الدين أونال، ط ١، (تركيا، إستانبول: مركز البحوث الإسلاميّة التابع لوقف الديانة التركيّ، ١٤١٦هـ/

إذ جاء في كتب السنّة أنّ صحابياً^(٤٨) قال لعمر بن الخطّاب رضي الله عنه: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا» فقد آمن الناس! فقال: عجبت ممّا عجبت منه فسألت رسول الله. فقال: صدقة تصدّق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته^(٤٩).

أمّا أسباب النزول فقد روى الطبريّ بسنده عن عليّ، كرم الله وجهه، أنّه قال: «سأل قوم من التجّار رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا: يا رسول الله، إنّنا نضرب في الأرض، فكيف نصلي؟ فأنزل الله: وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ»، ثمّ انقطع الوحي. فلما كان بعد ذلك بحول، غزا النبي صلى الله عليه وآله فصلّى الظهر، فقال المشركون: لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم، هلاّ شددتم عليهم؟ فقال قائل منهم: إنّ لهم أخرى مثلها في إثرها. فأنزل الله تبارك وتعالى بين الصلاتين: إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا (١٠١) وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكُمْ إلى قوله: إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا [النساء: ١٠١-١٠٢] فنزلت صلاة الخوف^(٥٠).

(٤٨) هو يعلى بن أميّة بن أبي عبيدة التميميّ المكيّ، صحابيّ، أسلم يوم الفتح وشهد الطائف وتبوك. ينظر: الذهبيّ، محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، أشرف على تحقيق الكتاب وخرّج أحاديثه: شعيب الأرنؤوط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي ومامون صاغر جي، ط٢، (لبنان، بيروت: مؤسّسة الرسالة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ٣/١٠٠-١٠١.

(٤٩) مسلم، أبو الحسين بن الحجاج بن مسلم، الجامع الصحيح، د.ط، (لبنان، بيروت، دار الفكر، د.ت)، ٢/١٤٣. و ينظر: الترمذيّ، سنن الترمذيّ، ٥/٢٤٣، الحديث رقم: ٣٠٣٤.
(٥٠) الطبريّ، جامع البيان، تحقيق: محمود محمد شاكر، ٩/١٢٦.

ورفض الفكر العقديّ لبعض النحاة والفقهاء القول بوصل الكلام بعضه ببعض، لأنّ ذلك يستوجب أن يكون جواز القصر مع الأمن مستفاداً من السنة، لحديث عمر رضي الله عنه. وهذا يلزم منه نسخ الكتاب بالسنة، وهو ما لا يجوز عندهم^(٥١). أمّا القول بالوقف والاستئناف فلا يجعلنا نقع في هذا المحذور. «ومتى استقام اللفظ، وتمّ المعنى من غير محذور النسخ، كان أولى»^(٥٢).

ويحاول أبو حيّان أن يجد رأياً توفيقياً، يجوّز الحكمين معاً، ومن ثمّ طريقتي أداء الكلام، وفي الوقت نفسه لا يقول بنسخ القرآن بالسنة، مستعيناً لذلك بالتأويل النحويّ، إذ رأى أنّه من الممكن حمل معنى أداة شرط (إن)، التي يكون ما بعدها مشكوكاً فيه، على معنى الأداة (إذا)، التي تفيد تحقّق وقوع ما بعدها، وكثيراً ما تتقارض هاتان الأداتان المعنى في كلام العرب. وعلى هذا يمكن أن يؤدّي الكلام على دفعة واحدة، أو على دفعتين، ويجوز قصر الصلاة في الخوف والأمن.

ويؤثر التأويل النحويّ، أيضاً، في أداء الكلام، وتعيين الموقوف عليه، فيختلف موضع الوقف باختلاف تقدير الكلام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَأَوْهَمَ نَصِيْبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٣٣] إذ إنّ شأن (كل) في الكلام العربيّ ألاّ تستعمل إلاّ مضافة، فإنّه إذا حُذِفَ ما تُضَافُ إليه، عُوِّضَ عنه بتنوين، وقدّر النحاة هذا المضاف بالنظر إلى السياق.

وفي هذه الآية الكريمة قال بعض النحاة: إنّ المضاف إليه المقدّر بعد (كل) هو (إنسان)، وهذا تقدير يناسب معنى كلمة (موالي)، التي رأى أبو حيّان أنه يحسن أن

(٥١) أبو حيّان، البحر المحيط، ٣/٣٥٣.

(٥٢) أبو حيّان، البحر المحيط، ٣/٣٥٣.

تفسر هنا بـ(الوارث)^(٥٣). وكون المحذوف المقدر هو (إنسان)، كما قيل، فإن هذا يحتمل تقديرات لأصل الجملة، ويتبع كل تقدير وفقاً يلائمه. فمن تأويلات النحاة لهذه الجملة: أن يكون الجارّ والمجرور: (لكلّ) متعلّقين بالفعل (جعلنا)، والضمير في (ترك) عائد على (كلّ) المضاف لـ(إنسان). والمعنى: «وجعلنا لكلّ إنسان وارثاً ممّا ترك»^(٥٤). وعلى هذا يكون الكلام جملتين، الجملة الأولى قد تمت عند قوله: (مّمّا ترك). وما بعد ذلك جملة جديدة، يكون فيها (الوالدان) خبراً لمبتدأ محذوف، أو فاعلاً لفعل مقدر، تقديره: (يرث).

وقد يكون تقدير الكلام: «ولكلّ قوم جعلناهم موالى نصيب ممّا ترك والداهم وأقربوهم»^(٥٥). وعلى هذا التقدير تكون جملة (جعلنا) في تأويل مفرد يُعرب صفة لـ(كلّ)، و«هم» مفعول به للفعل (جعلنا)، وتُعرب (موالي) حالاً، و(الوالدان) فاعل للفعل (ترك). ويتعلّق (لكلّ) بخبر محذوف لمبتدأ محذوف، تقديره (نصيب). وبناءً على قول من رضي ذلك تأويلاً للجملة، يكون الوقف على (الأقربون)، والكلام إذ ذاك جملة واحدة، لا جملتان.

وكثيراً ما رفض أبو حيّان مواضع للوقف حدّدها النحاة، أو قرأ بها القراء، إذا ما أدّت إلى تأويل يخلّ بالمعنى، أو بالصناعة النحويّة، أو بكليهما معاً. ففي قوله تعالى: ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّكَ إِن كُنْتُ فَلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦] أجاز بعضهم أن يكون الجارّ والمجرور (بحقّ) متعلّقين بالفعل (علمته)، ويتبع هذا أن يتمّ

(٥٣) ينظر: أبو حيّان، البحر المحيط، ٢٤٧/٣.

(٥٤) أبو حيّان، البحر المحيط، ٢٤٧/٣. و السمين الحلبيّ، الدرّ المصون، ٦٦٧/٣.

(٥٥) أبو حيّان، البحر المحيط، ٢٤٧/٣.

الوقف في الآية على (لي). ولا يجوز أبو حيّان ذلك الوقف لما يؤدّي إليه من إخلال في نظم الكلام، والصناعة النحويّة، فضلاً عن مخالفته لسنة واردة عن النبي ﷺ^(٥٦). إذ إنّ الكلام بهذا الوقف يصير إلى التقديم والتأخير، «ولا يُصار إلى التقديم والتأخير إلا لمعنى يقتضي ذلك، أو بتوقيف، أو فيما لا يمكن فيه إلا ذلك»^(٥٧). وهذا ما يؤكّده مراراً أبو حيّان الظاهريّ.

هذا من جهة النظم، أمّا من جهة الصناعة النحويّة فإنّ هذا الوقف غير جائز نحويّاً، لأنّه من المعروف في كتب النحاة ألا يتقدّم على الشرط شيء من معمولات فعل الشرط، ولا من معمولات جوابه. ثمّ إنّ الوقف على (بحقّ) مروّي عن رسول الله ﷺ لذا يجب اتّباعه^(٥٨).

ومن الوقوف التي رأى أبو حيّان أنّها تضعف الصناعة النحويّة فلا يُصار إليها، ووقف أبي عمرو (ت ١٥٤هـ) والكسائيّ (ت ١٨٩هـ) على (فما)، من قوله عزّ من قائل: ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] إذ رفض هذا الوقف، ورأى أنّه ممنوع لأنّ فيه قطعاً للمبتدأ عن الخبر^(٥٩). ولما وقف الباقون على

(٥٦) ينظر: أبو حيّان، البحر المحيط، ٤/٦٣. والأشمونيّ، منار الهدى في بيان الوقف والابتداء، ص ١٢٦.

(٥٧) أبو حيّان، البحر المحيط، ٤/٦٣.

(٥٨) فقد صحّ عن عمرو بن دينار، عن طاوس، عن أبي هريرة، قال: يُلقي عيسى حجّته، ولقاه الله في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال أبو هريرة، عن النبي ﷺ، فلّقه الله: ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾ الآية كلّها. ينظر: الترمذيّ، سنن الترمذيّ، ص ٦٨٦. والنحاس، القطع والانتاف، ص ٢١٧.

(٥٩) ينظر: أبو حيّان، البحر المحيط: ٣/٣١٢.

اللام (فمال) اتباعاً لرسم المصحف، وجد أيضاً أنّ وقفهم هذا لا ينبغي أن يكون، لأنّ فيه قطعاً بين الجارّ والمجرور^(٦٠).

وهكذا فقد اتّضح من هذا البحث ما لطريقة أداء الكلام، ومواضع فصله ووصله من أثر في التأويل النحويّ عند أبي حيّان وغيره من النحاة والمفسرين، إذ يتغيّر المعنى الدلاليّ بتغيّر موضع الوقف، ويختلف الإعراب باختلاف أداء الكلام، منفصلاً أو متصلاً، فتتوجّه دفعة المعنى تبعاً لقولهم بحذف جزء من الكلام، أو حمل بعضه على بعض، أو غير ذلك من أساليب التأويل النحويّ التي جاءت مراعية لهذه القرينة الصوتية.

مَصَاتِيرُ وَمُرَاجِعُ الْبَحْثِ

- ١- الأشمونيّ، أحمد بن محمّد بن عبد الكريم، منار الهدى في بيان الوقف والابتداء، علّق عليه: شريف أبو العلا العدويّ، ط ١، (لبنان، بيروت: دار الكتب العلميّة، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م).
- ٢- ابن الجزريّ، أبو الخير محمّد بن محمّد، النشر في القراءات العشر، تحقيق: محمّد عليّ الضبّاع، د.ط، (لبنان، بيروت: دار الكتب العلميّة، د.ت).
- ٣- حبّاص، محمّد يوسف، أثر الوقف على الدلالة التركيبيّة، (القاهرة، دار الثقافة العربيّة، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م).
- ٤- الحموز، عبد الفتّاح أحمد، التأويل النحويّ في القرآن الكريم، ط ١، (السعودية، الرياض، مكتبة الرشد، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م).

(٦٠) ينظر: أبو حيّان، البحر المحيط: ٣/٣١٢. والفراء، معاني القرآن، ١/٢٧٨. وابن عطية، المحرّر الوجيز، ٢/٨١.

- ٥- ابن حنبل، أحمد بن محمد، المسند، شرح وصنع فهارس هذا الجزء: حمزة أحمد الزين، ط ١، (مصر، القاهرة: دار الحديث، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م).
- ٦- أبو حيّان، محمد بن يوسف، ارتشاف الضرب من لسان العرب، تحقيق: رجب عثمان محمد، مراجعة: رمضان عبد التّوّاب، ط ١، (مصر، القاهرة: مطبعة المدني، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م).
- ٧- أبو حيّان، محمد بن يوسف، البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعليّ محمد معوّض وآخرين، ط ١، (لبنان، بيروت، دار الكتب العلميّة، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م).
- ٨- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، د.ط، (مصر، القاهرة: مكتبة دار التراث، د.تا).
- ٩- سيوييه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط ٣، (مصر، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م).
- ١٠- الشيبانيّ، أبو عمرو، كتاب الجيم، تحقيق: عبد الكريم العزباويّ، مراجعة: عبد الحميد حسن، د.ط، (مصر، القاهرة: الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميريّة، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م).
- ١١- ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم، المصنّف، تحقيق: حمد بن عبد الله الجمعة، ومحمد بن إبراهيم اللحيان، تقديم: سعد بن عبد الله آل حميد، ط ١، (الرياض، مكتبة الرشد: ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م).
- ١٢- ابن العربيّ، أبو بكر محمد بن عبد الله، أحكام القرآن، راجع أصوله وخرّج أحاديثه وعلّق عليه: محمد عبد القادر عطا، ط ٣، (لبنان، بيروت، دار الكتب العلميّة، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م).
- ١٣- ابن عطية، أبو محمد عبد الحقّ بن غالب، المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط ١، (لبنان، بيروت، دار الكتب العلميّة، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م).
- ١٤- عيد، محمد، أصول النحو العربيّ في نظر النحاة ورأي ابن مضاء وعلم اللغة الحديث، ط ٤، (مصر، القاهرة: عالم الكتب، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م).
- ١٥- ابن فارس، أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، د.ط، (دار الفكر، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م).

- ١٦- الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد، معاني القرآن، تحقيق: محمد عليّ النجار و أحمد يوسف نجاتي، ط٣، (لبنان، بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م).
- ١٧- فراج، محمد خليل نصر الله، الوقف ووظائفه عند النحويين والفراء، (حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، الحولية: ٢١، الرسالة: ١٥٩، ١٤٢١-١٤٢٢هـ / ٢٠٠٠-٢٠٠١م).
- ١٨- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، (طبعة مصوّرة عن طبعة بغداد).
- ١٩- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، حققه وعلّق حواشيه: محمود محمد شاكر، راجعه وخرّج أحاديثه: أحمد محمد شاكر، ط٢، (مصر، القاهرة: مكتبة ابن تيمية)، (طبعة مصوّرة عن طبعة دار المعارف بمصر).
- ٢٠- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١، (مصر، القاهرة: دار هجر، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م).
- ٢١- الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة، أحكام القرآن، تحقيق: سعد الدين أونال، ط١، (تركيا، استانبول: مركز البحوث الإسلامية التابع لوقف الديانة التركي، مج١: ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م - مج٢: ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م).
- ٢٢- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، د.ط، (مصر، القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م).
- ٢٣- مسلم، أبو الحسين بن الحجاج بن مسلم، الجامع الصحيح، د.ط، (لبنان، بيروت، دار الفكر، د.ت).
- ٢٤- النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل، القطع والائتناف، تحقيق: عبد الرحمن ابن إبراهيم المطرودي، ط١، (السعودية، الرياض: دار عالم الكتب، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م).

المقالات والآراء

عَبْرَ

الدكتور مكّي الحسني (*)

مما جاء في معاجم اللغة:

عَبَرَ النهرَ عَبْرًا وَعُبُورًا: قطعهُ من عَبْرِهِ إلى عَبْرِهِ، أي من شاطئه إلى شاطئه.

عَبَرَ الطريقَ: قطعهُ من جانب إلى جانب.

عَبَرَ السبيلَ: شَقَّها، وهو عابر سبيل.

عَبَرَ فلانٌ يَعْبُرُ عَبْرًا: جرت دمعته.

عَبَرَ الرؤيا عَبْرًا وعِبارة: فسرّها.

• شاع في اللغة العصرية شيوغًا واسعًا استعمال التركيب (عَبْرَ كذا) بنصب

المصدر (عَبْرَ) على الظرفية المكانية! ومن هذه الاستعمالات ما هو مقبول، ومنها ما

هو غير مقبول كما سنرى.

وليس من النادر في لغتنا إيقاع كلمات موقع الظرفية المكانية المختصة ونصّبها

على الظرفية مثل (طَيَّ، ضَمِنَ، باطنَ، عَبْرَ)، مع أن ظروف المكان التي تُنصب هي

الظروف المبهمة مثل (أمام، وراء، يمين، يسار، فوق، تحت... جانب، مكان،

ناحية...). لكن النحاة أجازوا نصبَ عددٍ من الظروف المكانية المختصة - على

الاتساع - سواء أكانت الأسماء مصادر أم كُنَّ غير مصادر.

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق، وأمينه.

• وقد نظر مجمع القاهرة في هذه المسألة^(١) فقال: إن التعبير (سار عَبْرَ البحار) صحيح على الحقيقة، والتعبير (كان النصر حليف العرب في معاركهم عَبْرَ التاريخ) صحيح على المجاز بتشبيه زمن التاريخ بالمسافة البعيدة التي يقطعها المسافر. أما لفظ (عَبْرَ) فهما مصدر يُعرب حالاً على تأويله باسم الفاعل. ثم عاد مجمع القاهرة إلى النظر في بعض مشتقات مادة (ع ب ر)^(٢) وذكر أن إقامة المصدر مقام اسم الفاعل ليست بمستحدثة، ففي التنزيل العزيز:

﴿ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَا تَيْنَكَ سَعِيًّا وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٠) أي يَأْتِينِكَ مُسْرَعَاتٍ . وفيه أيضاً:

﴿وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

(الأعراف: ٥٦) أي ادعوه خائفين من عذابه وراجين رحمته.

• «عَبْرَ» مقابل **through**؟

لكلمة through الإنكليزية معانٍ كثيرة، منها:

بسبب، بواسطة، بفضل، على يد (فلان)، إلى نهاية (كذا)، وتأتي أحياناً بمعنى

المصدر (عَبْرَ).

جاء في معجم أكسفورد: The River Thames flows through London

أي: يعبر / يجتاز نهر التيمز مدينة لندن، أو:

يجري نهر التيمز عابراً لندن.

(١) كتاب الألفاظ والأساليب، الجزء الأول، ص ٢٠٠٤، صدر سنة ١٩٧٧.

(٢) كتاب الألفاظ والأساليب، الجزء الثاني، ص ٢٠٥، صدر سنة ٢٠١٠.

فإذا وضعنا المصدر (عَبْر) مكان اسم الفاعل صارت العبارة:

«يجري نهر التيمز عَبْرَ لندن»، وهذه ترجمة مقبولة^(٣).

ولكن إذا صحَّ هنا ترجمة through بـ (عَبْر) لوصف عبور النهر للمدينة، فهذا لا يعني أن تُستعمل (عبر) مقابل through حيثما وردت الكلمة الإنكليزية في النصوص المراد ترجمتها، دون اكتراث للسياق الذي وردت فيه، ولولم تكن ثمة علاقة بالعبور الحقيقي أو المجازي!

ولمَّا كان معظم المشتغلين بالترجمة في الصحافة وغيرها يحفظون اللَّفْظَ الأجنبي مقابلاً عربيّاً واحداً [لكي لا يُتعبوا أنفسهم بالبحث في المعجم عن المعنى المناسب للسياق] انتشر استعمال (عبر) غيرُ السليم انتشاراً مُخيفاً، مُشوِّهاً لُغتنا الجميلة؛ ذلك أن أغلب القُراء «يلتقطون» الكلمات والتراكيب الجديدة عليهم، ويستعملونها حين يكتبون، مقلِّدين! ظناً منهم أنهم «يسايرون» العصر، ويهاشون سنَّة التطور... ولذا شاع استعمال كلمات كثيرة في غير ما وُضعت له، مثل:

عَبْر، الشفافية، من خلال، تَمَعَّن، ناهيك....

وقد عاجلتُ في كتابي (نحو إتقان الكتابة العلمية باللغة العربية) الكلمات

المذكورة وغيرها، باستثناء الأولى التي أتحدث عنها الآن.

(٣) عابراً: حال صاحبها النهر؛ و (عبر لندن) حال أيضاً، إذ قد تأتي الحال بلفظ المعرف بالإضافة،

نحو: اجتهد وحدك!

- صادفتُ في أثناء مطالعتي لكتاباتٍ معاصرة، عباراتٍ كثيرةً استعمل في بعضها (عبر) استعمالاً مقبولاً على الحقيقة، أو على المجاز، نحو:
 - ١- ... ها هي فرنسا، منارة العالم الثقافية، تترنح أمام الإعصار الثقافي الذي يهبُّ عليها عبر الأطلسي.
 - ٢- ... ويغادرُ الجهازُ جزءً صغيراً من هذه الفوتونات عبر المراة نصفِ الشفافة على هيئة شعاع ليزري.
 - ٣- هذا المفعول هو تفاعلٌ بين موجة ضوئية وأخرى صوتية تمرّان عبر مادة بعينها، يؤدي إلى حرف أو تعديل الموجة الضوئية.
 - ٤- حقق الحاسوب خلال نصف قرن - عبر رحلة مثيرة من التطور العلمي - التّفاني الذي لم يسبق له مثيل - درجةً عاليةً من النضج مكّنته من..
 - ٥- ... وقد جرى استعمال هذه الكلمة (ترجمة) - عبر الزمن - بمعانٍ جديدة، فأصبحت تعني من يكتب سيرة شخصٍ أو أشخاصٍ...
- ولكن صادفتُ أيضاً عباراتٍ كثيرةً، جاءت فيها كلمة (عبر) في غير محلّها الصحيح! فأوردتُ بعضها هنا، ووضعتُ بين قوسين، بعد كلمة عبر، بديلها الجيد الذي كان ينبغي استعماله:
 - ١- يمكن الحفاظ على أكثر من نسخة واحدة عبر (ب) إعادة نسخ معطياتها.
 - ٢- ... وذلك عبر (ب) أخذ متوسط جميع القيم.
 - ٣- ... تعالج التدخلات عبر (ب) إضافة سبب مباشر إلى متغير الإنذار.
 - ٤- ... فيكتشف الشاعرُ مشهد القوة عبر (بأن يقول) الشعر.

- ٥- ... عبر (بسبب) الشيخوخة...
- ٦- يتصل الشعر بالوظيفة عبر محاولة (فيُحاول) الشاعر رَسَمَ...
- ٧- ... التنسيق بين الإعلام والاتصالات عبر (باستعمال) الوسائط المتعددة...
- ٨- يوزع الهواء البارد في المبنى عبر (ب) مجموعة من المراوح.
- ٩- تُنقل البيانات عبر (ب / بطريق) الروابط اللاسلكية.
- ١٠- إن عدد غير المتحقين فعلياً بالمدرسة عبر (بسبب) عدم التسجيل فيها يساوي...
- ١١- ... فاتصل به عبر (ب) الهاتف الخَلَوِيّ.
- ١٢- يحقق الشاعر طموحه عبر (بفضل) هذا الانتفاء!
- ١٣- ... وعبر (من خلال) الجدل الدائم تتجلى استجابة الشاعر.
- ١٤- ... وعبر (ب) العصبية يلتحم الشاعر الجاهلي...
- ١٥- ... للتخفيف من الخطر عبر (ب) مراقبة تغيرات تركيز بعض العناصر الكيميائية في المياه الجوفية.
- ١٦- ... ذلك الزخم المعرفي الذي امتد صُعُدًا عبر (على أجنحة) الفتوحات الإسلامية.
- ١٧- ينتقل الضجيج والاهتزاز عبر (ب) موجاتٍ جَبِيَّة.
- ١٨- تتجرع الذاتُ الألم عبر (نتيجة) الإحساس بالمصير الجماعي.
- ١٩- ... وذلك عبر (ب) التعاون مع وزارة التربية!
- ٢٠- تَحْمَلُ الشاعرُ المسؤولية عبر (من طريق) الكلمة، الشُّعر!

- ٢١- تخفيف الضغط السكاني الداخلي عبر (وذلك ب) دعم اليابانيين لإيجاد فرص عملٍ لهم في الخارج.
- ٢٢- نلاحظ تعارضَ الممارسات مع الخطاب عبر (وذلك بسنّ) القوانين الاستثنائية والممارسات التي تستعير وسائلها من النظم الدكتاتورية.
- ٢٣- ... اعتلال صحة عشرات الآلاف من اليابانيين عبر (في) أجيالٍ متعاقبة نظرًا للتخلف التكنولوجي آنذاك (سنة ١٩٤٥).
- ٢٤- ... التأهيل التربوي للمدرسين عبر (بالاستفادة من / بواسطة) التعليم الشبكي بالتعاون مع الجامعة الافتراضية.



مقدمات الكُتب:

من خبيء فوائدها ومكنون نفائسها

أ. بشار بكور(*)

قديمًا قالوا: في الزوايا خبايا، وهذا الكلام أصدق ما يكون وأجلى ما يبدو في ديباجات الكتب ومقدماتها، إذ فيها من الكنوز المخبوءة، والفوائد المكنونة ما لا يوجد ربا في الكتاب نفسه. ولعل كثيرًا من القراء يمرون بمقدمة الكتاب مرور الكرام يظنون أن الأجدى والأولى هو القفز عنها إلى بداية الكتاب إعمالًا للعقل بما هو أهم، وصرافًا للوقت بما هو أحق. وهذا من الخطأ الذي ينبغي الحيد عنه، فالمقدمة إن هي إلا بوابة الكتاب ومفتاحه، فهي - من وجه - أشبه ما تكون بالدليل المرافق لجهاز ما اشتريته، فأنت لست بغنى عن قراءة هذا الدليل والاطلاع على ما فيه من تنبيهات ومعلومات تضعك على طريق واضحة قبل استعمال الجهاز. وكان بعض أساتذتي يقول ناصحًا: إذا اشتريت كتابًا ولم يكن من المتاح أن تقرأه عن قريب فلا تضعه من يدك قبل أن تقرأ فيه شيئين: المقدمة وفهرس الموضوعات، فكلاهما يقدم فكرة واضحة وتصورًا دقيقًا لما عليه الكتاب.

تسعى هذه المقالة إلى عرض بعض الفوائد المنشورة المستقاة من مقدمات الكتب، يسبقها حديثٌ مختصر عن الخصائص العامة للمقدمة، ونهاذجٌ لمقدمات نفيسة من علوم عدة.

(*) باحث في الأدب والتراث من سورية.

خصائص المقدمة

هناك سماتٌ عامة تشترك في كلها أو بعضها جميعُ المقدمات، خصوصاً التراثية

منها، وهي:

- تبيانُ سببِ تأليفِ الكتابِ والدافعِ إليه.

- شرطُ المؤلفِ الذي التزم به في الكتاب، وقد يكون هذا الشرطُ عامًّا أو

خاصًّا، كليًّا أو جزئيًّا، فالصَّفدي مثلاً في كتابه «الوافي بالوفيات» التزم أن يعمّم

الترجمين فترجم للصحابة والخلفاء والوزراء والأمراء والقضاة والعلماء على

اختلاف تخصصاتهم، على حين نجد غيره اختار أن يخصص كتابه في ترجمة الفقهاء

أو القراء أو المحدثين أو الخلفاء... إلخ.

- المنهجُ المتَّبَع في ترتيب مادة الكتاب. ففي المعاجم اللغوية ترتب المادة-في

الأعمّ الأغلب- على أوائل الحروف أو أواخرها، وفي كتب التراجم على الترتيب

الألفبائي أو السنين، وفي الكتب الفقهية على الموضوعات، وهكذا..

- التنصيصُ على ذكر مصادر المؤلف جميعها أو بعضها، كما فعل البغدادي في

«خزانة الأدب»، والزبيدي في «تاج العروس».

- قد تكون المقدمة قصيرةً جداً، وهذا يصدق على كثرةٍ كاثرة من المقدمات، أو

طويلةً جداً حتى إنها تصلح أن تكون كتاباً مستقلاً قائماً بنفسه، مثل مقدمة ابن

خلدون، ومقدمة فتح الباري....

- أحياناً-وربما كثيراً- كان المؤلف يكتب المقدمة قبل البدء بالكتاب. ولعله

يعد القارئ فيها أن يتحدث في كتابه عن موضوع كذا أو موضوع كذا، فإذا ما فتننا

في طوايا الكتاب لم نجد ما وعد به، نسياناً منه، إذ ربما طال العهد بين كتابته للمقدمة وفراغه من الكتاب.

ولا ريب أن المقدمة الحديثة أو المعاصرة فيها الكثير من الخصائص السابقة، لكنها تختلف عن المقدمة التراثية بأنها تكتب عادةً بعد الفراغ من الكتاب، حيث تتكون لدى الباحث رؤيةً كاملة ودقيقة وواضحة لمحتويات كتابه، وللطريقة العلمية التي سلكها وهو يجمع المعلومات ويصنفها. وفرق آخر تمتاز به المقدمة الحديثة، وهو انقسامها لثلاثة أقسام:

١ - مقدمة يكتبها شخص آخر غير المؤلف Foreword يقرظ فيها العمل ويوضح مزاياه والجديد الذي أضافه على أمثاله من الأعمال السابقة من تصحيح أو استدراك... إلخ. وينبغي أن يكون كاتب هذا التقريظ خبيراً بالموضوع الذي يقرظه أو يقدم له.

٢ - التمهيد Introduction. يتحدث فيه المؤلف عن محتويات الكتاب والموضوعات التي تطرق إليها، مبيّناً الطريقة العلمية التي اتبعها في جمع المعلومات وترتيبها.

٣ - المقدمة Preface. يتحدث فيها المؤلف عن الظروف المحيطة بالكتاب، مثل بيان الأسباب التي قادت به إلى كتابة هذا البحث، والأماكن المختلفة التي شهدت تأليفه، فالمؤلف قد يضطر إلى الانتقال إلى أماكن متعددة لجمع مادة الكتاب، وقد يصادف مشكلاتٍ ومعوقاتٍ وما أشبهها. وكذلك يذكر الكاتب الأشخاص الذين كانوا مصدر إلهام له أو كانت منهم مساعدة بوجه من الوجوه. ويذكر أيضاً خبرته وباعه الطويل في المجال الذي يكتب فيه، كأن تكون له مؤلفات سابقة فيه، أو دروسٌ ومحاضراتٍ حوله....

مقدمات نفيسة

- مقدمة كتاب «إعلاء السنن» لظفر أحمد العثماني التهانوي، المسماة «قواعد في علوم الحديث». وهذه المقدمة بلغت الغاية - بل ربما أوفت عليها - في النفاثة والتحقيق العلمي الرصين في علم مصطلح الحديث. ولقدرها الجليل ومقامها الباسق حققها العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله، في طبعة مستقلة، وحلاها بكثير من الفوائد والفوائد، فغدت بحق درة من الدرر.

- مقدمة «تاج العروس» للمرئضى الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ). فيها عشرة مباحث مهمة تتصل باللغة وسعتها، وكونها توقيفية أو اصطلاحية، وباللغويين ومراتبهم، وآدابهم.

- مقدمة «خزانة الأدب ولبُّ لباب لسان العرب» لعبد القادر بن عمر البغدادي (ت ١٠٩٣هـ). اشتملت على ثلاث قضايا: الكلام الذي يصح الاستشهاد به في اللغة والنحو والصرف (والاختلاف حول الاحتجاج بالحديث الشريف)؛ والمصادر الأدبية واللغوية والنحوية التي اعتمد عليها البغدادي في الخزانة؛ وترجمة الرضي الأسترابادي، صاحب الكافية.

- مقدمة «صحيح مسلم» (ت ٢٦١هـ). أودع فيها المؤلف رحمه الله معلومات مهمة في مصطلح الحديث وغيره.

- مقدمة «طبقات الشافعية الكبرى» لتاج الدين السبكي (ت ٧٧١هـ). وهي مقدمة ضافية تدنو من أربعئة صحيفة، فيها جمٌّ من الفوائد في العلوم الشرعية والعربية من فقه وعقيدة وحديث وأدب وشعر. فمن الموضوعات التي تطرق إليها السبكي في المقدمة: الإمامة السياسية، وأحاديث فضل قريش وعلمائها، ومكانة

الشافعي ونسبه، والتوسع في حقيقة الإيمان وأركانِه والمذاهب المتباينة حوله، والفرق بين الإيمان والإسلام، وجواز إنشاد الشعر، والحديث عن حادثة ظهور التتار.

- مقدّمة «فتح الباري» لابن حَجَر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)، المسماة «هدى الساري مقدّمة فتح الباري» مطبوعة في مجلد خاص، يبلغ خمسمئة صحيفة. تحتوي المقدّمة على فوائد شتى ذات صلة بصحيح البخاري.

- مقدّمة «فتح المُلهم بشرح صحيح الإمام مسلم» لِشَبِير أحمد العثماني (ت ١٣٦٩ هـ). أودع المؤلفُ في مقدمته البالغة ٣٠٠ صحيفةً العديد من الفوائد والتحقيقات في الحديث ومصطلحه.

- مقدّمة «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» لحاجي خليفة (ت ١٠٦٧ هـ). أودع المؤلفُ فيها كثرةً من الموضوعات المتصلة بالعلم وماهيته، والغاية منه، ومسائل العلوم وتقسيماتها، ومراتب العلم، وأقسام المؤلفين والمؤلّفات، وعواقب العلم، وشرائط تحصيله.

- مقدّمة «الوافي بالوفيات» للخليل بن أيك الصفدي (ت ٧٦٤ هـ). ضمّن المؤلفُ مقدمته فصولاً عديدة، منها فصل يتحدث عن بداية التأريخ عند العرب وأقدم التواريخ التي بأيدي الناس، وفصل ثانٍ حول كيفية كتابة التاريخ، وثالث يفصّل البيان عن العلم والكنية واللقب، وكيفية ترتيبها عند ذكر الشخص المترجم، مع كيفية ترتيب النسبة إلى البلد أو المذهب أو العلم أو الصناعة، ورابع يتحدث عن بعض قواعد الإملاء لحاجة المؤرخ إليها، وخامس عن أهمية معرفة تاريخ وقوع حادثة أو خبر ما، وسادس حول أدب المؤرخ وشروطه، وسابع فيه عناوينُ كتبٍ عن تاريخ المشرق والمغرب وتاريخ الخلفاء والملوك والوزراء والقضاة والقراء والعلماء والشعراء... إلخ.

فوائد مثورة من مقدمات الكتب

الألفاظ المكشوفة

ينتقد ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) في مقدمة كتابه «عيون الأخبار» المتشددين والمتزمّنين الذين ربما كان منهم اعتراض على إيراده بعض الألفاظ المكشوفة وأسماء الأعضاء الجنسية، يقول: «وسيتتهي بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة وما روي عن الأشراف والأئمة فيهما، فإذا مرّ بك أيها المتزمّت حديث تستخفه أو تستحسنه أو تعجب منه أو تضحك له، فاعرف المذهب فيه وما أردنا به. واعلم أنّك إن كنت مستغنياً عنه بتنسكك فإن غيرك ممن يترخص فيما تشددت فيه محتاج إليه. وإنّ الكتاب لم يعمل لك دون غيرك فيهيأ على ظاهر محبتك. ولو وقع فيه توقي المتزمّنين لذهب شطر بهائه وشطر مائه، ولأعرض عنه من أحببنا أن يقبل إليه معك.

وإنما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الأكلين: وإذا مرّ بك حديث فيه إفصاح بذكر عورة أو فرج أو وصف فاحشة فلا يملنك الخشوع أو التخاشع على أن تصعّر خدك، وتعرض بوجهك فإن أسماء الأعضاء لا تؤثم، وإنما المأثم في شتم الأعراض، وقول الزور والكذب، وأكل لحوم الناس بالغيب. قال رسول الله ﷺ: «من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا». وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لبديل بن ورقاء - حين قال للنبي ﷺ: إن هؤلاء لو قد مسهم حز السلاح لأسلموك - : «أعضض بيظر اللات، نحن نسلمه!». وقال علي بن أبي طالب صلوات الله عليه: «من يطل أير

أبيه ينتطق به... وليس هذا من شكل ما تراه في شعر جرير والفرزدق، لأن ذلك تعبيرٌ وابتهار في الأخوات والأمهات، وقذفٌ للمحصنات الغافلات. فتفهم الأمرين وأفرق بين الجنسين، ولم أترخص لك في إرسال اللسان بالرفث على أن تجعله هجيراً^(١) على كل حال، وديدتك في كل مقال، بل الترخص مني فيه عند حكاية تحكيها أو رواية ترويها تنقصها الكناية، ويذهب بحلاوتها التعريض. وأحبت أن تجري في القليل من هذا على عادة السلف الصالح في إرسال النفس على السجية والرغبة بها عن لئسة الرياء والتصنع. ولا تستشعر أن القوم قارفوا وتنزّهت، وتلموا أديانهم وتورّعت^(٢).

الإيجاز في كُتب المتقدمين

نقل موفق الدين بن يعيش (ت ٦٤٣هـ) في مقدّمة شرحه على مفصل الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) كلاماً للخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٠هـ) عن علة الإيجاز في بعض كتب المتقدمين، يقول: «من الأبواب ما لو شئنا أن نشرحه حتى يستوي فيه القوي والضعيف لفعلنا، ولكن يجب أن يكون للعالم مزية بعدنا»^(٣).

الحدّ الفاصل بين المتقدمين والمتأخرين

يذكر الذهبي (ت ٧٤٨هـ) في مقدّمة كتابه «ميزان الاعتدال» أن الحدّ الفاصل بين المتقدم والمتأخر هو رأس سنة ثلاث مئة^(٤).

(١) الهجيري: الدّأب والعادة. لسان العرب (مادة هجر).

(٢) عيون الأخبار ١ / ٤٤-٤٦.

(٣) ١ / ٢.

(٤) ١ / ٤.

خصائص النبوة الأربعة

يذكر أبو نُعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ) في مقدّمة كتابه «دلائل النبوة» كلامًا ماتعًا حول خصائص النبوة، خليقٌ به أن يساق برمّته لحسنه وروعته. يقول بأن النبوة سفارة بين الله تعالى وذوي الألباب من خليقته، ولهذا توصف أبدأ بالرسالة والبعثة^(٥)، ثم يقول بعد أسطر: «ثم إن هذه النبوة التي هي السفارة لا تتم إلا بخصائص أربعة يهبها الله عزّ وجلّ لهم، [أي الأنبياء] كما أن إزالة علل العقول لا تتم إلا بالسلامة من آفات أربعة يُعصم منها، فالسفير السعيد بالمواهب الأربعة سليمٌ عن الآفات الأربعة، والعاقل السليم من الآفات الأربعة ليس بسعيد بالمواهب الأربعة. فالمواهب الأربعة، أولها: الفضيلة النوعية. وثانيها: الفضيلة الإكرامية. وثالثها: الإمداد بالهداية. ورابعها: الثقيف عند الزلّة.

والآفات الأربعة التي يُعصم منها السليم من الأولياء، أولها: الكفر بالله عزّ وجلّ، وثانيها: التقوّل على الله، وثالثها: الفسق في أوامر الله، ورابعها: الجهل بأحكام الله.

فمعنى الفضيلة النوعية أن الأحسن في سير الملوك والأحمد في حكمهم أنهم لا يرسلون مبلغًا عنهم إلا الأفضل، المستقلّ بأثقال الرسالة قد ثقّفته خدمته، وخرّجته أيامه، والعقول تشهد أن مثله مقيضًا مرتادًا عند المرسل مثله في الإبلاغ والتأدية عنه، فالله الحكيم القدير لا يختار للرسالة إلا المتقدم على المبعوث إليهم، المزيّن بكل المناقب، ولهذا لم يوجد نبيّ قطُّ به عاهة في بدنه، أو اختلاط في عقله، أو دناءة في نسبه، أو رداءة في خلقه، وإليه رجع قوله عزّ وجلّ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ومعنى الفضيلة الإكرامية أن الملوك متى أرسلوا رسولاً اختاروه للوفادة، أيدوه في حال الإرسال بلطائف وكراماتٍ وزوائدٍ ومعوناتٍ، يبسر^(٦) الخطب عليه فوق ما كان مكنه منه، وخوله في ماضي خدمته، فالله الرؤوف الرحيم إذا أمره للإبلاغ عنه أمده بزوائد تقوي قلبه، وتشحذ قريحته، وتمكنه من الأخلاق الحميدة والعزائم القوية، والحكم المديد، كما أيد موسى عليه السلام بحل العقدة من لسانه، وإشراكه هارون في الإرسال، وهو قوله عز وجل: ﴿فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ [القصص: ٣٤] فإليه يرجع قوله عز وجل: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٣٦].

ومعنى الإمداد بالهداية فإن الملوك إذا اختاروا للإبلاغ عنهم من علموا منه الكفاءة والاستغلال بما ولّوه، فلا يُخلّونه من كتبٍ منهم إليه تتضمن الرشد والهداية، علماً منهم بأنه مجبول على صنعة الأدميين. فالله العلي العظيم متى قلد عبداً قلائد الرسالة فحكمته تقضي أن لا يخليه من موادّ الإرشاد لعلمه أن العلوم المكتسبة لا تنال إلا تعريفاً، ولا تصاب المصالح الكلية إلا توفيقاً، وإليه يرجع قوله عز وجل: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢]، ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَّ﴾ [الإسراء: ٧٤].

ومعنى التثقيف عند الزلة فما بعث ملكاً واحداً يجب به الرعية إلى طاعة فيرى طبعه مائلاً في حال الإبلاغ إلا زجره عند أدنى هفوةٍ بأبلغ مَزْجِرةٍ، يثقفه بها صيانةً لمحلّه، وحفظاً لحراسته واستقامته، علماً منه بأن من يتنه^(٧) عن فلتاته أو شك أن

(٦) هكذا في المطبوع، ولعل العبارة: تيسر الخطب..

(٧) هكذا في المطبوع، ولعل العبارة: من لم يتنه.. فالمعنى بها أوضح.

يألفه ويعتاده، فالله اللطيف بعباده، الوافي لأوليائه بالنصر والتأييد، لا يعدم وافده وظيفه المرشح لحمل أثقال النبوة التنبيهة والثقيفة، وإليه يرجع قوله تعالى لنوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] وقوله عز وجل لداود عليه السلام: ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ [ص: ٢٢] وقوله عز وجل لسليمان عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤] وقوله عز وجل لمحمد ﷺ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطَّعَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢] و﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ [الأنفال: ٦٨] وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ [الأنعام: ٣٥].

فهذه الخصائص الأربعة لا تنال بالاكْتِسَابِ والاجْتِهَادِ؛ لأنها موهبة إلهية، وأثره علوية، حكمتها معلقة بتدبير من له الخلق والأمر، ولا يظهرها إلا في أحص الأزمته، وأحق الأمكنة، عند إحساس الحاجة الكلية، وإطباق الدهماء على الضلال من البرية، وكلها أعلى من أن تفوز به العقول الجزئية، أو تحصلها المساعي المكتسبة، وإليه يرجع قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩] وقوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١]، وقوله: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا، إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]«^(٨).

دِفَاعٌ عَنِ الْعَرَبِيَّةِ

يبدأ العلامة الزمخشريّ مقدّمة كتابه «المفصل» بحمد الله أن جعله من علماء العربية، وأن باعد الله بينه وبين الشعوبية، وبعد أسطرٍ يوجه سياطَ كلامه على مبغضي العربية والداعين إلى نبذها وجعلها وراءهم ظهرًا، حيث يقول:

«ولعل الذين يُعْضُونَ من العربية ويضعون من مقدارها، ويريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منارها حيث لم يجعل خيرةً رسله، وخيرَ كتبه في عجم خلقه، ولكن في عربيه، لا يبعُدون عن الشعوبية منابذةً للحق الأبلج وزينًا عن سواء المنهج. والذي يُقضى منه العجبُ حالٌ هؤلاء في قلةٍ إنصافهم وفرطِ جورهم واعتسافهم؛ وذلك أنهم لا يجدون علمًا من العلوم الإسلامية: فقهها وكلامها، وعلمي تفسيرها وأخبارها إلا وافتقاره إلى العربية بين لا يُدفع، ومكشوف لا يتقنع. ويرون الكلام في معظم أبواب أصول الفقه ومسائلها مبنياً على علم الإعراب، والتفاسير مشحونةً بالروايات عن سيبويه والأخفش والكسائي والفراء وغيرهم من النحويين: البصريين والكوفيين، والاستظهار في مآخذ النصوص بأقوالهم والتشبّث بأهداب فسرهم وتأويلهم، وبهذا اللسانِ مُناقَلتُهم في العلم ومحاورتهم وتدريسهم ومناظرتهم، وبه تقطُر في القراطيسِ أقلامُهم، وبه تسطر الصكوك والسجلاتِ حكائمهم؛ فهم مُلتبسون بالعربية أياً سلکوا^(٩)، غير منفكّين منها أينما وُجِّهوا، كلُّ عليها حيثما سيروا. ثم إنهم في تضاعيف ذلك يجحدون فضلها، ويدفعون خصلها^(١٠)، ويذهبون عن توقيرها وتعظيمها، وينهون عن تعلّمها

(٩) أي: أيّ طريق أو سبيل سلکوا. شرح المفصل لابن يعيش ١ / ١٠.

(١٠) الحِصْل هو الغلبة في السباق والرمي، يقال: تخاصل القوم: تراهنوا على النضال والرمي،

وتعليمها، ويمزقون أديمها، ويمضغون لحمها، فهم في ذلك على المثل السائر: «الشعير يؤكل ويدم». ويدعون الاستغناء عنها، وأنهم ليسوا في شق منها^(١١). فإن صح ذلك فما بالهم لا يطلقون اللغة رأساً والإعراب، ولا يقطعون بينها وبينهم الأسباب، فيطمسوا من تفسير القرآن آثارهما، وينقصوا من أصول الفقه عبارتهما، ولا يتكلموا في الاستثناء فإنه نحو، وفي الفرق بين المَعْرِفِ والمنكَّر فإنه نحو، وفي التعريفين: تعريف الجنس وتعريف العهد فإنها نحو، وفي الحروف كالواو والفاء وثم ولام الملك ومن التبويض ونظائرها، وفي الحذف والإضمار، وفي أبواب الاختصار والتكرار، وفي التطبيق بالمصدر واسم الفاعل^(١٢)، وفي الفرق بين أن وإن وإذا ومتى وكلمة وأشباها مما يطول ذكره فإن ذلك كله من النحو^(١٣).

صَابِطُ النَّقْلِ عَنِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ

يتحدث العلامة ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) في مقدِّمة كتابه «البداية والنهاية» عن صابط الرواية عن الإسرائيليات قائلاً: «ولسنا نذكر من الإسرائيليات إلا ما أذن الشارح في نقله مما لا يخالف كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وهو القسم الذي لا يُصدَّق ولا يُكذَّب، مما فيه بسطٌ لمختصر عندنا، أو تسميةٌ لبهم ورد به شرعنا مما لا فائدة في تعيينه لنا، فنذكره على سبيل التحلي به لا على سبيل الاحتياج إليه والاعتماد

وأحرز فلان خصله: غلب على الرهان. لسان العرب (مادة خصل).

(١١) الشق: الناحية والجانب، والمعنى: أنهم يتبرؤون منها، ويدعون الاستغناء عنها.

شرح المفصل ١ / ١٠.

(١٢) أي أن يقول الرجل لزوجته: أنت طلاق أو أنت طالق.

(١٣) ص ٢-٣.

عليه. وإنما الاعتماد والاستناد على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ مما صحَّ نقله أو حسن، وما كان فيه ضعفٌ نبينهُ، وبالله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم العلي العظيم.

فقد قال الله تعالى في كتابه: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩]، وقد قصَّ الله على نبيه رسول الله ﷺ خبر ما مضى من خلق المخلوقات، وذكر الأمم الماضين، وكيف فعل بأوليائه، وماذا أحلَّ بأعدائه. وبين ذلك رسول الله ﷺ لأُمَّته بياناً شافياً، سنورد عند كل فصل ما وصل إلينا عنه - صلوات الله وسلامه عليه - من ذلك تلو الآيات الواردة في ذلك، فأخبرنا بما نحتاج إليه من ذلك، وترك ما لا فائدة فيه مما قد يتزاحم على علمه، ويتراجم في فهمه، طوائف من علماء أهل الكتاب مما لا فائدة فيه لكثير من الناس، وقد يستوعب نقله طائفة من علماء ولسنا نحذو حدوهم، ولا ننحو نحوهم، ولا نذكر منها إلا القليل على سبيل الاختصار. ونبين ما فيه حق مما وافق ما عندنا، وما خالفه فوقع فيه الإنكار.

فأما الحديث الذي رواه البخاري رحمه الله في صحيحه عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بَلَّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَحَدِّثُوا عَنِّي، وَلَا تَكْذِبُوا عَلَيَّ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» فهو محمولٌ على الإسرائيليات المسكوت عنها عندنا. فليس عندنا ما يصدقها ولا من يكذبها، فيجوز روايتها للاعتبار. وهذا هو الذي نستعمله في كتابنا هذا. فأما ما شهد له شرعنا بالصدق فلا حاجة بنا إليه استغناءً بما عندنا. وما شهد له شرعنا منها بالبطلان فذاك مردودٌ لا يجوز حكايته، إلا على سبيل الإنكار والإبطال»^(١٤).

العلم منحةً من الله

يقول ابن مالك (ت ٦٧٢هـ) في مقدمة كتابه «تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد»: «وإذا كانت العلوم منحةً إلهيةً ومواهباً اختصاصيةً فغير مستبعد أن يُدخِر لبعض المتأخرين ما عسر على كثيرٍ من المتقدمين، أعاذنا الله من حسدٍ يسدّ بابَ الإنصاف، ويصدّ عن جميل الأوصاف»^(١٥).

وقريب منه ما قاله حاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ) في مقدمة «كشف الظنون»: واعلم أن نتائج الأفكار لا تقف عند حدٍّ، وتصرفات الأنظار لا تنتهي إلى غاية، بل لكل عالم ومتعلم منها حظٌّ يُجرزه في وقته المقدّر له، وليس لأحد أن يزاومه فيه؛ لأنّ العالم المعنوي واسعٌ كالبحر الزاخر، والفيض الإلهي ليس له انقطاعٌ ولا آخر، والعلوم منحٌ إلهيةٌ ومواهب صمدانية، فغير مستبعد أن يُدخِر لبعض المتأخرين ما لم يدخِر لكثير من المتقدمين فلا تغترّ بقول القائل: «ما ترك الأول للآخر»^(١٦)، بل القول الصحيح الظاهر: «كم ترك الأول للآخر!» فإنما يُستجاد الشيء ويُستردّل لجودته ورداءته لا لقدمه وحدوثه»^(١٧).

(١٥) ص ٢.

(١٦) يقول الجاحظ: «وقد قالوا: ليس مما يستعمل الناس كلمةً أضُرّ بالعلم والعلماء، ولا أضُرّ بالخاصّة والعامة، من قولهم: «ما ترك الأول للآخر شيئاً». ولو استعمل الناس معنى هذا الكلام فتركوا جميع التكلّف، ولم يتعاطوا إلا مقدار ما كان في أيديهم لفقدوا علمًا جمًّا، ومرافق لا تحصى، ولكن أبى الله إلا أن يقسم نعمه بين طبقات جميع عبادِه قسمةً عدل، يعطي كل قرنٍ وكل أمةٍ حصّتها ونصيبها، على تمام مرشد الدين، وكمال مصالح الدنيا». رسائل الجاحظ (رسالة الوكلاء) ٤ / ١٠٣.

(١٧) ١ / ٣٩.

العلوم ثلاثة

يقول الإمام الغزالي (ت ٥٠٥هـ) في مقدّمة «المستصَفَى من علم أصول الفقه»:

«العلوم ثلاثة:

١- عقليٌّ محضٌ لا يَحْتُ الشَّرْعُ عليه، ولا يندب إليه كالحساب والهندسة والنجوم وأمثاله من العلوم، فهي بينَ ظنونٍ كاذبةٍ لا تُثَقَّ - وإنَّ بَعْضَ الظنِّ إثْمٌ - وبينَ علومٍ صادقةٍ لا منفعةَ لها، ونعوذ بالله من علم لا ينفع. وليست المنفعة في الشهوات الحاضرة والنعم الفاخرة فإنها فانية دائرة بل النفع ثواب دار الآخرة.

٢- ونقليٌّ محضٌ كالأحاديث والتفاسير، والحطْبُ في أمثالها يسيرٌ إذ يستوي في الاستقلال بها الصغيرُ والكبيرُ لأن قوة الحفظ كافيةٌ في النقل، وليس فيها مجالٌ للعقل.

٣- وأشرف العلوم ما ازدوج فيه العقلُ والسمع، واصطحب فيه الرأيُ والشرع. وعلم الفقه وأصوله من هذا القبيل فإنه يأخذ من صفو الشرع والعقل سواء السبيل فلا هو تصرفٌ بمحض العقول بحيث لا يتلقاه الشرعُ بالقَبول، ولا هو مبنيٌّ على محض التقليد الذي لا يشهد له العقل بالتأييد والتسديد»^(١٨).

فائدة معرفة تاريخ الخبر

يذكر الصفدي (ت ٧٦٤هـ) في مقدّمة «الوافي بالوفيات» عددًا من الأخبار تنوّه

بأهمية معرفة الوقوف على تاريخ الحادثة أو القصة المروية، إذ هذه المعرفة تثبت صحة الحادثة أو بطلانها. من هذه الأخبار:

واقعةُ رئيسِ الرؤساء^(١٩) مع اليهودي الذي أظهر كتاباً فيه أن رسول الله ﷺ أمر بإسقاط الجزية عن أهل خيبر، وفيه شهادةُ الصحابة؛ منهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه. فحُمِلَ الكتابُ إلى رئيسِ الرؤساء ووقع الناس به في حيرةٍ، فعرضه على الحافظ أبي بكر، خطيب بغداد، فتأمَّلَه وقال: إن هذا مُزَوَّرٌ، فقليل له: من أين لك ذلك؟ فقال: فيه شهادة معاوية رضي الله عنه، وهو أسلم عام الفتح، وفتوح خيبر سنة سبع؛ وفيه شهادة سعد بن معاذ، ومات سعد رضي الله عنه يوم بني قريظة قبل خيبر بستين، ففرج ذلك عن المسلمين غمًّا^(٢٠).

وروي عن إسماعيل بن عياش أنه قال: كنت بالعراق فأتاني أهل الحديث فقالوا: ههنا رجل يحدث عن خالد بن معدان، فأتيته فقلت: أيَّ سنة كتبت عن خالد بن معدان؟ فقال: سنة ثلاث عشرة، يعني ومئة، فقلت: إنك تزعم أنك سمعت منه بعد موته بسبع سنين؛ لأن خالدًا مات سنة ست ومئة^(٢١).

كيف تُرتَّبُ ألقابُ المترجمٍ وانتماءاته؟

جاء في مقدِّمة «الوافي بالوفيات»: «تُقَدِّمُ اللقبَ على الكنية، والكنية على العلم، ثم النسبة إلى البلد ثم إلى الأصل ثم إلى المذهب في الفروع ثم إلى المذهب في الاعتقاد ثم إلى العلم أو الصناعة أو الخلافة أو السلطنة أو الوزارة أو القضاء أو الإمرة أو

(١٩) هو علي بن الحسن بن أحمد، أبو القاسم، وزير القائم بأمر الله، كان ثقة صالحاً، أخذ عنه الخطيب البغدادي. قتل سنة ٤٥٠ هـ. تاريخ بغداد ١١ / ٣٩١، وسير أعلام النبلاء ١٨ / ٢١٦.

(٢٠) ١ / ٤٤.

(٢١) ١ / ٤٥.

المشيخة أو الحج أو الحرفة، كلها مقدم على الجميع، فتقول في الخلافة: أمير المؤمنين الناصر لدين الله أبو العباس أحمد السامري، إن كان وُلد بسر من رأى، البغدادي فرقاً بينه وبين الناصر الأموي صاحب الأندلس، الشافعي الأشعري، إن كان يتمذهب في الفروع بفقهِ الشافعي ويميل في الاعتقاد إلى أبي الحسن الأشعري، ثم تقول: القرشي الهاشمي العباسي، وتقول في السلطنة: السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس الصالح، نسبة إلى أستاذه الملك الصالح التركي الحنفي البندقدار أو السلاح دار، وتقول في الوزراء: الوزير فلان الدين أبو كذا فلان، وتسرد الجميع كما تقدم ثم تقول: وزير فلان، وتقول في القضاة كذلك: القاضي فلان الدين وتسرد الباقي كما تقدم، وتقول في الأمراء كذلك: الأمير فلان الدين وتسرد الباقي إلى أن تجعل الآخرَ وظيفته التي كان يعرف بها قبل الإمرة مثل الجاشنكير^(٢٢) أو الساقى أو غيرهما، وتقول في أشياخ العلم: العلامة أو الحافظ أو المسند في من عمّر وأكثر الرواية أو الإمام أو الشيخ أو الفقيه وتسرد الباقي إلى أن تختتم الجميع بالأصولي أو النحوي أو المنطقي، وتقول في أصحاب الحرف: فلان الدين وتسرد الجميع إلى أن تقول الحرفة إما البزاز أو العطار أو الخياط^(٢٣).

(٢٢) هو الذي يتصدى لتذوق المأكول والمشروب قبل السلطان أو الأمير خوفاً من أن يُدسّ عليه فيه سُومٌ، ويتألف اللفظ من كلمتين فارسيّتين: جاشا ومعناها الذوق، وكبير أي المتعاطي. من كتاب «معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي» ص ٥٠. وانظر «معجم المصطلحات والألقاب التاريخية» ص ١١٨.

لَمْ لَا يُمَلُّ تَرْدَاؤُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؟

جاء في مقدّمة «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» لابن عطية (ت ٥٤٢هـ): قيل لجعفر بن محمد الصادق: لِمَ صار الشعرُ والخطبُ يُمَلُّ ما أُعيدَ منها والقرآنُ لا يُمَلُّ؟ فقال: لأنَّ القرآنَ حُجَّةٌ على أهلِ الدهرِ الثَّاني، كما أنه حُجَّةٌ على أهلِ الدهرِ الأوَّلِ، فكلُّ طائفةٍ تتلقاه غَضًّا جديداً، ولأنَّ كلَّ امرئٍ في نفسه متى أعاده وفكَّرَ فيه تلقى منه في كلِّ مرَّةٍ علوماً غَضَّةً، وليس هذا كلُّه في الشعرِ والخطبِ^(٢٤).

متى يكْمُلُ نُبْلُ الرَّجُلِ؟

جاء في مقدّمة «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» للمزي (ت ٧٤٢هـ): قال عليُّ بن خَشْرَمٍ: سمعت وكيعاً يقول: لا يكْمُلُ الرَّجُلُ أو لا يَنْبُلُ حتَّى يكتبَ عَمَّنْ فوقه، وعَمَّنْ هو مثله، وعَمَّنْ هو دونُه^(٢٥).

مُحَارَبَةُ الْبِدْعِ دَاعِيَةٌ إِلَى عَدَاوَةِ النَّاسِ لَا مُحَالَةٌ

يتحدث الشاطبي (ت ٧٩٠هـ) في كتابه النفيس «الاعتصام» عن أن الارتباط بين مقاومة البدعة ومعاداة الناس ارتباطٌ لا انفصامَ له، وأن مَنْ نَصَّبَ نفسه لمقاومة العوائد الباطلة للناس، فقد تعرَّضَ لسهامِ نقدهم وأنيابِ عداوتهم؛ ما من هذا بُدٌّ. يقول رحمه الله: «فترددَ النظرُ بين أن أتبع السنةَ على شرط مخالفة ما اعتاد الناس - فلا بدَّ من حصول نحو مما حصل لمخالفي العوائد، لا سيما إذا ادَّعى أهلها أن ما هم عليه هو السنةُ لا سواها، إلا أن في ذلك العبءَ الثقيل، مع ما فيه من الأجر الجزيل - وبين أن

(٢٤) ١ / ١٥.

(٢٥) ١ / ١٦٦. وكلام وكيع في سير أعلام النبلاء ٩ / ١٥٩، وتدريب الراوي ٢ / ١٤٧.

أتبعهم على شرط مخالفة السنة والسلف الصالح، فأدْخَلَ تحت ترجمة الضلال عائداً بالله من ذلك، إلا أني أوافق المعتاد، وأعدُّ من المؤالفين، لا من المخالفين، فرأيت أن الهلاك في اتباع السنة هو النجاة، وأن الناس لن يغنوا عني من الله شيئاً، فأخذت في ذلك على حكم التدريج في بعض الأمور، فقامت عليّ القيامة، وتواترت عليّ الملامة، وفوق إليّ العتاب سهامه، ونُسبتُ إلى البدعة والضلالة، وأنزلت منزلة أهل الغباوة والجهالة، وإنني لو التمس لتلك المُحدثات مخرَجاً لوجدتُ، غير أن ضيق العطن، والبعد عن أهل الفطن، رقى بي مرتقى صعباً، وضيق عليّ مجالاً رحباً، وهو كلام يشير بظاهره إلى أن اتباع المتشابهات لموافقات العادات أولى من اتباع الواضحات، وإن خالفتُ السلف الأول.

وربما ألما في تقبيح ما وجَّهت إليه وجهتي بما تشمئز منه القلوب، أو خرجوا بالنسبة إلى بعض الفرق الخارجة عن السنة شهادة ستكتب ويسألون عنها يوم القيامة، فتارة نُسبت إلى القول بأن الدعاء لا ينفع ولا فائدة فيه، كما يعزي إليّ بعضُ الناس، بسبب أنني لم ألتزم الدعاء بهيئة الاجتماع في أدبار الصلاة حالة الإمامة، وسيأتي ما في ذلك من المخالفة للسنة وللسلف الصالح والعلماء.

وتارة نُسبتُ إلى الرفض وبغض الصحابة رضي الله عنهم، بسبب أنني لم ألتزم ذكر الخلفاء الراشدين منهم في الخطبة على الخصوص، إذ لم يكن ذلك شأن من السلف في خطبهم، ولا ذكره أحدٌ من العلماء المعتبرين في أجزاء الخطب... وتارة أُضيفَ إليّ القولُ بجواز القيام على الأئمة، وما أضافوه إلا من عدم ذكري لهم في الخطبة، وذكرهم فيها مُحدثٌ لم يكن عليه من تقدم.

وتارةً أُحمَل على التزام الحرج والتنطُّع في الدين، وإنما حملهم على ذلك أي التزمتم في التكليف والفتيا الحمل على مشهور المذهب الملتزم لا أتعدّاه، وهم يتعدّونه ويفتون بما يسهل على السائل ويوافق هواه وإن كان شاذاً في المذهب الملتزم أو في غيره، وأئمة أهل العلم على خلاف ذلك، وللمسألة بسط في كتاب «الموافقات».

وتارةً نُسبتُ إلى معاداة أولياء الله، وسبب ذلك أي عادت بعض الفقهاء المبتدعين المخالفين للسنة، المنتصبين - بزعمهم - لهداية الخلق، وتكلمتُ للجمهور على جملة من أحوال هؤلاء الذين نسبوا أنفسهم إلى الصوفية ولم يتشبهوا بهم.

وتارةً نسبتُ إلى مخالفة السنة والجماعة، بناء منهم على أن الجماعة التي أمر باتباعها - وهي الناجية - ما عليه العموم، ولم يعلموا أن الجماعة ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه والتابعون لهم بإحسان.. فكنت على حالة تشبه حالة الإمام الشهرير عبد الرحمن بن بطة الحافظ مع أهل زمانه، إذ حكى عن نفسه فقال: «عجبت من حالي في سفري وحضري مع الأقربين مني والأبعدين، والعارفين والمنكرين، فإني وجدت بمكة وخراسان وغيرهما من الأماكن أكثر من لقيت بها موافقاً أو مخالفاً، دعاني إلى متابعتي على ما يقوله، وتصديق قوله، والشهادة، فإن كنت صدقته فيما يقول وأجزت له ذلك - كما يفعله أهل هذا الزمان - سمانياً موافقاً، وإن وقفت في حرفٍ من قوله، أو في شيء من فعله، سمانياً مخالفاً، وإن ذكرتُ في واحد منها أن الكتاب والسنة بخلاف ذلك واردٌ سمانياً خارجياً، وإن قرأتُ عليه حديثاً في التوحيد سمانياً سالمياً، وإن كان في الإيمان سمانياً مرجئياً، وإن كان في الأعمال سمانياً قدرياً، وإن كان في المعرفة سمانياً كرامياً، وإن كان في فضائل أبي بكر وعمر سمانياً ناصبياً، وإن سكتُ عن تفسير آية أو حديث سمانياً ظاهرياً، وإن أجبت بغيرهما

سماني باطنيًا، وإن أجتبتأويل سماني أشعريًا، وإن جحدتها سماني معتزليًا، وإن كان في السنن مثل القراءة سماني شافعيًا، وإن كان في القنوت سماني حنفيًا، وإن كان في القرآن سماني حنبليًا، وإن ذكرت رجحان ما ذهب كل واحد إليه من الأخبار - إذ ليس في الحكم والحديث محاباة - قالوا: طعن في تزكيتهم، ثم أعجب من ذلك أنهم يسمونني فيما يقرؤون عليّ من أحاديث رسول الله ﷺ ما يشتهون من هذه الأسماء، ومهما وافقت بعضهم عاداني غيره، وإن داهنت جماعتهم أسخطت الله تبارك وتعالى، ولن يغنوا عني من الله شيئًا، وإني متمسك بالكتاب والسنة، وأستغفر الله الذي لا إله إلا هو الغفور الرحيم». هذا تمام الحكاية، فكأنه رحمه الله تكلم على لسان الجميع^(٢٦).

مَدْمَةٌ اختصار الكتاب

قال ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) في مقدمة «معجم البلدان»: «ولقد التمس مني الطلاب اختصار هذا الكتاب مرارًا، فأبيت ولم أجِد لي على قصر همهم أولياء ولا أنصارًا، فما انقدت لهم ولا ارعويت، ولي على ناقل هذا الكتاب والمستفيد منه أن لا يضيع نصبي، ونصب نفسي له ولا تعبني، بتبديد ما جمعت، وتشيت ما لفتت، وتفريق ملتئم محاسنه، ونفي كل علق نفي عن معادنه ومكامنه، باقتضابه واختصاره، وتعطيل جيده من حُلِيّه وأنواره، وغصبه إعلان فضله وأسراره، فرب راغب عن كلمة غيره متهالك عليها، وزاهد في نكتة غيره مشغوف بها ينضي الركاب إليها، فإن أجبنتني فقد بررتني جعلك الله من الأبرار، وإن خالفتني فقد عقتني والله حسيبك في عقبى الدار.

ثم اعلم أن المختصر لكتاب كمن أقدم على خلقي سويّ فقطع أطرافه فتركه أشلّ اليدين، أبتّر الرجلين، أعمى العينين، أضلّم الأذنين. أو كمن سلب امرأة حليّها، فتركها عاطلاً. أو كالذي سلب الكميّ سلاحه فتركه أعزلّ راجلاً. وقد حكى عن الجاحظ أنه صنّف كتاباً وبوّبه أبواباً، فأخذ به بعض أهل عصره، فحذف منه أشياء، وجعله أشلاءً، فأحضره وقال له: يا هذا، إن هذا المصنّف كالمصوّر. وإني قد صوّرت في تصنيفي صورةً كانت لها عينان فعورتهما، أعمى الله عينيك، وكان لها أذنان فصلّمتهما، صلّم الله أذنيك، وكان لها يدان فقطعتهما، قطع الله يديك، حتى عدّ أعضاء الصورة. فاعتذر إليه الرجلُ بجهله هذا المقدار، وتاب إليه عن العودة إلى مثله»^(٢٧).

مقاصد التاليف سبعة

قال حاجي خليفة في مقدّمة «كشف الظنون»: «إن التاليف على: سبعة

أقسام، لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها، وهي:

- إما شيء لم يسبق إليه فيخترعه؛

- أو شيء ناقص يتممه؛

- أو شيء مُغلّق يشرحه؛

- أو شيء طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه؛

- أو شيء متفرّق يجمعه؛

- أو شيء مُخلط يرتبه؛

- أو شيء أخطأ فيه مصنّفه فيصلحه»^(٢٨).

(٢٧) / ١ - ١٣ - ١٤.

(٢٨) / ١ - ٣٥. وقد نص على هذه المقاصد السبعة ابن حزم في رسالته «التقريب لحدّ المنطق» =

المختصرة

وبعد فهذه أمثلة منتقاة من فرائد الفوائد التي ذكرها أئمتنا الأعلام ثوبهم الله الجنة، في مقدمات كتبهم، وديباجات مصنفاتهم. وأعتقد أن من رام تتبع أمثالها من الفوائد في سائر المقدمات - وهي جدُّ كثيرة - وقفَ على جمال كثير منها، وخليقُ بها أن تغدو - بعد مزيد من البحث والجمع - كتاباً مستقلاً قائماً برأسه.

مصادر و مراجع البحث

- أزهار الرياض في أخبار عياض. المقرئ التلمساني. تحقيق السقا والأبياري وشلبي. صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات (الرباط). ١٩٣٩.
- الاعتصام. الشاطبي. دار الحديث: القاهرة. ٢٠٠٣.
- البداية والنهاية. ابن كثير. تحقيق مستو وأبو زيد. دار ابن كثير: بيروت ودمشق ٢٠٠٧.
- تاريخ بغداد. الخطيب البغدادي. دار الفكر.
- تدريب الراوي. السيوطي. تحقيق عبد الوهاب اللطيف. دار إحياء السنة النبوية: القاهرة. ط ٢. ١٩٧٩.
- تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد. ابن مالك. تحقيق محمد كامل بركات. دار الكاتب العربي للطباعة: والنشر: مصر ١٩٦٧.

= (رسائل ابن حزم) ٤ / ١٠٣، وابن خلدون في مقدمته ٣ / ١١٠٥ - ١١٠٧، والمقرئ التلمساني في أزهار الرياض ٣ / ٣٤ - ٣٥. ونظمها بعضهم فقال:

ألا فاعلمن أن التأليف سبعة	لكل لبيب في النصيحة خالص
فشرح لإغلاقٍ وتصحيحٍ مُحطِي	وإبداعٍ حَبْرٍ مُقَدِّمٍ غيرِ ناكِصٍ
وترتيبٍ مشورٍ وجمعٍ مُفَرَّقٍ	وتقصيرٍ تطويلٍ وتتميمٍ ناقِصٍ

أزهار الرياض ٣ / ٣٥.

- تهذيب الكمال في أسماء الرجال. المزي. تحقيق بشار معروف. مؤسسة الرسالة: دمشق ط ٦. ١٩٩٤.
- دلائل النبوة. أبو نعيم الأصبهاني. تحقيق عبد الله عباس ومحمد رواس قلعه جي. دار ابن كثير: دمشق وبيروت؛ ومكتبة التراث الإسلامي: حلب. ١٩٧٠.
- رسائل ابن حزم الأندلسي. تحقيق إحسان عباس. المؤسسة العربية للدراسات والنشر: بيروت. ١٩٨٣.
- رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. الخانجي: القاهرة. ١٩٧٩.
- سير أعلام النبلاء. الذهبي. تحقيق فئة من الباحثين. مؤسسة الرسالة: بيروت. ط ١١. ٢٠٠١.
- شرح المفصل. ابن يعيش. تصوير مكتبة المتنبّي: القاهرة. دون تاريخ.
- عيون الأخبار. ابن قتيبة. دار الكتب العلمية: بيروت. ١٩٨٥.
- كشف الظنون. حاجي خليفة. مكتبة المثنى: بغداد.
- لسان العرب. ابن منظور. دار صادر: بيروت. ١٨٨١.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. ابن عطية. الدوحة. ط ١. ١٩٧٧.
- المستصفي من علم أصول الفقه. الغزالي. دار صادر: بيروت. مصورة عن طبعة بولاق ١٣٢٢هـ.
- معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي. محمد أحمد دهمان. دار الفكر المعاصر: بيروت، ودار الفكر: دمشق ١٩٩٠.
- معجم البلدان. ياقوت الحموي. دار صادر: بيروت. ١٩٨٤.
- المفصل في علم العربيّة. الزمخشري. دار الجيل: بيروت. ط ٢.
- مقدمة ابن خلدون. عبد الرحمن بن خلدون. تحقيق علي عبد الواحد وافي. نهضة مصر: القاهرة. ٢٠٠٤.
- ميزان الاعتدال. الذهبي. تحقيق علي محمد البجاوي. دار المعرفة: بيروت. ١٩٦٣.
- الوافي بالوفيات. خليل بن أبيك الصفدي. فرانتس شتاينر - ألمانيا. ١٩٦٢-١٩٩٧.

التعريف والنقد

سليم الجندي وخدمة اللغة العربية

بقلم: د. مازن المبارك(*)

الحمد لله، نسأله زيادة في العلم تكون وسيلة إلى خشيته. وثباتاً في العقل تجعله سبيلاً إلى معرفته. ونسأله أن يهبنا الإخلاص له في القول والعمل.
وبعد، فإن رسالة الطُّرُق واحدة من كتب ورسائل كثيرة ألفها الأستاذ محمد سليم الجندي، المتوفى سنة (١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م)، ولم يسبق لها النشر قبل الآن في كتاب مستقل.

أما مؤلفها فعلم من أعلام الرعيل الأول من الأعضاء العاملين في المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية) بدمشق^(١)، وهم الذين كانوا رواد النهضة اللغوية، وبناء صرحها في مفتح عهد الاستقلال في بلاد الشام.
لقد كانوا ثلة من العلماء جمعتهم اللغة العربية على حبها والإخلاص لها، ففرغوا أنفسهم لخدمتها ورعايتها؛ تعلّموا ودراسة وتعليمًا وتأليفًا وإحياء لتراثها؛ تحقيقًا لنفائسه وغوصًا على مفرداته، واهتمامًا بمواكبة اللغة ومسايرتها للعصر بجميع ما تحتاجه اللغة من وضع للمصطلحات؛ بحثًا عنها، واشتقاقًا لها، وتعريبًا حين تحتاج إلى تعريب. ورعاية لأساليبها الراقية، وصونًا لها من الضعف والركاكة.

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

(١) انظر كتاب «محمد سليم الجندي من أعلام العربية» (تأليف بسمة بديع رحيم) الصادر عن مجمع اللغة العربية بدمشق عام ٢٠١١.

ولقد كانوا أصحاب منهج عملي؛ يعملون أكثر مما يقولون، ويدعون بأحوالهم وأعمالهم إلى ما يفكرون فيه وإلى ما يعتقدونه صواباً أكثر مما يدعون إليه بأقوالهم. لقد كان كل منهم قدوة لما نذر له نفسه من تأليف أو تحقيق أو تعليم، ولم تكن العربية عندهم حرفة للارتزاق، بل كانت رسالة نهضة، وعقيدة حياة، وكان إحيائها وبعثها مجدداً بعد عصر التتريك هو الهمّ الشاغل لهم ليلهم ونهارهم. وكان الأستاذ سليم الجندي - رحمه الله - من أكثرهم نشاطاً في خدمة العربية، وأرحبهم ميداناً في تنوع أساليبه في خدمتها. فلقد اختاره المسؤولون في أول حكومة عربية أيام الأمير فيصل ليكون «منشئاً»، وهي وظيفة أوجدتها الحكومة العربية ليتولى صاحبها إنشاء الرسائل الرسمية ومراقبة ما يصدر عن إدارته أو وزارته من مراسلات، ثم رقي إلى «مميز» وهو كبير المنشئين، ثم سمي رئيساً للكتاب في قسم اللغة العربية^(٢). ثم عين معلماً للنحو، فعلم في مكتب عنبر، وعلم في مدرسة الآداب العليا، وانتخب عضواً عاملاً في المجمع، فكان جمّ النشاط كاتباً ومحاضراً ومؤلفاً في تاريخ الأدب وفي الأدباء وفي اللغة. ولقد رأيت الأستاذ الجندي أكثر أعضاء المجمع شرحاً نظرياً لمناهج العمل التي آثرها جيله لإحياء اللغة ونشر نفائسها، ورأيت ذلك يتمثل في ميدانين اثنين: أولهما ميدان الأساليب والتراكيب، وثانيهما ميدان الألفاظ.

أما في ميدان الأساليب فهو يدعو إلى محاربة الضعيف والركيك والمهلهل من التراكيب والأساليب اللغوية ويقول: «والركيك من الأساليب أخطر من المفردة الغريبة، لأنه يفسد الأسلوب اللغوي، ويذهب بجمال اللغة وإشراقها، وأخطر من

(٢) انظر كتاب «نحويون قداماء ومحدثون» ص ٦٠، وكتاب «محمد سليم الجندي من أعلام

ذلك أنه يُبعد الناشئة والكتّاب عن أساليب العربية، فتقطع الصلة بينهم وبين لغة العرب في الأدب القديم وفي القرآن الكريم، وتلك الصلة هي النسب إلى إرث الأمة الثقافي. ولو استمرّ التسامح وفتح الباب لقبول كل ما يحكى ويقال ويكتب بحجة شيوعه وانتشاره، لوصل الأمر إلى لغة عربية الحروف غريبة الوضع، ولأصبحت عربية التراث وعربية القرآن غريبة بين العرب».

وأما في ميدان الألفاظ فيقول: «إن خير وسيلة لإنعاش اللغة هي أن تنقح من شائبة العجمة والرّكاكة، وألاّ يصر إلى الدخيل والعامي إلاّ عند العجز عما يراد فهماً من الفصيح. لأنّ التسامح في استعمالها يفضي إلى إفساد اللغة وتكثيرها بغير فائدة، والتباس الفصيح بغيره، وانتشار الفوضى فيها.»

ويحدّر من تفصيح العامية إذا لم تدع إليه الحاجة، كما يحدّر من تكثيره فيقول «إذا كانت الكلمة موضوعاً لمعنى بالوضع العربي، ثم تناولت العامّة كلمة أخرى تدلّ على ذلك المعنى، وأجيز استعمال اللفظين معاً، فإن ذلك يؤدي إلى كثرة سواد المترادفات، وقد يهمل اللفظ العربي، ويحتفظ بالعامي. ثم إن إضافة هذه الألفاظ الجديدة إلى ما في المعاجم يؤدي إلى اختلاطها بالفصيح، فيفقد الكلام شرط الفصاحة والبلاغة فيه، ولا يغيب عن بالنا أن شعرنا القديم هو مادة اللغة وأساسها، ولو تسامحنا باستعمال الدخيل لأدّى ذلك إلى هجر اللغة القديمة والاستغناء عنها.»

ويتمنى الجندي «أن يكثر المتعلّمون الشاعرون بمكانة اللغة في المجتمع البشري، وينهجوا في إحيائها على قاعدة توزيع الأعمال؛ فينقب الطبيب عن أسماء العلل والأمراض، والتاجر عمّا يحتاج إليه في تجارته، والصانع عمّا يختصّ بحرفته، والعالم والمؤلف والكاتب والشاعر عمّا يفتقر إليه كلّ منهم» ويرى أن ذلك يؤدي إلى

نهضة اللغة إلى مصاف اللغات الحيّة. وما وَضَعُهُ رسالته في الطرق وأسماؤها وأنواعها، وفي الكَرَم وما يستعمل للدلالة عليها وعلى مراحل زراعتها ونضجها، إلّا أمثلة مما يدعو إليه.

إنه المنهج الحكيم الواعي الحريص على أن تبقى اللغة صورة للأمة الناطقة بها، وألّا يكون انفصام بين اللسان والحقيقة، كما نرى اليوم في أكثر جوانب حياتنا اللغوية والواقعية؛ فنرى أو نسمع ادّعاءً بالانتماء إلى العروبة أصلاً وتاريخاً وقوميّة، ثم نسمع ألسنة تعبر عن كل ذلك بما لا صلة له به!!

يقول الجندي: «إن لغة الأمة صورة تمثل حياتها الاجتماعية وغيرها، وإذا أردنا أن نحكم على العرب بمقتضى لغتهم فإننا نجد هناك نفوساً أيّبة، وأذهاناً متّقدة، ومعارف جمّة، لأنك لا تكاد تجد معنى من المعاني المتّصلة بالأجسام والعقول والطبيعة وغيرها مما بلغ إليه العقل البشريّ في ذلك العصر إلّا وجدت له في اللغة أسماء تحيط بأجزائه وأحواله.

ومن البعيد أن تضع أمة في لغتها لفظاً يدلّ على شيء من غير أن تعلمه، إذ لا يتأتّى ترقّي اللغة وتمدّنها ما لم يكن لأهلها حظّ وافر من الرقيّ والمدنيّة.»
وها هو ذا يجمع مئات من الألفاظ مما أطلقه العرب على الطرق وأسماؤها وأنواعها وأوصافها، وعلى الكَرَم ومراحل غرسها ونموّها ونضجها.. ولو فعل كل مختصّ في علم من العلوم فعله، لوجدنا آلاف الألفاظ تصوّر ما كانوا فيه من حياة متقدّمة في جميع تلك العلوم.

لقد ضرب الجندي وزملاؤه أمثلة رائعة في حب العربيّة وإدراك أثرها في حفظ الأمة الناطقة بها، وفي خدمتها والتقيّد بمنهج يحرص على قديمها وإحيائه، ونشر المنقول منها والمرويّ، وإذاعته، والبحث عمّا في كتب التراث لبعث المناسب منه

وتداوله، وكانت لتلك الطبقة من المجمعين مواقفهم الواعية لقضايا اللغة وعلومها، والمدافعة عما يحفظها حيّة على ألسن الأجيال اللاحقة وأقلامهم، ويصحّحها في الصحف والمجالات والدواوين، ويساعد الكتاب بما يضع تحت أنظارهم وبين أيديهم من سليم التراكيب، وصحيح الألفاظ، وجديد المشتقات، للدلالة على جديد المستحدثات.

ولم يكتف الجندي بدعوته النظرية تلك، بل أيدها بالعمل، وراح يضع بين أيدي الكتاب والمنشئين المفردات العربية التي يحتاجون إليها أو يبحثون عنها، وهذا أنموذج من عمله نراه اليوم في رسالة الطرق، وما فيها من مفردات للطرق وأسماؤها وأنواعها وصفاتها، مميّزًا بينها بحسب صفاتها، ففيها الطُرُق الواضحة والعظيمة والواسعة والعالية والمستقيمة والطويلة والسهلة والضيقة، والمنسدة والنافذة، والمختصرة القريبة والملتوية المشكّلة، والمشعّبة والشاقّة، والمُحفّرة والقديمة، والحفيّة، والتي تكون في الفلوات، وفي الرمل، وفي العَلْظ، وفي الأَكْمَات والجبال، وفي الأودية وفي المياه وفي الهواء. وكذلك أسماء أفواه الطرق، وأوساطها وأعلامها، ومفاوزها ومضايقتها. وكان لنا من ذلك ثروة لفظية تسمح للعاملين في المصطلحات، وللكتاب والأدباء وللمهندسين والمختصين بالطرق أن يختاروا منها ما يناسب الواقع الذي يريدون.

ولقد ترك الأستاذ الجندي مكتبة لغوية ونحوية وأدبية وتاريخية طُبِع بعضها؛ ولم يطبع كثير منها حتى اليوم، كما ترك طلابًا تحرّجوا به وكانوا خير خَلْفٍ لخير سَلَفٍ، ولقد سمعت بنفسني من كلّ منهم افتخاره واعتزازه بالتلمذة والأخذ عن أستاذه الجندي، وهم الأساتيد علي الطنطاوي وسعيد الأفغاني وأنور العطار ومحمد المبارك وزكي المحاسني وظافر القاسمي، وهم ما هم في عربيّتهم، لغة ونحوًا وأدبًا وشعرًا.

لقد شهدوا يوم مات أستاذهم الجندي عام ١٩٥٥ م أنه لم يكن في الشام أعلم منه في العربية، وأنه من أواخر من ودّعتهم الشام من علماء الرعيل الأول من رواد النهضة اللغوية.

لقد ضمّ مجمع اللغة العربية إليه الأستاذ الجندي عضواً عاملاً منذ سنة ١٩٢٢ م فبقي حتى وفاته في سنة ١٩٥٥ من أنشط أعضائه تأليفاً وتحقيقاً وإسهاماً في وضع المصطلحات، وتعريباً لما كان منها بالتركية أو بالفرنسية^(٣)، وتقويماً للفساد من الأساليب، والضعيف من التراكيب.

ولقد أحسنت الباحثة ميسم الصواف بتحقيق هذا الكتاب، فهو ذو أهمية في هذا العصر؛ لأنه غير معروف أو لا، ولأنه ثانياً يعطي درساً للذين يرفعون أصواتهم بالتعريب، ويتعطّشون إلى مفردات عربية تقابل ما بين أيديهم من مفردات اللغة الأجنبية، ويلوبون ويقترحون، وقلّ منهم من يعرف ما في تراث أمته من مفردات مجهولة أو مغمورة، لقد جاء كتاب الأستاذ الجندي اليوم ليقدم درساً عملياً يبيّن فيه كيف يجب أن يخوض كل مختصّ في ميدان اختصاصه من كتب التراث لاستخراج ما يحتاج إليه اختصاصه من مفردات عرفها العرب واستعملوها، لنأخذ اليوم ما يصلح منها.

إن الكتاب نواة معجم، بل هو معجم صغير يضمّ نحواً من مئة وأربعين كلمة لأسماء الطرق وأنواعها وصفاتها، يضعها تحت نظر القراء والباحثين يختارون منها، ويحيون ما يرونه مناسباً للتداول والاستعمال.

رحم الله الأستاذ الجندي، وأثاب المحقّقة كفاء ما بذلت من جهد، وشكّر لمجمع اللغة العربية بدمشق مسعاه في نشر المخطوطات وإحياء التراث.

(٣) انظر حاضر العربية في الشام. ص ١٠٤.

كتاب النُّكْت في القرآن

لأبي الحسن علي بن فضال المجاشعي (ت ٤٧٩هـ)

تحقيق ودراسة: إبراهيم الحاج علي

عرض: د. محمود الحسن (*)

تعريف بالمؤلف: (١)

هو أبو الحسن علي بن فضال بن غالب بن جابر المجاشعي، ينتهي نسبه إلى قبيلة تميم، ومن أجداده الشاعر الفرزدق. يُنسب في مصادر الترجمة إلى جده المجاشعي، وحيناً إلى الفرزدق فيقال: الفرزدقيّ، وحيناً إلى مسقط رأسه فيقال: القيرواني. ولد ونشأ في القيروان، ثم ارتحل إلى قرطبة ولزم فيها مكّي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ) صاحب كتاب «مشكل إعراب القرآن» وأخذ عنه النحو والتفسير والقراءات.

(*) عضو الهيئة الفنية في مجمع اللغة العربية.

(١) يُنظر في مصادر ترجمته: مقدمة التحقيق ص ٥، والأعلام للزركلي ٤: ٣١٩.

ثم سافر إلى مصر ولقي فيها أبا الحسن الحوفي (ت ٤٣٠هـ) وأخذ عنه النحو والتفسير. وتابع رحلاته إلى الشام والعراق وبلاد العجم. استقر مدة في غزنة، وتفرغ فيها للتدريس والتصنيف، وفيها ألف كتابه «النكت في القرآن».

ثم انتقل إلى نيسابور ولقي فيها أبا المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني (ت ٤٧٨هـ)، إمام الحرمين، وأخذ عنه. وفيها صنّف بعضاً من كتبه. ثم توجه إلى بغداد واستقرّ فيها، ولقي القبول والإكرام عند نظام الملك، وبقي فيها حتى وفاته سنة ٤٧٩ هـ.

من أشهر تلامذة المجاشعي: القاسم بن علي بن محمد الحريري (ت ٥١٦هـ) صاحب المقامات، وهبة الله علي بن محمد بن الشجري (ت ٥٤٢هـ) صاحب الأمالي.

ترك المجاشعي ثمانية عشر مصنفاً في اللغة والنحو والتفسير والأدب والعروض والبلاغة والتاريخ. ومنها كتاب «النكت في القرآن».

وصف الكتاب ومنهج المحقق:

طُبِعَ الكتابُ في مكتبة الرشيد، وصدر في جزأين فبلغت صفحاته (٩٤٠) صفحة، ويقع في ثلاثة أقسام:

١ - القسم الأول: للدراسة ومقدمة التحقيق ومنهج المحقق، وتشغل (٨٣) صفحة. وجاءت الدراسة موجزة ومكثفة، وخالية من الاستطراد والتشعب، إذ التزم المحقق الحديث عن الكتاب، والمؤلف ومنهجه وآرائه، دون الخروج

عن ذلك. ومع أن الدراسة تبدو موجزة، لكنها في الحقيقة كافية، وحبذا لو التزم أصحاب الدراسات بمثل منهج المحقق، الذي يختصر جهد القارئ ووقته، مع إيصال الفكرة والفائدة بيسر وسهولة وتركيز.

٢- القسم الثاني: للنص المحقق، ويقع في (٧٧٩) صفحة. ويضم الآيات القرآنية التي علّق عليها المؤلف مرتبة في السور، بحسب ترتيبها في القرآن الكريم.

٣- القسم الثالث: للفهارس الفنية وفهرس المضمون الذي سماه المحقق: فهرس مطالب الكتاب، ويشغل هذا القسم (١٦٠) صفحة. وحبذا لو وُضع فهرس المضمون في أول الكتاب أو في آخره بعد الفهارس الفنية، لتسهيل العودة إليه. والفهارس الفنية جاءت غنية ووافية وشاملة للشواهد والمسائل اللغوية والنحوية والقراءات والأعلام والمصادر التي اعتمد عليها المحقق. اعتمد المحقق على نسختين مخطوطتين للكتاب، وأنجز التحقيق مستعيناً بعدد كبير من المصادر والمراجع.

موضوع الكتاب ومضمونه:

عنوان الكتاب «النُّكْت في القرآن» والنُّكْت: جمع نُكْتة، وبحسب مقدمة المؤلف ومضمون الكتاب، فالمقصود بها هنا معناها المجازي وهو: اللطيفة المؤثرة في القلب، يُقال: جاء بِنُكْتة ونُكْت في كلامه^(٢)، أي جاء بلطائف بعد البحث والتنقيب وإعمال الفكر.

(٢) تاج العروس (نكت). والمحقق لم يُشر إلى ذلك في الدراسة.

والمؤلف ذكر في مقدمته أنه أراد أن يُصنّف كتابًا يجمع فنون القرآن الكريم، ويحتوي عيونه، ويستوعب جميع معانيه، وما يحتاج إليه الناظر فيه. لكنه رأى أن حياته ستنتهي قبل انتهائه، فقرّر أن يختصر ولا يُكثر، ويقتصر ولا يُقصر، فقصد في هذا الكتاب إلى أشد ما في القرآن إشكالاً في معنّى وإعراب ... على قدر ما يرى الموضوع محتملاً.^(٣)

وفي تصريح المؤلف ما يدلّ على أن المقصود بالنكت: اللطائف التي تحتاج إلى دراسة وتنقيب وكشف.

ومضمون الكتاب يتمثل في وَقَفَات على آيات قرآنية، عرضها المؤلف مرتبة داخل سورها، بحسب الترتيب القرآني.

وفي تلك الوقفات حاول المؤلف أن يلتمس التوجيه الإعرابي والصرفي واللغوي، للنص القرآني المختار، على اعتبار أنه يحتاج إلى كشف وتوضيح ودراسة. وشملت الوقفات عرض آراء النحاة الكوفيين والبصريين، وأقوال المفسرين وعلماء اللغة والقراءات، مع تعزيز المناقشة بشواهد من القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر.

قيمة الكتاب:

للكتاب قيمة علمية تظهر في احتوائه على آراء النحويين والمفسرين وتوجيهاتهم للنص القرآني خاصة، والنصّ اللغوي عامة، علماً أن بعض تلك الآراء كانت موجودة في مؤلّفات فُقِدَت أو ضاعت، كما هو الشأن في إعراب القرآن

(٣) دراسة المحقق للنكت في القرآن ص ٩.

للمبرد. وقد أشار المحقِّق إلى ذلك.^(٤)

ومن القيمة العلمية للكتاب ما يجده المختصون في النحو من آراء للبصريين والكوفيين، إضافة إلى آراء من ينتمون إلى المدرسة البغدادية، التي ينتسب إليها المؤلف بحسب ما انتهى إليه المحقق.^(٥)

ويكتسب الكتاب قيمة علمية بما تضمَّنه من أوجه القراءات الصحيحة والشاذة، مع مناقشتها والاستشهاد لها.

وللكتاب قيمة تاريخية تراثية أيضًا، لأنه كُتِب في القرن الخامس الهجري، وفي ظهوره إحياء لتراث الأمة الفكري في تلك المرحلة من الزمن.

وقد ذكر المحقِّق أن المؤلف اتبع منهجًا خاصًا، وتناول المادة العلمية تناولاً مميِّزًا عن تناول السابقين واللاحقين.

ولكن ظهر لي في أثناء الموازنة بين كتاب «النكت في القرآن» وكتاب «مشكل إعراب القرآن» لمكي بن أبي طالب أستاذ المجاشعي توافقًا في المنهج والمادة العلمية، إلى درجة أنه يُمكن اعتبار كتاب النكت ملخصًا لكتاب مشكل إعراب القرآن، أو مختصرًا له.

ويبدو لي أن المجاشعي درس في قرطبة على مكِّي كتاب «مشكل إعراب القرآن». والدليل على ذلك أن مكِّي ألف المُشكل في بيت المقدس سنة ٣٩١هـ، كما ذكر محقق كتاب «المشكل» الدكتور حاتم صالح الضامن.^(٦) ثم عاد بعد ذلك إلى

(٤) دراسة المحقق للنكت في القرآن ص ٤٦.

(٥) دراسة المحقق للنكت في القرآن ص ٢٧.

(٦) مشكل إعراب القرآن ١: ٤٨.

القيروان وانتقل منها إلى الأندلس، واشتغل بالإقراء والتدريس فيها، ثم في المسجد الجامع بقرطبة، وفي هذه المدة التقاه المجاشعي وأخذ عنه، ولا يبعد أن يكون قرأ عليه كتاب «مشكل إعراب القرآن»، لأن هذا الكتاب كان مكتملاً في ذلك الوقت.

يُضاف إلى ذلك أن الموازنة بين الكتابين تُظهر تقارباً في المادة العلمية، والفرق بينهما أن كتاب «المشكل» أكثر شمولاً وعمقاً وإحاطة من كتاب «النُّكت»، فكأن مؤلّف النُّكت استعان بما حفظه من المشكل وجعله مصنفاً مستقلاً.

ولبيان أوجه التطابق والاختلاف بين الكتابين أسوق هذه المقارنة:

١- بدأ المجاشعي في كتاب «النُّكت في القرآن» بسورة المائدة الآية الخامسة والعشرين وهي قوله تعالى: (قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي، فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) فقال:

يسأل عن موضع «أخي» من الإعراب؟ وفيه أربعة أوجه:

أحدها: الرفع على موضع «إني».

والثاني: العطف على المضمر في «لا أملك»، وحسن العطف عليه - وإن كان

غير مؤكّد - لأن الحشو الذي هو «إلا نفسي» قام مقام التوكيد.

والثالث: أن يكون موضعه نصباً بالعطف على الياء في «إني».

والرابع: أن يكون معطوفاً على «نفسى»^(٧).

(٧) النُّكت في القرآن ص ٢٢١.

٢- بدأ مكّي بن أبي طالب سورة المائدة بالآية الأولى، ثم عرض ما يليها، حتى وصل إلى الآية الخامسة والعشرين السابقة، وهذا يعني أن كتاب «مشكل إعراب القرآن» أوسع من كتاب النُكت، وأكثر شمولاً. وفي الآية السابقة علّق مكّي بقوله:

قوله: (نَفْسِي وَأَخِي)

«أخي»: في موضع نصب عطف على نفسي،

وإن شئت عطفته على اسم «إن»، ويُحذف خبره لدلالة الأول عليه، كأنه قال:

وإن أخي لا يملك إلا نفسه،

وإن شئت جعلت الأخ في موضع رفع بالابتداء عطف على موضع «إن» وما

عملت فيه، وتضم الخبر كالأول،

وإن شئت عطفته على المضمّر في «أملك» فيكون في موضع رفع.^(٨)

ومن الموازنة بين الكتّابين في هذا الموضع يظهر بوضوح ما بينهما من تشابه

في المادة العلمية، إذ لا فرق بين الأوجه الإعرابية التي ذكرهما المجاشعي ومكّي،

إلا في الترتيب.

فالوجه الأول عند مكّي يُقابله الوجه الرابع عند المجاشعي

والوجه الثاني عند مكّي يُقابله الوجه الثالث عند المجاشعي

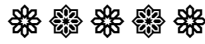
والوجه الثالث عند مكّي يُقابله الوجه الأول عند المجاشعي

والوجه الرابع عند مكّي يُقابله الوجه الثاني عند المجاشعي

(٨) مشكل إعراب القرآن ١: ٢٦١.

وهذا يدلّ على أن صاحب النُّكت استوعب ما في كتاب المُشكّل لمكيّ، وألّف كتابه في ضوئه، ولجأ إلى تغيير ترتيب الأوجه الإعرابية، ليتحصّل له التميّز في التّأليف.

ويُشار إلى أن الأوجه الإعرابية عند مكّي مرتبة بحسب الأقوى، أما عند المجاشعي فلم تكن كذلك، وهذا يجعل القيمة التاريخية للكتاب أهم من القيمة العلمية.



أبناءُ جمعيةٍ وثقافيةٍ

من قرارات مجمع اللغة العربية في الألفاظ والأساليب

عامي ٢٠٠٩-٢٠١٠م

(١٨)

أُغْنِيَّةٌ وَأُغْنِيَّةٌ

١- المسألة:

يُحْطَىُّ بعضهم كلمة (أُغْنِيَّةٌ) بتخفيف الياء، والصواب عندهم (أُغْنِيَّةٌ) بتشديد

الياء.

٢- الاقتراح:

جواز استعمال: (أُغْنِيَّةٌ وَأُغْنِيَّةٌ) إذ كِلْتاهُما صحيح.

٣- التعليل:

- جاء في التاج: «وبينهم أُغْنِيَّةٌ كأثْفِيَّةٍ وعليه اقتصر الجوهري في الصحاح.

ويُحْفَفُ عند ابن سيده»، أي: (أُغْنِيَّةٌ).

وأوردها الوسيط بالحالتين. وجمع أُغْنِيَّةٌ «أَغَانِيٌّ»، وجمع أُغْنِيَّةٌ «أَغَانٍ».

٤- القرار:

جواز قولهم: (أُغْنِيَّةٌ وَأُغْنِيَّةٌ) بتشديد الياء وتخفيفها.

(١٩)

أَفْسَحَ وَفَسَحَ

(أَفْسَحَ لَهُ الْمَجْلِسَ ، وَأَفْسَحَ لَهُ فِي الْمَجْلِسِ)

- ١- المسألة: يخطئ بعضهم عبارتي: (أَفْسَحَ لَهُ الْمَجْلِسَ ، وَأَفْسَحَ لَهُ فِي الْمَجْلِسِ). ويرون أن الصواب قولهم: (فَسَحَ لَهُ وَتَفَسَّحَ).
- ٢- الاقتراح: جواز قولهم: (أَفْسَحَ لَهُ الْمَجْلِسَ ، وَأَفْسَحَ لَهُ فِي الْمَجْلِسِ)، وإن كان الأولى أن يقال: (فَسَحَ لَهُ وَتَفَسَّحَ).
- ٣- التعليل:

أ- في اللغة: جاء في التاج: «فَسَحَ لَهُ فِي الْمَجْلِسِ يَفْسَحُ فُسْحًا وَفُسُوحًا: وَسَّعَ كَتَفَسَّحَ... وقال أعرابي لخزاز كان يخرز له قربة: إِذَا خَرَزْتَ فَأَفْسِحِ الْخُطَا [وَأَفْسِحْ هُنَا أَمْرٌ مِنَ الْمَاضِي أَفْسَحَ عَلَى وَزْنِ أَفْعَلَ]، يقول: بَاعِدْ بَيْنَ الْخَرَزَتَيْنِ... وقال الفراء: تَفَسَّحُوا، قَرَأَهَا الْحَسَنُ (تَفَاسَّحُوا)، قال: وَتَفَاسَّحُوا وَتَفَسَّحُوا مُتَقَارِبٌ فِي الْمَعْنَى أَي تَوَسَّعُوا».

وجاء في الوسيط: «فَسَحَ بَيْنَ الْخَرَزَتَيْنِ: وَسَّعَ... وَأَفْسَحَ الْمَكَانَ: وَسَّعَهُ».

فمعنى فَسَّحَ: وَسَّعَ. وَتَفَسَّحَ وَتَفَاسَّحَ: تَوَسَّعَ. وَأَفْسَحَ: بَاعِدْ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ. وَأَفْسَحَ: وَسَّعَ.

ب- في الصرف: يجوز أن يأتي (أَفْعَلَ) بمعنى (فَعَلَ)، ولا يشترط دائماً أن تفيد همزة (أَفْعَلَ) التعدية، بدليل أن ثمة أفعالاً كثيرة جاءت على هذين البناءين بمعنى واحد متعدية نحو: (شَغَلَ الْمَكَانَ وَأَشْغَلَهُ، وَبَدَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ وَأَبْدَاهُ)، وبمعنى واحد لازمة نحو: (جَدَّ فِي الْأَمْرِ وَأَجَدَّ).

وعليه فالعبارتان: (أفسح له في المجلس وأفسح له المجلس) جائزتان، إمّا بمعنى باعد له في المجلس، كما في منطوق التاج، أو بمعنى وسّع المكان كما في منطوق الوسيط.

القرار: جواز قولهم: (أَفْسَحَ لَهُ الْمَجْلِسَ ، وَأَفْسَحَ لَهُ فِي الْمَجْلِسِ)، وإن كان الأولى أن يقال: (فَسَحَ لَهُ وَتَفَسَّحَ).

(٢٠)

الأقْصُوصَةُ

١- المسألة:

يعترض بعض النقاد على كلمة (الأقْصُوصَةُ) للدلالة على القصة القصيرة لأنّها كلمة مولّدة لم ترد في المعاجم القديمة.

٢- الاقتراح: جواز قولهم: (الأقْصُوصَةُ) بمعنى القصة القصيرة.

٣- التعليل:

أ- ثمة كلمات كثيرة في العربية على (أَفْعُولَةٌ) بمعنى (فِعْلَةٌ) نحو: أكذوبة، وكذبة، أو (فُعْلَةٌ) نحو: العُوبة ولُعبَةٌ. ويمكن أن يُقاس عليها (قِصَّةٌ وَأَقْصُوصَةٌ)، ولكن ليس للمعنى نفسه وإنما لمعنى جديد.

ب- ثمة كلمات على وزن (أَفَاعِيل) وواحدتها (أَفْعُولَةٌ) نحو: أساطيرُ وأسطورة، وأراجيزُ وأرجوزة، وأهازيجُ وأهزوجة. ويمكن حمل (أَقْصُوصَةٌ) عليها مفردةً ومجموعة، كأن يُقال: (أَقْصُوصَةٌ وَأَقاصيصُ).

٤- القرار: جواز استعمال (الأقْصُوصَةُ) بمعنى القصة القصيرة.

(٢١)

(التقى بالرئيس، والتقى مع الأصحاب)

١- المسألة: يخطئ بعضهم عبارة (التقى بالرئيس)، بتعدية الفعل (التقى) بالباء، والتقى مع الأصحاب بتعدية الفعل بـ مع، والصواب عندهم (التقى الرئيس، والتقى الأصحاب) بتعدية الفعل بنفسه.

٢- الاقتراح: جواز تعدية الفعل (التقى) بالباء، ومع.

٣- التعليل:

أ- جاء في اللسان: «التقى الفارسان إذا تحاذيا وتقابلا». وجاء في التاج: «لقيت الشيء: صادفته. وكُلُّ شيءٍ استقبل شيئاً فقد لقيه وصادفه كتلقاه والتقاءه. وتلاقينا والتقيناً بمعنى واحد. والالتقاء: المحاذاة».

وجاء في الوسيط: «لقيه لقاءً ولقياناً، ولقيه: استقبله وصادفه... والتقى: استقبل كلُّ منهما صاحبه... والتقى الشئان: اجتمعا... التقى الشيء: لقيه، وتلاقياً: التقياً».

ب- وجاء في «نهج البلاغة» تح: د. صبحي الصالح/ ٤٠٨، قول الإمام علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: «لا ألتقي بهم». وجاء في رسائل البديع الهمداني: «فيعجبني الالتقاء بك، والاجتماع معك». وتكررت عبارة (التقى به) مئات المرات في كتب ما بعد عصر الاحتجاج، ومنها:

تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٥/ ٤٦٤، وتاريخ مختصر الدول لابن العبري

١/ ١٧٥، وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٥/ ٤٨٦، والعياب الزاخر للصاغاني

١/ ٧٣، والمزهر في علوم اللغة للسيوطي ١/ ١٩٩.

ج- إنَّ (التقى به) أصح من (التقاءه) لأنَّ (التقى) كما في معاجم اللغة تعني:

حاذاه وقابله، أي: (واجهه مقابلًا إياه) وصادفه، وليس هو المراد من التقى به بل المراد (اجتمع إليه).

د - وأما عبارة (التقى مع) فقد تكررت في كتب ما بعد الاحتجاج، وأهمها: شرح الحماسة للمرزوقي قال: «قالت هذه المرأة لما التقينا معها». وقال أيضًا: «والمعنى أن رجالًا التقوا معي». وقال الجاحظ: «يتلاقى مع المعارف والإخوان». ومعروف كما سبق أن (التقى وتلاقى) بمعنى واحد، بحسب التاج.

هـ- وورد في تهذيب اللغة للأزهري: «التقى مَعَهُ» (مادة: خضر)، وقال

عبدالله بن الزبير: «التقى مع الأشر» العقد الفريد ١٠٦/٢. وورد مثلها في:

تاريخ دمشق ٣٤٦/٥، و سير أعلام النبلاء ٤٢٧/٢٣، و فتح الباري لابن

حجر ٤٨٥/١، و تاريخ بغداد ٢١/١١، و الأغاني ١٤٣/٧.

٤- القرار:

يقال: (التقاه)، ويجوز استعمال (التقى به)، و(التقى معه).

(٢٢)

أُمْسِيَّةٌ وَأُمْسِيَّةٌ

١- المسألة: يخطئ بعضهم كلمة (أُمْسِيَّةٌ) بتخفيف الياء والصواب عندهم

(أُمْسِيَّةٌ) بتشديدها.

٢- الاقتراح: جواز استعمال (أُمْسِيَّةٌ) بتخفيف الياء و (أُمْسِيَّةٌ) بتشديدها.

٣- التعليل:

جاء في التاج: «وَأَتَيْتُهُ أُصْبُوحَةَ كُلِّ يَوْمٍ وَأُمْسِيَّتَهُ». وجاء في اللسان: «وَأَتَيْتُهُ

أَصْبُوْحَةٌ كُلُّ يَوْمٍ وَأُمْسِيَّةٌ كُلُّ يَوْمٍ» ومثلها في الوسيط. وعليه فالاستعمال الفصيح هو (أُمْسِيَّةٌ) بالتشديد.

ولكن يمكن قياس (أُمْسِيَّةٌ) على (أُغْنِيَّةٌ). فقد أوردت المعاجم (أُغْنِيَّةٌ وَأُغْنِيَّةٌ). فمادتها اللغوية متقاربة وهي (غَنًا وَمَسًا) والكلمتان على بناء (أَفْعُولَةٌ) وكان قياسها (أُغْنُوِيَّةٌ) وبالإعلال والإدغام صارت (أُغْنِيَّةٌ) وبالتخفيف (أُغْنِيَّةٌ). ولا شيء يمنع من حمل (أُمْسِيَّةٌ) عليها.

ومن سنن العرب تخفيف الياء المشددة في بعض المواضع إذ ورد (الأُتْفِيَّةُ) والأُتْفِيَّةُ) ولو بدلالة مغايرة قليلاً، كما قيل (الأَثْفِيَّةُ) بالتشديد، و(الأَثْفِيَّةُ) بالتخفيف، ومثلها (الأَمَانِيُّ والأَمَانِيُّ).

٤ - القرار:

جواز قولهم: (أُمْسِيَّةٌ) بالتخفيف، و(أُمْسِيَّةٌ) بالتشديد.

(٢٣)

أَمَكْنَهُ وَأَمَكْنَهُ لَهُ

(أَمَكْنَهُ اجْتِيَاظُ الْمَسَابِقَةِ)

١ - المسألة: يخطئ بعضهم قولهم: أَمَكْنَهُ وَأَمَكْنَهُ لَهُ، لأن الفعل (أَمَكْنَهُ) لازم،

ومعناه تيسر وسهل، وليس متعدياً.

٢ - الاقتراح: جواز قولهم: أَمَكْنَهُ وَأَمَكْنَنِي وَأَمَكْنَهُ لَهُ.

٣ - التعليل:

جاء في (المصباح المنير): «أَمَكْنَنِي الشَّيْءُ: سَهَّلَ وَتَيْسَرُ، وَجَاءَ: أَمَكْنَهُ الشَّيْءُ:

تيسر». فالفعل (أمكنَ) يأتي لازماً كما يأتي متعدياً، ويأتي (أمكنَ) متعدياً بنفسه كما في (أمكنني)، مثلما يأتي متعدياً باللام كما جاء في (المقابسات) في نص ذكره صلاح الدين الزعبلوي: «ولا في كل حال يمكن للإنسان أن يُثقف ما يقول، ويقوم ما يعمل».

٤- القرار:

جواز قولهم: أمكنه وأمكنني وأمكن له.

(٢٤)

الأنانيّة

١- المسألة: يخطئ بعضهم استعمال كلمة (الأنانيّة) نسبةً إلى (الأنا) لعدم ورودها في المعاجم القديمة.

٢- الاقتراح: جواز استعمال كلمة (الأنانيّة) بمعنى إيثار الإنسان نفسه بخير أو منفعة على حساب الآخرين.

٣- التعليل:

أ- إن العرب اشتقت -[والنسبة نوعٌ من الاشتقاق]- من الأسماء والأفعال والأحرف والضمائر ونسبت إليها.

كما أن النسبة بزيادة (الألف والنون والياء) مما له نظائر في لغة العرب.

ب- استعمالها في مصطلحات علم النفس والاجتماع، بل في اللغة عامة.

٤- القرار:

جواز استعمال كلمة (الأنانيّة) بمعنى إيثار الإنسان نفسه بخير أو منفعة على

حساب الآخرين.

(٢٥)

(انتصر على عدوّه)

١- المسألة: يشيع في الاستعمال عبارة: (انتصر على عدوّه، وهو منتصر)، ويخطئها بعضهم، والصواب عندهم: (نُصر على عدوّه) لأن العبارة الأولى لم ترد في المعاجم القديمة بهذه الدلالة.

٢- الاقتراح: جواز قولهم: (انتصر على عدوّه) بمعنى ظهر عليه في الحرب.

٣- التعليل:

أ- جاء في اللسان: «النصر: إغاثة المظلوم. نصره على عدوّه نصراً.. وانتصر النصر.. وإذا امتنع من ظالمه.. وانتصر منه: انتقم. والتناصر: التعاون على النصر.. ونصره: أعانه على عدوّه».

ب- وجاء في الوسيط: «نصره على عدوّه ينصره نصراً: أيّده وأعانه.. انتصر: امتنع من ظالمه.. و(انتصر على خصمه: استظهر) وانتصر منه: انتقم»، لكنه لم يذكر أن (انتصر على) عبارة مؤلّدة.

ج- تكررت عبارة (انتصر على) بمعنى ظهر على عدوه مئات المرات في كتب وبحوث ما بعد عصر الاحتجاج، منها: تاريخ دمشق لابن عساكر ٣/ ٣٧٥، فتح الباري لابن حجر ١٣/ ٥٦، تاريخ أبي الفداء ١/ ٩٠.

٤- القرار:

جواز قولهم: (انتصر على عدوّه) بمعنى ظهر عليه، وجواز قولهم: (انتصر له).

(٢٦)

انعدام

(انعدام الدواء، وانعدام الأمن)

- ١- المسألة: يُخَطِّئُ بعضهم عبارة: (انعدام الشيء) بمعنى لم يوجد، ويخَطِّئُ كلمة (الانعدام) بمعنى افتقاد الشيء، إذ يقول الزبيدي في التاج: «وقول المتكلمين: وُجِدَ الشيء فانعدم، من لحن العامة».
- ٢- الاقتراح: جواز قولهم: «انعدام الشيء» بمعنى لم يعد موجودًا، وجواز قولهم: (الانعدام) بمعنى زوال الشيء وفقد وجوده.
- ٣- التعليل:
 - أ- (انعدم) هو مطاوع لفعل (عَدِمَ) الذي معناه (فَقَدَ)، ولو صيغ مطاوعٌ لـ (فَقَدَ) لكان (انفقَدَ)، لأن (انفقَدَ) معناه (فَقَدَ) أيضًا.
 - وقد يقال: إن (عَدِمَ) فعل لازم لا يحتاج إلى مطاوعة، ولكنه جاء بمعنى الفعل المتعدي (فَقَدَ)، ولذا فقد يحتاج مثله إلى المطاوعة.
 - ومع ذلك فقد ذكرت المعاجم أفعالًا لازمة ومطاوعات، جاء في التاج: «دَرَسَ الشيءُ والرسم يدْرُسُ دُرُوسًا: عفا، واندرَسَ الرسم: انطمَسَ». وجاء: «طَمَسَ الطريقُ والدرب: درسَ [فهو لازم]، وذكر: انطمس الرسمُ والكتابُ: احمَى».
 - ب- ورد في تعريفات الجرجاني: «الأبدي ما لا يكون مُنْعَدِمًا» ١٢/١.
 - ج- أجازها مجمع القاهرة في الألفاظ والأساليب ١٠٨. /١
 - ٤- القرار: جواز قولهم (انعدم الشيء) بمعنى زال وفُقِدَ، ويُضاف الفعل الثلاثي المزيد (انعدم) إلى الجذر (عدم).

(٢٧)

البُعد

(البُعد الحضاري، والبُعد النفسي)

١- المسألة: يخطئ بعضهم عبارة: (البُعد النفسي، أو البُعد الحضاري)، لأن معنى البُعد اتساع المدى، والصواب عندهم أن يقال: الوجه الحضاري، أو الجانب النفسي...

٢- الاقتراح: جواز قولهم: (البُعد الحضاري والبُعد النفسي والبُعد التاريخي والبُعد الثقافي والبُعد الوجداني): بمعنى العمق والامتداد.

٣- التعليل:

جاء في المعاجم: «البُعد: اتساع المدى، والبُعد: خلاف القُرب. ويقال: إنه لذو بُعد، أي ذو رأي وحزم. ويقال: لفلان بُعد، أي مذهب». وفي المصطلح: البُعد الصوتي sound interval وهو الفرق النسبي بين نغمتين في السلم الموسيقي. وبُعد الطول: امتداد الجسم بين نهايتيه البعديتين. وبُعد العرض: هو امتداد الجسم بين نهايتيه القريبيتين. وبُعد العمق: امتداد الجسم من قمته إلى قاعه متعامداً مع كل من بعدي الطول والعرض.

٤- القرار:

جواز قولهم: (البُعد الحضاري والبُعد النفسي والبُعد التاريخي والبُعد الثقافي

والبُعد الوجداني): .بمعنى العمق والامتداد.

(٢٨)

تراوَح

(تراوَح السعر بين كذا وكذا)

١- المسألة: يخطئ بعضهم قولهم: (تراوَح السعر بين كذا وكذا) لأن هذه الصيغة لم ترد في المعاجم بهذه الدلالة. والصواب عندهم: (راوَحَ السعر بين كذا وكذا).

٢- الاقتراح: جواز قولهم: تراوَحَ السعر بين كذا وكذا.

٣- التعليل:

التراوَح يأتي بمعنى التعاقب، تقول: تراوَحَ الرجال إذا تعاقبوه متناولين إياه كل واحد مرة، فيكون معنى قولهم: تراوَحَ السعر: راوَحَ السعر بين كذا وكذا، ومنه يأتي مطاوعه: تراوَح، بمعنى: تعاقبَ السعر أو تردد السعر بين كذا وكذا، جاء في كتاب الألفاظ والأساليب ٢/ ٩٦ ما يلي: «يستعمل الكتاب المعاصرون مثل قولهم: والسعر يتراوَح بين الارتفاع والانخفاض، والجو يتراوَح بين الحرارة والبرودة. وقد يُعترض على هذا التعبير بأن الصواب أن يقال: (راوَح) بدلاً من (تراوَح)، كما هو مأثور في اللغة. وترى اللجنة إجازة التعبير على أساس: أن (تراوَح) في معنى (راوَح)، تنظيراً بينه وبين ما ورد في اللغة من صيغ الزوائد المتعاقبة.

أن (تراوَح) من باب المطاوعة، لأن قولهم: (راوَح بين الأمرين) وإن كان لازماً في الظاهر فهو متعدّ في المعنى.

٤- القرار:

يقال: (راوَحَ السعر بين كذا وكذا)، ويجوز أن يقال: (تراوَحَ السعر بين كذا وكذا).

(٢٩)

التَّشَارُكِيَّة

(التَّشَارُكِيَّة نِظَامِ اقْتِصَادِي)

- ١ - المسألة: يخطئ بعضهم كلمة (التَّشَارُكِيَّة) لأنها لم ترد في المعاجم.
- ٢ - الاقتراح: قبول قولهم (التَّشَارُكِيَّة) بمعنى تشارك أكثر من جهة في تنفيذ مشروع ما.
- ٣ - التعليل:
- صيغة التفاعل تدل على المشاركة كما يقال: تجاوب وتعاون وتعاقد وتسايق.
- وقد ورد في كلام المعاصرين (التَّشَارُكِيَّة) على أنها مصدر صناعي صيغ للدلالة على مذهب أو اتجاه اقتصادي.
- ٤ - القرار:
- قبول قولهم (التَّشَارُكِيَّة) بمعنى تشارك أكثر من جهة في تنفيذ مشروع ما.

(٣٠)

تَفَادِي

(تَفَادِي الْخَطَرِ وَتَفَادِي مِنَ الْخَطَرِ)

- ١ - المسألة: يشيع على أقلام بعض الكتّاب عبارة من مثل: (تفادي الرجل الخطر أو الشر). ويخطئها آخرون لأن الفعل (تفادي) متعدّد ب (من) وليس بنفسه، والصواب عندهم أن يقال: (تفادي الرجل من الخطر).

٢- الاقتراح:

جواز قولهم: (تفادى الرجل الخطر، وتفادى الرجل من الخطر)، والثانية أولى.

٣- التعليل:

جاء في المعاجم:

في اللسان: «تفادوا: فدى بعضهم بعضًا.. وافتدى منه بكذا، وتفادى فلان من كذا إذا تحاماه وانزوى عنه».

وفي التاج: «ومن المجاز: تفادى منه إذا تحاماه وانزوى عنه».

أي إن الفعل (تفادى) جاء متعديًا بـ (من).

ولكن يمكن تعليل عبارة: (تفادى الرجل الخطر) بالتعدية المباشرة بأنه في

عبارة اللسان: «تفادوا: فدى بعضهم بعضًا» يمكن أن يُحمَل بناء (تفاعَل) على معنى

(فَعَلَ)، ومن نظائره في العربية: تجاوزته بمعنى جُزئته، وتوانيتُ في الأمر بمعنى

وَنَيْتُ، فكما عدَّى (فدى) بنفسه يُحمَل عليه (تفادى). فيصح أن يقال: (تفادى

بعضهم بعضًا) كما يقال: (فدى بعضهم بعضًا) بالتعدية المباشرة.

ج- يمكن أن يُضمَّن الفعل (تفادى) معنى (تحامى) فيُعدَّى مثله بنفسه. ولعله

أيسر تعليل.

٤- القرار:

جواز قولهم: (تفادى الرجل الخطر، وتفادى الرجل من الخطر)، والثانية أولى.

(٣١)

تنزّه و المتنزّه

(تنزّهت مع الأصحاب وكان المتنزّه جميلاً)

١- المسألة:

يخطئ بعضهم كلمة (تنزّه) بمعنى خرج إلى النزهة، كما يخطئ كلمة (المتنزّه) بمعنى مكان النزهة.

٢- الاقتراح:

صحة قولهم (تنزّه) بمعنى خرج إلى النزهة، و(المتنزّه) بمعنى مكان النزهة.

٣- التعليل:

أ- جاء في لسان العرب: «النزهة معروفة. والتنزّه: التباعد. وأرض نزهة ونزهة: بعيدة عذبة نائية عن الأنداء والمياه والغمق.. الجوهرى: خرجنا نتنزّه في الرياض، وأصله من البعد، يقال: ظللنا متنزّهين إذا تباعدوا عن المياه.. وتنزّه الإنسان خرج إلى الأرض النزهة، والعامّة يضعون الشيء في غير موضعه ويغلطون فيقولون: (خرجنا نتنزّه) إذا خرجوا إلى البساتين فيجعلون التنزّه الخروج إلى البساتين والرياض، إنما التنزّه التباعد عن الأرياف والمياه حيث لا يكون ماءً ولا ندى ولا جمع ناس، وذلك شقّ البادية. ومنه قيل: فلان يتنزّه عن الأقدار وينزّه نفسه عنها، أي يباعد نفسه عنها.»

ب- وجاء في تاج العروس: «واستعمال التنزه في الخروج إلى البساتين والخضر والرياض غلطٌ قبيح. وأصل هذا الكلام عن ابن السكيت، لأنه قال: «ومما يضعه الناس في غير موضعه قولهم: (خرجنا نتنزه)، إذا خرجوا إلى البساتين، قال: وإنما التنزه التباعد عن الأرياف والمياه، ومنه قيل: فلان يتنزه عن الأقدار وينزه نفسه عنها، أي يباعدها عنها، وهذا نص الصّاح..».

وُقِلَ عن الشهاب: «ولا يُخفى أن العادة كون البساتين خارج القرى غالبًا، ولا شك أن الخروج إليها تباعدٌ، فغاية ما يلزم كونه حقيقةً قاصرة، فالعجب التعليل في ذلك مع تسليم كون التنزه التباعد. على أن المصنّف فسر التنزه بالتباعد مطلقًا ولم يقيده كما ترى، فتعليله الناس عجيب بلا مراء. انتهى.. والمتنزه: كثير التنزه إلى الخلاء.. والمنازه المواضع المتنزّهات.»

ويُفهم من هذا أن (تنزه) بمعنى خرج إلى الأرض النزهة العذبة صحيح بلا خلاف، ولكن الخلاف عندهم في عدّ الأرياف والبساتين من الأرض النزهة، لأن الأرياف والبساتين ذات أنداء مياه ورطوبة مما لا يجعلها أرضًا نزهة، ذلك أنهم كانوا يعدّون الأرض النزهة هي شقّ البادية كما ذكر، لبعدها عن الماء والرطوبة والغمق، وفهمهم هذا للأرض النزهة لا يقيّدنا لأنه متغيّر بحسب الزمان، فلا أحد يخرج إلى النزهة في أرض قدرة في زمانه. فالتنزه بمعنى الخروج إلى النزهة صحيح. وإذا صحّ فعل (تنزه) بهذه الدلالة فاسم المكان منه (المتنزه) صحيح.

ج- أثبت المعجم الوسيط الفعل (تنزه) بهذه الدلالة إذ ورد فيه: «تنزه خرج إلى الأرض للنزهة.. والمتنزه: مكان التنزه.. والمتنزه: المتنزه.. واستنزه: طلب النزهة.»

ويلحظ أن من منهج المعجم الوسيط أن يشير إلى الكلمة إن كانت محدثة أو
مجمعية، ولكنه ذكرها مطلقة، مما يدل على أنه استقاها من مصادر احتجاجية.

د- أثبتها معجم متن اللغة للشيخ أحمد رضا العاملي فقال: «تنزّه: خرج إلى
الأرض النَّزْهَة، وهي البعيدة عن الريف العذبة النائية عن الأنداء وغمق المياه».

ه- المعروف في علم الصرف أن مما يفيد بناء (تفعّل) طلب الشيء. فيكون
(تنزّه) بمعنى طلب النَّزْهَة، كما يقال: تعجّل: طلب العجلة. وعلى هذا ذكر
الوسيط (استنزّه) بمعنى طلب النَّزْهَة كما مرّ.

وصحّح مجمع القاهرة كلمة (المُنْتَزَه) التي ظل بعضهم يخطئها قرناً من الزمان،
وكان المخطئون يرون أن الصواب هو (المُنْتَزَه) من (تنزّه).

إذن، كانت كلمة (المُنْتَزَه) بمعنى المكان الذي يُخْرَج إليه للنزهة محل إجماع لم
ينازع فيها أحد، فإذا صحت كلمة (المُنْتَزَه) اسم المكان من (تنزّه)، فالفعل بالأولى.

٤- القرار:

صحة قولهم (تنزّه) بمعنى خرج إلى النزهة، و(المُنْتَزَه) بمعنى مكان النزهة.

(٣٢)

حوالي

(حضر حوالي ثلاثين طالباً)

١- المسألة:

يخطئ بعضهم عبارة (حضر حوالي ثلاثين طالباً). ويرون أن الصواب أن يقال: (حضر زهاء أو نحو ثلاثين طالباً)؛ لأن (حوالي) ظرف غير متصرف ولا يستعمل إلا للمكان.

٢- الاقتراح:

جواز استعمال عبارة «حضر حوالي ثلاثين طالباً» ونحوها، وكذا عبارة (في الصف حوالي ثلاثين طالباً).

٣- التعليل:

أ- الاعتراض على العبارة هو أن الفعل (حضر) يحتاج إلى فاعل، وأن الجملة خالية من الفاعل - كما يبدو - وأن الكلام لا ينعقد دونه. فنقول: إن الفاعل في هذه الجملة يحتمل أن يكون واحداً من ثلاثة أشياء:

- هو محذوف.

- هو الظرف (حوالي)، بأن يكون مبنياً في محل رفع.

- هو ضمير مستتر.

أما حذف الفاعل فهو ما لا يصح في العربية. وأما أن يأتي الظرف غير المتصرف فاعلاً فذلك ما لا أصل له يقاس عليه، وقد أجمع النحاة على أن الظرف

قد يقع خبراً أو نائب فاعل، أما فاعلاً فلا. وحتى عند وقوعه خبراً أو نائب فاعل فهو لا يُرفَع، والخبر أو نائب الفاعل في الحقيقة هو متعلّق الظرف.

لم يبقَ إلا أن يكون الفاعل ضميراً مستتراً. ولكنّ علامَ يعود هذا الضمير ولا كلمة سابقة يمكن العود إليها؟ نقول: إن الفاعل ضمير مستتر راجع لما دلّ عليه الكلام، كما عَزِي الفعل في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَائِيَّ﴾ [القيامة: ٢٦]، إلى ضمير يعود على (الروح) التي يدل عليها الكلام، وكذا في قول الشاعر:

إذا كان لا يرضيك حتى تردّني إلى قطريّ لا إخالك راضياً

إذ عَزِي فاعل (يرضيك) إلى ضمير يعود على ما هو مفهوم من الكلام؛ أي

(إذا كان لا يرضيك ما جرى، أو الأمر الذي جرى).

وعلى ما تقدّم يصبح تقدير العبارة: (حضر عددٌ حواليّ ثلاثين طالباً) ويكون

الظرف نعتاً للفاعل المقدر.

وقد أقرّ هذه العبارة مجمع اللغة العربية بالقاهرة في الألفاظ والأساليب

١ / ١٠١. أما العبارة الثانية (في الصف حواليّ ثلاثين طالباً)، فالحكم فيها أيسر لأن

جواز حذف المبتدأ متى عُلِمَ مُجمَعٌ عليه.

٤ - القرار:

جواز استعمال (حواليّ) بمعنى (رُهاء) أو (نحو) من باب الاتساع في الظروف.

(٣٣)

حيث أنَّ

(تنزَّهت حيث أنَّ الزهر كثير)

١ - المسألة:

يخطئ كثير من النحاة فتح همزة (إنَّ) بعد الظرف (حيث) في مثل (تنزَّهت حيث أنَّ الزهر كثير)، والصواب عندهم أن يقال: (حيث إنَّ الزهر كثير) بكسر همزة (إنَّ).

٢- الاقتراح: جواز فتح همزة (أنَّ) بعد (حيث)، والأفصح كسرهما.

٣- التعليل:

أ- جاء في مغني اللبيب ١ / ٥٠ [١٧٧]: «تلزم (حيث) الإضافة إلى جملة اسمية كانت أم فعلية، وإضافتها إلى الفعلية أكثر. ومن ثم رُجِّح النصب في نحو: جلست حيث زيداً أراه. وندرت إضافتها إلى المفرد، كقوله: ببيض المواصي حيث ليَّ العمام. أنشده ابن مالك. والكسائي يقيسه. ويمكن أن يخرج عليه قول الفقهاء: من حيث أنَّ كذا».

ب- جاء في النحو الوافي ١ / ٦٥٨: «جواز الأمرين: الفتح والنصب.. أن تقع (أنَّ) بعد (حيث) الظرفية، نحو: (أزورك حيث إنك مقيمٌ في بلدك) بفتح الهمزة وبكسرهما. فالفتح على اعتبار (حيث) الظرفية داخلة على المفرد المضاف إليه، وهو المصدر المؤول، و الكسر على اعتبارها داخلة على المضاف إليه الجملة، وهذا هو الأفصح، لذا الأغلب في (حيث) أن تضاف إلى الجملة».

ج- ورد في لسان العرب: «قال ابن الأثير: يشبه أن يكون هذا من حيث أنَّ

العرب كانوا يوصون أهلهم بالبكاء» / (عذب).

- د- جاء في أسرار البلاغة ١/ ٢٨٦: «من حيث أن تلك الهيئة موجودة فيه».
- ه- جاء في الأمالي الشجرية ١/ ١ و ١/ ٤٩٢: «من حيث أن غير المحتضر لا يراهم»
- و- تكررت عبارة (حيث أن) بالفتح (١٠٨١٤) مرة في كتب ما بعد عصر الاحتجاج.
- ٤- القرار: عدم جواز فتح همزة (إن) بعد (حيث).

(٣٤)

دونما

(يعمل دونما توقُّف)

- ١- المسألة: يخطئ بعضهم قول الكتاب: (دونما توقُّف)، لأنه لم يرد زيادة (ما) على (دون) لدى القدماء.
- ٢- الاقتراح: جواز قولهم: (دونما توقف) على أن (ما) زائدة.
- ٣- التعليل:
- (دون) معناها أقل، ومن غير، قال أبو البقاء في (الكليات) ٢/ ٣٤١: «(دون) ظرف مكان مثل (عند)، لكنه ينبئ عن دنو، أي قُرب كثير وانحطاط قليل، ثم اتسع فيه فاستعمل في كل تجاوز حدٍّ وتخطي حُكْمٍ إلى حكم».
- ولمَّا كان يجوز زيادة (ما) بعد بعض الظروف كأن تقول: عندما وبينما وبعدهما، فإنه تجوز زيادتها بعد (دون) فيقال: دونما توقف على أن (دون) ظرف، و(ما) زائدة، و(توقف) مضاف إليه.
- ٤- القرار:
- جواز قولهم: (دونما توقف) على أن (ما) زائدة.

(٣٥)

الشُّعْرِيَّة

(في النصِّ شِعْرِيَّة ظاهِرة)

١ - المسألة: يخطئ بعضهم كلمة (الشُّعْرِيَّة) بمعنى نظرية نقدية في الشعر أو الخصائص التي يكون بها النَّظْم شعراً.

٢- الاقتراح:

قبول كلمة (الشُّعْرِيَّة) بوصفها مصدرًا صناعيًا دالًّا على نظرية لسانية أدبية نقدية.

٣- التعليل:

درجَ النقاد المعاصرون على ترجمة المصطلحات الأدبية الحديثة، وقد وقفوا أمام المصطلح: (E) poéticité, (F) poétique وترجموه بـ (الشُّعْرِيَّة)، أي البحث عن المكونات التي يكون بها النَّظْم شعراً، فهم صاغوا من المصدر (الشُّعْر) مصدرًا صناعيًا بلا حقة النسب التي هي ياء النسبة، وبعدها التاء التي توصف بأنها تاء النقل من الوصفية إلى الاسمية. وتداولت كتب النقد العربي الحديث هذا المصطلح. وقد أقر مجمع اللغة العربية بالقاهرة جواز الاتساع في صوغ المصدر الصناعي، فقد جاء في أحد قراراته: إن حاجتنا إلى المصدر الصناعي مأسسة في علم الكيمياء وغيره من العلوم. وقد قال العلماء: إنه من المولّد المقيس على كلام العرب، وتخرجه سهل لأن هذا اللفظ مكوّن من اللفظ المزيد عليه ياء النسب وتاء النقل... وإذا أُريد صنع مصدر من كلمة يزداد عليها ياء النسب والتاء.

٤ - القرار: جواز قولهم (الشُّعْرِيَّة) للدلالة على العناصر المكوّنة للشعر.

(٣٦)

(طلب منه)

١- المسألة:

يخطئ بعضهم عبارة (طلب منه) لأنها لم ترد في المعاجم القديمة.

٢- الاقتراح:

جواز قولهم: (طلب منه).

٣- التعليل:

أ- ورد في الوسيط: «أدار عن الأمر: طلب منه أن يتركه، وأدار فلاناً على

الأمر: طلب منه أن يفعله. وطالبه بحقه: طلبه منه».

ب- تكررت عبارة (طلب منه) أكثر من ثمانية آلاف مرة في كتب ما بعد عصر

الاحتجاج، وأهمها:

- مفردات الراغب الأصفهاني ١/ ٣٢٧.

- النشر في القراءات العشر ١/ ٢٨٢.

- الدرر الكامنة ١/ ٤٧٧.

- تهذيب الأسماء واللغات للنووي ١/ ١١٢.

٤- القرار:

جواز قولهم: (طلب منه) بمعنى طالبه أو سأله شيئاً.

(٣٧)

طيلة

(جلست طيلة النهار)

١- المسألة:

يخطئ بعضهم قول الكتاب: (جلست طيلة النهار)، لأن الطيلة بمعنى العمر. والصواب عندهم: (جلست طوال النهار).

٢- الاقتراح: جواز قولهم: (طوال النهار وطيلة النهار).

٣- التعليل:

جاء في اللسان والتاج: «أطال الله طيلته، أي عمره، وطال طَوْلُك وطيلك، أي

عمرك. قال القطامي:

إنَّا محيوك فاسلم أيها الطلل وإن بليت وإن طالت بك الطولُ»

ويروى: الطيل جمع طيلة بمعنى طوال وكتاهما ههنا بمعنى المدى.

٤- القرار:

جواز قولهم: (طيلة النهار) بمعنى طوال النهار.

(٣٨)

العائلة

١- المسألة: يخطئ بعضهم كلمة (العائلة) بمعنى الأسرة، لأن هذه الكلمة لم

ترد في المعاجم القديمة بهذه الدلالة.

٢- الاقتراح: جواز قولهم: (عائلة) بمعنى الأسرة.

٣- التعليل:

أ- جاء في اللسان: «عال الرجل يعُول: كثر عياله.. وعيال الرجل وعيَّله: الذين يتكفَّل بهم ويعولهم.. وجاء في الحديث: «وابدأ بمن تعول» أي تَمُون وتلزمك نفقته من عيالك.. وعال عياله: كفاهم معاشهم».

وعلى هذا فالعائل هو الذي يعول وينفق على عياله وأهل بيته ويكفيهم معاشهم. ف (العائلة) هي التي تُنفق على عيالها وأهل بيتها. فيمكن قبول كلمة (العائلة) على أنها الجهة المنفقة على العيال، وهم أهل البيت، لأن أسرة الرجل أهل بيته.

ويمكن قبولها على أن (العائلة) اسم فاعل أريد به اسم المفعول، فالعائلة هي المُعالة كما ذهب الوسيط. ومعروف أن من أساليب العرب أن يأتي اسم الفاعل بمعنى اسم المفعول نحو: ﴿عيشة راضية﴾ [الحاقة: ٢١] أي مرضي عنها.

ب- أثبتتها المعجم الوسيط بهذه الدلالة.

ج- و أثبتتها معجم متن اللغة لأحمد رضا العاملي بهذه الدلالة.

د- أقرها مجمع القاهرة، و الشيخ مصطفى الغلاييني، ينظر: معجم أخطاء الكتاب للزعبلاني ٤٢٦.

هـ- تكررت في نصوص (المكتبة الشاملة) أكثر من ستة آلاف مرة نصفها تقريباً بمعنى الأسرة.

٤- القرار:

جواز قولهم: (العائلة) بمعنى الأسرة.



الكتبُ والمجلاّتُ المهدّاةُ

إلى مكتبة مجمع اللغة العربية

في الربع الثاني من عام ٢٠١٢م

أ. أنور درويش(*)

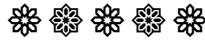
أ- الكتب العربية

- أبحاث في العربية: عبد الكافي المرعب، دمشق، ٢٠١٢.
- البلاغة العربية: بن عيسى طاهر، دارالكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ٢٠٠٨، ط ١
- الخطوات القادمة لاستكشاف الفضاء العميق: ترجمة: حسين إبراهيم، وزارة الثقافة ٢٠١٢.
- الدخيل والأثيل في شعر أمية بن أبي الصلت: نذير جعفر، وزارة الثقافة، ٢٠١٢.
- دراسات معاصرة في إدارة الشركات الحديثة وتطويرها: ترجمة د. خضر الأحمد، مؤسسة دعبول للتنمية، ٢٠١٢.

(*) : أمين المكتبة العربية في المجمع.

- دليل السيناريست: كريستوفر فوغلر، ترجمة: زياد خاشوق، وزارة الثقافة بدمشق، ٢٠١٢.
- دوستوفسكي دراسات في أدبه وفكره: ترجمة نزار عيون السود، وزارة الثقافة، ٢٠١٢.
- الرسالة الصغيرة (شعر): أحمد سهيل قنوص، تدقيق: محمد قزموز، دمشق، ٢٠١١.
- السينما الأمريكية المستقلة: ترجمة مروان سعد الدين، وزارة الثقافة بدمشق، ٢٠١٢.
- شخصيات من التاريخ: عبد الكافي المرعب، دمشق ٢٠١٢.
- الشمس تشرق غداً (دراسات ومقالات): د. إسمايل مروة، وزارة الثقافة بدمشق ٢٠١٢.
- ظاهرة التخلص من التقاء الساكنين بين القراءات: أشرف أحمد حافظ، مجلس النشر العلمي الكويت، ٢٠٠٣ (حوليات كلية الآداب والعلوم الاجتماعية رقم ١٩٣).
- علم السموم ومخاطر الملوثات: محمد فتحي بيومي، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٧.
- فن الكتابة الكوميدي: د. أسامة القفاش، وزارة الثقافة بدمشق، ٢٠١٢.
- مسند الصحابي الجليل العرياض بن سارية السلمي: صنعة: عبد الكافي المرعب، ٢٠١٢.

- مواقع التراث العالمي في سوريا: بسام جاموس، وزارة الثقافة بدمشق ٢٠١٢.
- نجيب محفوظ في التحليل اللغوي للنص الروائي: طارق شلبي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨ (العدد ٤ من سلسلة نجيب محفوظ).
- النحو والصرف (١-٢): عبد الكافي المرعب وآخرون، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، دمشق ٢٠١١.
- نظرية الكشف والتقدير وتطبيقاتها: ترجمة د. عمر أحمد شابسيغ، د. محيي الدين وايناخ، المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر، دمشق ٢٠١٢.
- ويطول اليوم أكثر من قرن أو نقطه (أم العواصف): جنكيز أيتمانوف، ترجمة عاطف أبو جمرة، وزارة الثقافة، ٢٠١٢ (سلسلة روايات عالمية ٢١).



النشرة الاجنبية

ربى المعدني (*)

Books:

- Le Défi Américan/ Jean- Jaques.
- Paul et Virginie/ Bernardin de Saint- Pierre.
- Étude des Principaux Tissus Teints en Pièces/ A. Métral.
- Les mal Aimés/ François Mauriac.
- The Mud- hut Dwellers/ Mihail Sadoveanu.
- Gilliatt le Malin/ Victor Hugo.
- The Guinness Book of World Records 1991/ Donald Mcharlan.
- Atlas Encyclopedic Dictionary, publishing House Atlas 2003.
- Acomprehensive Engineering Dictionary, 3003 دار العلم للملايين.

Periodicals:

- Population and Development Review, Vol. 34, N. 3-4, 2008.
- Tha Muslim World, Vol. 98, N. 4, 2008- Vol. 99, N. 1, 2009.
- Resistance, N. 9-10-11 (2009).
- Ibla, 73 Année, N. 205, 2010-1.



تصحیحات

نعتذر إلى القراء الكرام من وقوع أخطاء مطبعية في الجزء الثاني من المجلد (٨٧)،

وفيا يلي أهمها:

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٠٢	٩	وَأَلَّا	وَأَلَّا
٣٠٣	٨	بِاللَّهِ	بِاللَّهِ
٣٦٧	٦	كَفَّا	كَفَّا
٣٦٧	٦	(*)	(٣٦)
٣٦٧	٣-	(*)	(٣٦)
٣٦٧	٢-	(٣٦)	(٣٧)
٣٦٧	٥-	(٣٦)	(٣٧)
٤١٩	٣	بِاللَّهِ	بِاللَّهِ
٤٤٥	٣	ملخص البحث باللغة العربية	ملخص البحث

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤٥٤	٥-*	لأخ	لَأَخَذْتُ
٤٥٨	٢	سَقُونِي	سَقُونِي
٤٦٠	٩-	النور	النَّورِ
٤٦١	٣-	النغران	النَّغْران
٤٦٥	١٠	نورُ الأَقْحوانِ	نَوْرَ الأَقْحوانِ
٥٠٨	٩	رحيَّانِ النَّبِيِّ	رحيماً
٥٠٩	٤	آتَيْنَ كاد	آتِيَةٌ أكاد
٥١٣	١٠-	يَكْلَمِ	يُكَلِّمِ
٥١٨	٥-	الحركاتي	الحركات التي
٥٢١	١٠	(.. من قَبْلِهِ)	(.. من قَبْلِها)
٥٢٣	٧	بِحَلالِ	بِحَلالِ
٥٦٧	٦	الرَّوْضِ	الرَّوْضِ

(*الإشارة - تعني أن العدَّ يبدأ من أسفل الصفحة.

